يونس

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد عفة

يونس

لقد وجدت روح الأرواح
فلتكن روحي هذه ممطرة

رواية

دار المكتبي

الطبعة الأولى
2020 - 1441

Yûnus يونس

أحمد عفة
AHMET EFE

ترجمة
ياسمين الضامن

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة
بإشراف الدكتور غياث المكتبي

قامت دار المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر عن

Nar Yayınları
ÇOCUK

منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

محفوظة جميع الحقوق

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email: daralbaraem@gmail.com almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

أحمد عفة

ولد في عام ١٩٥٥ في كيسري ، عاش في أنقرة وكاستامونو وقونيا وإسطنبول ، تخرّج من مدرسة إمام وخطيب ، ومن أكاديمية العلوم التّجاريّة ، وبعد أن عمل ٧ سنوات موظّفاً بدأ يعمل عملاً حرًّا ، اهتمّ بأفرع الفنّ كالخطّ والتّذهيب والفسيفساء ، وبالنّجارة وبالرّسم والسّينما ، وأنشأ آثارًا دينية وتاريخية وأدبية وحصل على جوائز عديدة فيها ، ولديه أكثر من ١٠٠ أثر منشور في مجالات الشعر والحكاية والرواية والتجربة والمقالة ، وهو متزوج ولديه ثلاث أطفال .

بعض آثاره التي طبعت من منشورات رمّان :

قصة : خنجر ، العالم والملاح ـ حكايات من مولانا ، لعبة حرب ، اللعبة التي في الجبل ، الكنز ، النجوم التي لا تنطفىء ، طائرتي أجمل من العصافير ، الخنجر ، السراب .

شعر : قلب الضوء ـ بعد هذا طائراتي أيضاً موجودة نُشرت باسمها ، الطفل الذي يبحث عن الزمردة ، السعادة ، شجرة وحيدة ، ألوان الحسرة السبعة .

حكاية : ابن كيل وابن كيليش ، حلم الشجرة ، حكايات الأناضول ، الأرجوحة التي في السماء ، الرجل الذي في جبل كافا ، حكايات الرياح ، حكايات العالم مع المصغرات ، النمر الذي في الفخ ـ حكايات بيدبا ، الابتسام للعالم ـ فقرات حجا مع المصغرات .

الرواية : زهرة بلال ، أفعى السهول ، آخر صيد ، ميهال الأمرد ، كوتلو وميليندا ، الزنادقة مع الفواتح لمن يعيش كشمعة ليشعّ العالم ، إلى روح أبي العزيزة السّيد مصطفى .

* * *

وقفت العصافير على غصن شجرة الزعرور الجّاف ، كان الغصن مستاءً ، غريبًا ، يتيمًا ، وحيدًا بين الأغصان الواقفة ، ولم يجلس تحت ظلّه إنسان لأيام .

الذئب وأصوات العصافير وصوت الأفعى الذي يُسمع من رياحٍ غاضبة ضعيفة ، تتذمر باستمرار ، ولم تنزل من السّماء قطرة مطر واحدة صباحاً ومساءً لسبعة وعشرون يوماً كاملاً ، وهناك جانب النّافورة التي في النّهر ، لقد قطع نفس النافورة وتوقّف ينبوعها ، مع أنه كان يتدفّق بسماكة المعصم ، وكان يملأ النهر كلّه ، وكان الماء الذي بسماكة المعصم يسقي الجذور ، وثمّ يدور ويلتف ويتدفّق إلى الأسفل ، كان الماء حياتًا ورونقًا وسعادة وفرحًا ، حتّى الأخدود الآن بات حارّاً بحصاه بتأثير حرارة الشّمس ، والأعشاب اصفرّت ، والأزهار ذبلت ، وجذع شجرة الزعرور منحني ، وقلب شجرة الزعرور مجروح ، وقيدٌ صَدِيءٌ جافٌ ضرب جذور شجرة الزعرور ، وصحراء مشتعلة بلا ماء ، حارقة ومشتعلة ، تلتف وتجعل كل شيء رماداً ، الأرض التي كانت تعطي العشرات والمئات باتت جرداء ، واليوم والتّراب الذي لم يستطع إطفاء جهنّمه ، جاف وقاحل ومنهار . . . غيمةٌ واحدة ، غيمةٌ واحدة يا إلهي ، فلتأتي من خلف الجبال البعيدة ، فلتتصفى ولتنزل مياه نوافيرها ، فلتبكي ، فالنّافورة لا تضحك إذا لم تبكي الغيمة .

ولن تضحك مجموعات العصافير البريّة في الصّيف ، ولن يكبر غصن شجرة الزّعرور ولن يزدهر .

طارت العصافير التي على غصن شجرة الزعرور ، غرّدوا وهربوا ، وظهر شخصٌ من خلف المنحدر ، وتجوّلت أغنية شعبية في الأرجاء ، كان واضحًا جدّاً أنها كانت أغنية الجفاف والمجاعة ، فسكت غصن شجرة الزعرور ، وسكت التّراب ، وسكتت الأزهار الجافة ، وقفز جندب ظنّ أن هناك نافورة ثم جلس ، وأفعى غابت مع حفيفها بين الوديان ، جاء رجل مع صرخاته : « آه يا أمي آه ، آه يا بطني آه ، الجنادب تأكل المحاصيل والنّاس يأكلون الجنادب ، الجوع أعمىٰ عيوننا ، الرؤوس على الأكتاف ، والأذرع وقعت على الجوانب بضعف ، وعلى يسارنا جفاف وفوق رأسنا الهموم ، وما أكبره من هَمٍّ . . أيّ طبيب يستطيع إيجاد علاج لهذا الهم ؟ وأيّ حكيم يرشدنا للملاذ ؟ وأين الحكيم ؟ . . » .

كان في صوت الرّجل رجفة انهيار ، وعجز وحزن ، فصوته كان قد دخل إلى قالب الألم . . .

جلس تحت ظلّ شجرة الزعرور ، وثبت نظره على موقع النّافورة ، وفكّر ، لدقائق طويلة جدّاً ، ثمّ قام بصعوبة ، وقال : « هل حلّ ببيتنا الفقر يا هذا ؟ أنا أرثي لهذه الحال ، كلّ هذا القمح الذي في الحظيرة ، وكلّ هذه المؤن ، نحن أغنياء يا هذا ! ما هذا

الغمّ الذي حلّ بنا عندما جفّت ثلاث أراض ! . . » .

سكت بعد ذلك . . . كان هناك جرح قد فُتح في قلبه ، سهمٌ يشقّ ويمزّق ويدمي ، وخجل من شجرة الزعرور ومن ظلّ النافورة التي لا ماء فيها ، ومن الأزهار التي جفّت ، فأغلق وجهه بيديه ، ما هذا الكلام الذي قاله . . . فخرّ قائلاً « يا ربّي !

كان هناك حريق ، حرق المدينة وجعلها رمادًا ، ولقد شكرتك لأنّه لم يحرق دكّاننا فقط ، وهل هناك أكبر من هذا العار ؟ وهل هذا الشّكر شكرٌ ؟ يا ربّي ، سامحني ! . . . » .

كانت كلّ الأصوات تتحدث بصوت جائع وقتها ، من في البيت والسّوق والمزرعة ، والأمهات كانت تزرع الأعشاب وتطعمها للأطفال ، سلطة قاحلة ، وكأس حليب من ماء الكوثر ، والوجوه مصفرّة وميّتة ، كانت القرية موجودة لسنوات وما رأت ما يحدث قط ، ولم تهبط أذرع القرية إلى هذه الدرجة ، كلّ ما يريدونه أن يأتوا إلى أبوابهم ويجدوا مجموعة قمح ، كانوا يعْرَقُون أمام خصومهم ويرجون المساعدة ، الطّلب صعبٌ ، كان الطلب أصعب من أن يغمس روحه في الطّين ، كان والده يقف على باب الإصطبل ويعطي القادم والذّاهب قمحاً ، ويقول : . . . . . .

نفض سترته الكحليّة ومشى ، ونزل التلّة بقلب مسحوق بالألم ، ثم التفت ونظر مرّة أخرى إلى شجرة الزّعرور الوحيدة ، فاحترق كلّ

ما في داخله ، ودفن كلّ ما فيه ، ففي مثل هذه الأيام من السّنة الماضية ، كانا قد جلسا تحت ظلّها وتحادثا ، وشربا من ماء النافورة البارد ، وأكلا وليمة شهيّة من الطّيور المصطادة ، وعبّئا أكياسهما من ثمار شجرة الزعرور وعادا بها إلى القرية ، أمّا الآن لا وجود لأشجار الزّعرور ، ولا للنافورة ، ولا له ، هو جفّ وانهار ثمّ اختفت وذهب مثل أشجار الزّعرور ، فلقد أحبّا ابنة بيت واحد ، كان قد تحدّث عنها وهو في منتصف طريقه إلى القرية ، فطُعن في قلبه الصّغير ، كان روحًا أهمّ من روحه وعيناً أهم من عينه ، كان صديقه ، كان أكثر من أخ ، هل كان هناك يوم لم يلتقيا فيه ؟ ماذا يكانا يفكّران غير بالتحدث معًا ؟ كان هو ابنًا وحيدًا لأم فقيرة للغاية ، وأمّا نفسه فكان ابن أغنى رجل في القرية ، كم مرة استحما في مياه سكاريا ، وكم مرة اصطادا السمك معاً . . .

إذا أحبا الفتاة ذاتها كان على أحدهما المغادرة من هنا ، فذهب هو ، طلب منه أن يسامحه ، وعانقه ، وذهب دون أن يظهر الدموع التي كانت في عيونه . . .

آآه وهل يوثق بالدّنيا ؟ وهل ما نشربه يهدّأنا ؟

قطع تفكير يونس صرخة ، قطعها كسكين ، كان قد دخل يونس إلى القرية ، أولاً كان صوت امرأة ، ثم طفل ثم صوت رجل ضخم كضخامة الجبال على الأرض ، كانت المرأة قد انهارت فوق الرّجل

تضربه وتهزّه ، وكانت تصرخ : « هيّا قم يا شجاعي ، قم ولن تذهب إلى مكان في هذا اليوم ، هيا قم ! » ، وأما الطفل كان قد دُفن في حفرة يبكي بشدة ، جاء يونس مسرعاً ، « اسكتي يا أمي أمينة ، لا تصرخي ، ماذا حدث لعمّي ؟ »

سكتت المرأة وكأنها تقول : « تعال وانظر ماذا حدث » ، ثمّ أخرجتْ من فمها أصعب كلمة يمكن أن تخرج : « عمّك مات يا يونس ، هناك تماماً ، وقع مُرْتَمياً ، ومات ! » ثم بكتْ وبكتْ ، لم يفهم يونس ما يمر به ، قرفص ونظر إلى وجه الرّجل ، شعر لحيته كله عرق في عرق ، وفي جبينه عرق ، وعلى شفتيه زبد ، ويداه مفتوحتان ، وأصابعه جرداء ، وتراب بلا عشب ، وحرارة الشمس على جبينه ، وحشرة على عينه اليمنى المفتوحة نصفها ، كان لا يستطيع إبعاد الحشرة ، لا يستطيع إبعادها .

حمل يونس جسد الرّجل ، فوقع للأمام ، وبجانبه امرأة وقع وشاحها جانباً ، ذات ظهر منحنٍ وعيون عجوزة ، وطفل ذي عينين غائرتين . . .

وقفوا أمام البيت ، تدفّقت القرية وجاءت ، بكوا جميعاً ، وغسلوا الجسد ، وكفّنوه ، وصلّت صلاته ، ووصل مشاةُ القرية حتى وصلوا للمقبرة ، وأناموا جسده في تراب جاف ، وأمّا يونس سكت طوال الوقت .

وفي اليوم التّالي في ظلام اللّيل خرج وعلى ظهره كيس ووصل إلى البيت الذي أقيمت فيه الجنازة ، طرق الباب ودخل إلى الداخل ، ومن دون أن يقول أيه كلمة مرةً أخرى ، أعطى المرأة الكيس ، فلمعت عيون الطفل الغائرة ، ودعت المرأة له ، خرج وذهب في سكوت اللّيل دون أن يراه أحد كما أتى .

فتحت المرأة الكيس ، قمح ، قمح ! خبزٌ ، خبز طازج خرج من الفرن ، وجبن معقد ، وكيس ، وفي الكيس ذهب .

وكان دعاء المرأة في سواد الليل مع دموعها : « يا ربّي ! أعطه مراده ، ولا تُنْسِيني اسمه ! » وخرجت من صدر الطفل المُدَمَّر وقلبه المحروق كلمة « آمين . . » كبرت ولم تتسعها السماوات . . وعندما دفن يونس رأسه في وسادته ظنّ أنه سينام بسرعة ، هناك في الخارج ليلة منيرة بنور القمر وفي الخارج صوت الصّرير ، ورياح ساخنة جدًّا ، فلم يستطع يونس النّوم ، كان يفكّر أولاً بشجرة الزّعرور ، ثمّ النافورة وبصديقه وبالجسد الذي كان في وسط الطّريق ، وبالحشرة التي كانت على عين الجسد ، والزّبد الذي على فمه ، فكّر : « ما إن يعانق الموت الإنسان ، وما إن يسقط جسده في التّراب سيسقط شعره ولحيته ورموشه ، سيتعفن الجلد وسيذوب وستتقلص عظامه ، ستأتي أفعى وتبني عشها هناك ، ما أقصر طعم الحياة يا هذا ! »

قام وجلس ، وفتح النوافذ ، كان كأنه يعانق الليل ، كان قد التجىء إلى الليل . رأى ضوء مصباح ، كان الضوء يجول في الظلام ، ثم توقف ، دقق يونس ، كان الضوء يُطفىء ، كان يذوب ببطء ، ثم انطفىء الضوء ، تفاجأ وكبر في داخله فضول قاتل ، قفز من النافذة ومشى إلى الطريق الذي رأى الضوء فيه ، كانت هناك مقبرة تحت ضوء القمر ، الأحجار كانت بحجم الرأس ، مغطاة وغير مغطاة ، والمطبات يتخطاها الصدر ، ثمّ رأى قبراً جديداً ، ويد مرفوعة بالدعاء ، لم تكن خائفة ، وبصوت طري كالقطن قالت : أهذا أنت يا يونس ؟ لقد كنت أعلم أنك ستأتي .

كيف عرفت أنه سيأتي ؟ ألم يكن يونس سيستلقي وينام ؟ ها هو أمام الضوء ، لم يكن هناك أغرب من هذا اللقاء ، ليلة بضوء القمر ، ومقبرة ، وامرأة عجوز ، وشاب .

تمتمت الأخت أمينة : « هناك عظماء هنا يا يونسي ، هناك سادة أجيالها سليمة ، شبان وعجائز ووزراء وأساتذة . . . هناك شجعان مستشارون ألسنتهم كألسنة البلابل ، سادة عظماء تطبق أحكامهم يومياً ، وجميعهم ماتوا بسبات ، لا تسمع أصواتهم ولا أنفاسهم ، قد وقعت جلودهم في التراب ، ووصلت أرواحهم للحق ، وسقط شعرهم الأشقر وأسنانهم النحيلة ، أصبحوا تراباً أسوداً ، بلا أشياء وبلا ملك وبلا أولاد يا يونسي ، يهاجر الانسان إلى الدنيا الكاذبة ،

هل يتوجب علينا أن نعطي أرواحنا لأملاكنا ؟ هل يوثق بالدنيا ويُتّكىء عليها ؟ »

سقطت دمعتان على التراب ، وفي ظلام الليل امتص التراب الدموع ، كان يونس قد أصبح ثلجاً ، يذوب ويختلط بالتراب ، ارتعشت عظام خديه وجبينه ورأسه .

قالت : « هذه هي الشّهادة على الكلام ، هذه الروح هي الضيف الأساسي ، هذا اليوم بالضبط ، كطائر طار من القفص . . . » .

وقاما ، كانت الأخت أمينة تفكر بزوجها ، ويونس يقول : « كأنه طار من القفص . . . » ومشيا .

وعندما دخل يونس بيته مرة أخرى تصيب العرق على جسمه ، كان شعره ولحيته مبلولتان كأنهما وقعتا في الماء ، وذراعاه ورجليه كأنهم فقدوا قوّتهم ، استلقى على السرير بصعوبة ، وسرح ، فاستيقظ مذعوراً ، قال آهات ، واستيقظ مرة أخرى مع قدوم الصباح على يد تمسح جبينه ، كان والده ، كانت هناك ومضات غريبة يتوقعاها ، أراد أن يقول « بسم الله » ويقوم ، ولكنّه لم يستطع ، غطّاه والده بالغطاء جيداً ، وتمتم : « أنت مريض ، يلزمك طبيب ، أنت مريض بشدة » .

كان التوتر قد كثر ، والمشكلة تكبر ، تمتم يونس : « طبيب . . . » مشى والده إلى الباب قائلا : « أين الطبيب ؟ » وكان

الأذان يؤذن ، كان صوتاً عميقاً ، حبٌّ لا يشبع منه ، فارتاح يونس ، وسرح عندما قال المؤذن حيّ على الفلاح ، وأراد أن يقوم فيتوضىء ويصلي ، ولكنه لم يستطع النهوض . وبينما كان اليوم يشرق جاء طبيب عجوز يسكن خارج القرية ، ليس لديه أحد ووحيد ، وجهه جاف ومتجعد ، ويداه مرتجفتان ، كان رجلاً نحيلاً وممشوق القامة ، نظر بدقة إلى وجه يونس ، فهم مابه ، طلب هاوناً ، ملىء الهاون بأعشاب عديدة ، ورمى فيه ملعقة عسل ، ونقط فيه قليل من الماء ، خلطها وخلطها ، وهكذا صنع حساء ، أشربوه ليونس ، كان يونس يعرق ، كان صوت يونس ونَفَسُهُ قد انخفض .

نام ثلاثة أيام كاملة ، كميّت سرحان ، كان والده يوزع صدقات بالسر ، كان يذهب في منتصف الليل ويترك طعاماً ونقوداً أمام أبواب الفقراء ، وفي اليوم الثالث بينما كان يؤذن بالعصر وقف يونس على قدميه كان قد هزل وخداه تراخت وعروقه تورمت ، استقام ومشى حتى وصل إلى شجرة الزعرور ، وهناك صمت مجدداً وحرارة شهر تموز مجدداً وجفاف مجدداً ، لم يعلم بأية طريقة ، لم يعلم لماذا لا ينزل إلى طرف سكاريا ، ولماذا لا يأتي لمشاهدة الماء وهو يتدفق حتى لوكان قليلاً ، ألم يشتق لأصوات الخزائن المليئة ؟ لم يعلم ، وكأنه وقع في حُبِّ شجرة الزعرور هذه ، لقد كان قد انسحب ورحل عن القرية ، ألا يذهب هو أيضاً ؟ ألا يجول كغريب وكسائح وحيد

كلّ الأراضي ؟ سأل قلبه هذا السؤال ، فسرع قلبه ضرباته ، وجالت في قلبه خيال فتاة أجمل من القمر ، شعرها أسود بسواد الليالي ، وطويل ، وعيونها عيون الغزلان ، لامعة كالنجوم ، طول شجيرة ، وتوازن وخجل وحياء . . .

هل هي التي ربطت يونس ؟ هي التي لا تتركه كتنورتها ؟ وهل تحدثا بشكل جيد ولو لمرة واحدة ؟ هل وقفا ونظرا لبعضهما ولو لمرة واحدة ؟

جثى يونس على ركبتيه ونادى شجرة الزعرور : « يا صديقةَ وحدتي ، يا أيتها الشجرة الأنانية الغريبة ! أنا أحب تلك الفتاة أليس كذلك ؟ قلبي طائر في قفصها أليس كذلك ؟ هي أمنيتي وتفكيري ونفسي ! ولكن لماذا تهرب مني ؟ لماذا لا تلتفت وتنظر إلي ؟ هل الجفاف هو الذي أحنى رقبتها ؟ مستودعاتنا مفتوحة لهم جميعاً ، فليأتوا وليأخذوا ، لماذا لا يطلبون غرفة قمح واحدة ؟ هل هذا غرور ؟ ما أصل كل هذا ؟

يقال أنّ أمها مريضة ، ألا يمكنني الذهاب لرؤيتها ؟ وأتمنى لها الشفاء ، لماذا عندما كنت أنا مريضاً جاءت القرية بأكملها ولم يأتوا هم ؟ ألا أعامل أمها وكأنها أمي ؟ قولي يا عزيزتي شجرة الزعرور ، قولي أيتها الشجرة الجافة التي أصبحت جثة ، قلبي طائر في قفص مليكة أليس كذلك ؟

أخذ يحيى تشلبي المنديل الذي مدّته له ملكية باحترام ، مسح وجهه أولاً ثم ذراعيه مع آيات سورة القَدْر ، قال : « أشهد أن لا إله إلا الله » ومدّها إليها ، وبعد أن انحنت مليكة وأخذت الإبريق والكؤوس خرجت من الغرفة ، وأغلقت الباب ، ومع خروج الفتاة من الغرفة تربع يحيى تشلبي هيىء المجلس ، وجلس ، وبدأ بقراءة سورة يس بأجمل صوت ، وكل ما قرأ أكثر كان يصفرّ ويبكي ، وتحت ضوء الشمعة كان يظهر وجهه المليىء بالنور ، سعادة عريضة تامة ، بجبهة مضيئة ولحية طويلة بيضاء ، وبمسبحة في يده ، كان يعيش سعادة فوق التصور ، كانت أصابعه تداعب المسبحة وشفتاه تقرآن سورة يس ، كان وكأنه قد غاب في ردائه العريض ، وكأنه سيكون سراً ويختفي ، وكان هو بصمت يستمع إليه ، كانت السنة الثالثة والستين ليحيى تشلبي في هذه الحجرةُ حجرةُ السعادة ، على السجادة التركمانية التي على الأرض ، وجلد الحيوان المعلق ، والباب والنافذة والسقف والجدار . . . هذه الستون عاماً كانت كأنها نَفَسٌ قصير ، كان كيس العمر قد نفد ، والإحساس بالموت موجود في كل خطوة ، الموت قريب منه كقرب العمامة الملفوفة على رأسه ، وعندما أنهى سورة يس بدأ بالذكر المعتاد ، التسبيح العميق المتكرر ، والصّوت المعتاد الذي يخرج باحتكاك حبّات المسبحة ، وتفكير .

عندما يفكّر يحيى تشلبي كان ردائه وعمامته ومسبحته جميعهم يفكّرون أيضاً ، وكل الكائنات تفكر أيضاً ، « يولد ويعيش ويموت الإنسان ، الدنيا عبارة عن حارة لها أبواب ثلاثة » حتى عندما يكون تفكيره عن الدنيا كان عن الحياة بعد الموت ، وفجأة خطر وقوف مليكة على ذهنه ، كيف أنها على وشك الذوبان والانتهاء وقال : « يا إلهي ، هذه الشمعة ، كيف ستنطفىء ؟ هل هي المجاعة ؟ » كانت مليكة تعرف الجوع ، حتى لو لم يحل الجفاف كانت تعرفه ، ماذا عن أمها ؟ كانت مليكة تعلم أن المرض لطف من الله لعباده الجيدين ، حسناً ، إذاً ماذا ؟ ما الهمّ السري الملتصق بوجهها ؟ كان يحيى تشلبي قد فكر قبل سنوات ، عدم نضجه ، وشجاعته ، وفاتنته (بالا) . . .

السنوات التي ركع على ركبتيه وقضاها في تحصيل العلم ، ومعلمه وأستاذه ، وبيت أستاذه ، ومنضدة القراءة وطاولة ، كان يجلس وحيداً ليحفظ دروسه ، في البداية أراد أن يشرب من ماء سبيل القرية ، كانت الفاتنة (بالا) تملأ ماء من سبيل القرية ، وبلحظة تلاقت عيونهما ، كان وجه الفاتنة (بالا) ذات وجه مليكة بالضبط ، ازداد الهمّ المخبىء الذي في وجه الجميلة (بالا) عندما رأته أكثر ، احمرّت خدودها ، وبعدها فهم أنه أعطاها قلبه ، وتزوجا ، كان يحيى وكأنه حلَّ سؤالاً « إذاً ما الأمر ؟ » ، وشعر بحرقة غير مفهمومة ، ثمّ عاد إلى مسبحته مرة أخرى ، وقال « يا

ربي ! إنّ الحياة معضلة ! » ثمّ عاد إلى ذكره ، كان يسأل زوجته ، كان يسأل ما بها مليكة ، يسأل ويعرف ، كان قد اعتاد على أن يغفو بعد صلاة العشاء ساعة أو ساعتين ثمّ يقوم ، كانت العبادة في سكون الليل شعور آخر بالنسبة له ، كان النوم على الفراش المريح ثقيلاً جداً عليه في سكون الليل ، كان يشعر بالحظّ عندما يكون مع الإله إذا نام الجميع .

يسكن المكان ، وثم كان يشتكي كمملكة نحل ، يشتكي ، ويبكي بصوت منخفض ، ويفكر بذنوبه التي فعلها خلال الثلاث وستين عاماً ويبكي ، وينظر إلى سريره ولا يهتم لنعومته ، كان يقول : « سرائر الجنة أنعم منك » ، وتمتمت شفاهه دعاء رابعة : « إلهي ، نامت كل العيون ، وغارت كل النجوم ، وأغلق حكام الأرض أبوابهم ، وأنت بابك لا يغلق ، فاغفر لي » .

كانت هذه أجمل ساعات ، كان يحيى تشلبي يبني سعادته التي لا توصف أبداً في هذه الساعات ، وبعد ذلك كانت توقظ زوجته (بالا) الجميلة ابنته مليكة مع أذان الفجر ، ويستيقظون ويقفون لصلاة الفجر ، ولكن في هذه الليلة لم يحدث هذا ، غرق يحيى تشلبي في النوم عندما كان يؤذن الفجر ، وفتحت الجميلة (بالا) عيونها على صوت تكبير المؤذن الأول ، وتفاجئت عندما لم ترى زوجها أمامها ، وبصعوبة قامت وذهبت إلى غرفته ، كان يحيى

تشلبي نائماً ، يحيى تشلبي ليس مستيقظاً عند الفجر ! غطى الاستغراب المرأة العجوز ، لمسته ببطىء ، فقام يحيى تشلبي منتفضاً ، وقال : « أهذه أنت أيتها الجميلة ؟ هل نمتُ ؟ » ثمّ أيقظوا مليكة ، صبّت الفتاة الشابة ماء وضوء أبيها ثم أمها ، ثم توضئت هي أيضاً ، وذهبت إلى غرفتها ، جلس يحيى تشلبي جانب رأس زوجته ، ثمّ قال : « اسمعي يا زوجتي ، فكرت في هذه الليلة بمليكة لوقت طويل ، وتذكرت أيام شبابنا . . . ربما كانت أفكاراً سخيفة ، لأنها أزعجتني قليلاً ، ما بالُ مليكة ؟ لماذا هي حزينة ؟ أريد أن أعرف ، أنت أمّ ، هل قالت لك شيئا ؟

استغربت الجميلة (بالا) لحال زوجها الطفولي أولاً ، ثم فرحت قليلاً ، كانت مليكة بنتهم الوحيدة ، ولم يسأل أو يتحدث يحيى تشلبي عن هذه الأشياء أبداً إلى هذا اليوم ، كان يتحدث وفي يده مسبحته ، وفي ظلام الليل ومليكة نائمة ، إذاً بالتأكيد هناك أمر مهم حدث . قالت : « ماذا عليّ أن أقول ؟ هي شابة ، ستتخطى هذا بالتأكيد. . . » فسأل يحيى تشلبي : « ما الذي ستتخطاه ؟ ما الأمر ؟ » سكتت الجميلة (بالا) لمدة ، كان طول الوقت ، وطول الوقت الذي كخيط القطن مزعجاً ، ثمّ قُطع الخيط ، وقالت : « صديق يونس ، ابن الأخت نفيسة. . . هل عرفته ؟ » تمتم يحيى تشلبي : « يوسف ؟ » فقالت الجميلة (بالا) : « نعم ، هو في السنة الماضية أخذ إذناً من أمه وتغرّب ، ولم يره أحد بعد

ذلك ، كان صديق يونس ، ومليكة تفكّر بيوسف ، هذا إحساسي » . تخيل يحيى تشلبي يونس ويوسف أمام عينيه ، صديقان ، اثنان مقربان من بعضهما ونادران ، يوسف يرحل يوماً ما ، هل تحب مليكة يوسف ؟ وهل يوجد علاج لهذا الهم ؟

رَنَّ جرس الباب مرتين متتاليتين ، من هذا الذي يدق الباب في وقت صباح الفجر وبهذا الاضطراب ؟ ارتدى يحيى تشلبي حذائه وذهب إلى الباب ، وتواجدت مليكة على الباب وكأنها غيمة بيضاء متوهجة ، فتراجعت عندما رأت والدها ، تراجعت خطوتين ووقفت ، سحب يحيى تشلبي القفل ، أخرج صوتاً عالياً ، وبعد ذلك حدث صمت ، وبعدها أصوات الديكة ، وبعد ذلك طنين خفيف ، ارتجف يحيى تشلبي عندما رأى يونس القادم منذ طلوع الفجر ، كان هناك ضوء مخفي يبحث عن شيء في عينيه ، ورجفة خفيفة في لحيته ، أحنى رأسه إلى الأرض وتحدث : « أبي يريدكم ، سمعنا أن أمي (بالا) مريضة » ثمّ سكت ، وعندما كان يحيى تشلبي يحاول فهم الجملتين الغير مترابطتين أبداً ، جاء صوت زوجته المريض المسموع بصعوبة : « هل هو يونس ؟ أدخله إلى الداخل ، أريد أن أراه » تنحى يحيى تشلبي جانباً ، كان قلب يونس كقلب العصفور يدقُّ بسرعة ، كانت الضربات تقطع الأنفاس ، كان يلتصق اصفرار شمعة على وجه يونس ، ضباب في عينيه ، تخطى زوجها ودخل إلى الداخل ، لم يرى شيئاً في البداية

من ظلام الغرفة الخفيف ، فذهبت يديه إلى عينيه بلا قصد ، وحك عينيه ، فرأى سرير الجميلة (بالا) الظاهر في الزاوية من ضوء الشمعة ، ولحافاً أبيض نظيف ، ووجهاً أصفر متعباً ، أشارت المرأة إلى طرف السرير ، وصل يونس إلى هناك ، جلس يحيى تشلي متربعاً على المجلس ، شعرت مليكة أنه لا لزوم لأن تبقى في الغرفة ، فخرجت ، فنادت الجميلة (بالا) لابنتها من خلفها : « انظري يا مليكة ، حضري فطوراً لضيفنا » كان يونس سيعترض ولكنهم لم ينظروا إليه ، سأل يحيى تشلبي أولاً عن أحواله ، وعن أبيه ، كانت أجوبة يونس قصيرة ، لم يعط يونس نفسه في أجوبته للأسئلة ، كان في إقليم آخر ، وكأنه في عالم آخر ، بجانب شجرة زعرور. . . كان يونس بجانب شجرة الزعرور يطلب من يوسف السماح ، كان يونس قد أخذ نفسه وخرج من الغرفة ، إلا أن قول (بالا) الجميلة : « يا بطلي ، ألا يوجد أي خبر عن يوسف من الأخت نفيسة ؟ » خَرَّب كل شيء ، تفاجيء يونس ، كان قد جرح العصفور الذي في قلبه ، كانت عيناه تنظران باستغراب ، كانت الأخت نفيسة ، أم يوسف ، لم يذهب ولم يراها لشهور ، طغى على وجهه خجل قاهر ، ألم يتوجب عليه أن يطمئن على أم صديقه في كل هذه الشهور ؟ رثى يونس : « آه منك يا يونس ! ألم يبقى فيك ناموس ؟ »

كانت الجميلة (بالا) تنتظر جواباً ، وكان يحيى تشلبي ينتظر

جواباً بسكون ، فأجاب يونس : « أمي الغالية ، أنت تسألين عن يوسف ، إنه يدخل أحلامي ، ويقطع نومي ، ولا أعرف غير هذا ، لا خبر عنه من شوارع الغربة ، الصيف ممتلىء بأنواع الأشقياء ، أخاف أن يكون قد حدث له شيء ، فيدخل إلى أحلامي ، ويقطع نومي » .

كانت مليكة واقفة خلف الباب المفتوح قليلاً ، تسمع ما يقال حتى لو لم ترد ذلك ، وبقي أنها لم تستطع أن تمسك أذنها وراحت تسمع ، إذا هم يتحدثون عن يوسف ، يوسف يدخل إلى أحلام يونس ، ويدخل إلى أحلامها أيضاً يا هذا ، تراه وهو يتجول وحده في رأس جبل ، وتراه لا ينظر إلى وجهها ، وهناك عصا طويلة في يد يوسف ، كان يوسف يتيم الجبال التي لا تُذل ، وقلب مليكة غزال مجروح ، وجوهر مليكة مدفون ، كان تعرف مليكة نفسها بأنها لم تعد تصلح لشيء ، فهل تتفتح أزهار الأقحوان في الخريف ؟ وهل يخضرّ الغصن الجاف ؟ إذا ابتلع القلب بكائه ، هل يبعث من جديد ؟ ضُربت (فليز) بالفأس ، ألن تبكي (فليز) ؟

جاءت وعلى الصينية قطعة خبز خافة ، ورأس بصلة ، ودلو ماء ، كانت اللقم لا تمر من حلق يونس ، هناك شيء عالق في حلقه ، يجعل يونس يعرق ، ومليكة تراقب يونس بالخفاء ، فيونس قطعة من يوسف ، رائحة قديمة ، يوسف غريب . . .

سأل يحيى تشلبي : « أبوك أرادنا يا ابني ، ما هو السبب ؟ » فقال يونس : « لديه رحلة بعد يومين ، سيذهب إلى قونيا ، ولسبب غير معلوم أرسلني أنا ، ومن المؤكد أن لديه ما يقوله لكم » .

ثمّ استأذن ، وكان يفكر في نفسه لم تسأل الجميلة (بالا) عن يوسف ؟ لماذا يفكرون بيوسف ؟ لم يستطع يونس أن يُسْكتَ الغم الذي بداخله ، فبداخله كانت هناك أصوات صرخات وصرخات .

خرجا بعد أن جهز نفسه يحيى تشلبي ، ووصلا إلى البيت ويحيى تشلبي متقدم بخطوة ، وفي رأس يونس رأس بصلة جافة وخبز جاف ، استقبلهم (حضر) الكبير على الباب ، وقال الزوج (حضر) وعلى وجهه السعادة : « تفضلوا ، لقد شرفتنا يحيى تشلبي ، لن تنظر إلى تقصيرنا أليس كذلك ؟ كان يجب علينا أن نأتي نحن بالتأكيد ، ولكن هذا عمل آخر ، لا نستطيع التحدث به إلا هنا ، فلنذهب إلى الغرفة » ثم التفت إلى يونس وقال : « لقد قررنا الذهاب إلى قونيا اليوم يا ولدي ، حَضِّر لي حصاني . . . واسقه ماءً » وذهب يونس إلى الإصطبل .

كانت الشمس غير بارزة ، ترتفع فوق فروع الصفصاف ، كانت تسمع أصوات الأطفال من البيوت الحجرية ، وأصوات عواء الكلاب ، كان يوماً جديداً ، كان يعني يوم ألم جديد ، السماء المملة ذاتها ، والذل نفسه ، أخذ ماءً من البئر وصبَّه في وعاء ،

ودخل للإصطبل ، وعندما رأى الحصان يونس تحرّك ، وحرّك ذيله ورأسه ، وسكن بهدوء ، وحمحم بهدوء ، فك يونس رباط الحصان ، وشده وأحضره إلى وعاء الماء ، وفرك ظهره وبطنه ، انحنى الحصان إلى الماء وشرب وشرب وشرب ، كان الماء الذي في الوعاء ينتهي ، فشرد يونس في حلقات الماء التي في الوعاء ، الحلقات التي تكبر وتصغر ، وتصغر وتكبر ، ثمّ ألبس الحصان ملزمته ، وهيىء هيبته ، وربط حزامه ، تحرك الحصان الأصيل بفرح وكأنه قد شعر برحلة جديدة ، وصهل ، أمسك يونس الحصان من حزامه وجال به . . .

وبعد قليل ظهر أبوه الزوج (حضر) ويحيى تشلبي على الباب ، كانت رقبة يحيى تشلبي قد انحنت ، وكأنما كتفاه انهارا أيضاً ، وكأن ردائه وعمامته ثقلتا عليه ، كان حزيناً ، وعلى والده أيضاً حزن وهم ، أحضر يونس الحصان إليه ، قفز الزوج حضر على حصانه برشاقة غير منتظرة من عمره وجلس ، وقال :

« استودعتك الله يحيى تشلبي ، هل هناك شيء تريده من قونيا ؟ » تحرك يحيى تشلبي من مكانه وأشرق وجهه من جديد وقف كما لو كان يقف أمام شخص عظيم وجمع عباءته بكل احترام وقال : « أوصل سلامنا لمعلم الأولياء ، ولسلطان القلوب مولانا أيها الزوج (حضر) ، وأعلمه أنَّا نطلب منه الدعاء ، وقَبّل يديه المباركة عوضاً

عنا ، وقل له إننا نتعبد بطريقته ، واشرح له عن الحسرة التي سمعناها في وجهه المهيب ، فلتذهب ولتعد بالسلامة ، وليست لديَّ مطالب أخرى » .

فرح يونس كثيراً ، وكأنه سكر ، وكأنما تفتحت أزهار الصيف في صحراء جافة ، غردت في ابتسامته بلابل ، وينابيع تتصفى في المسبح ، وطائر أبيض يجول في السماء ، وهمسات صوت ناي رقيق وعميق وغير مشبع في العالم ، والأرض والسماء يسمعان صوت الناي ، سعادة غير منتهية ، وعشق غير منتهي ، على طرف لسانه آيات بطعم شراب العسل ، آيات لم تقل أبداً ولكن قد شعر بها ، وفي جوهر تلك الآيات الخارجة من القلب التي لم تعرف اسم ، معلم الكون ، وسلطان القلب ، اسم الوليّ ثاقب النظر . . .

ومع تنبيهات الزوج (حضر) ليونس وذهابه رفع الحصان الغريب الغبار من على الأرض واندفع ذاهباً .

لم يعد يونس يرى والده بعد أن صغر خياله تماماً عند الوادي ، وعندما التفت لم ير يحيى تشلبي أيضاً .

* * *

قام وقال : « سبحان الله ! سبحان الله ، ثلاثة ليال نفس بعضها تماماً ، وثلاث حمامات ، لعله خير إن شاء الله ، لقد حدث شيء لي ، فالليل لا يشبه الليل ، واليوم لا يشبه اليوم ، لم تكن الشمس

هكذا قبل ثلاثة أيام ، ولا السماء ولا التراب هكذا ، حتى الطريق الذي أمشي فيه كل صباح بات غريباً ، هل هو من كِبَرِ السِّن ؟ أم أن القبر بدأ يقول لي : « تعال ، تعال كن بذرة ، التف ولا تصرخ ، سيأتي يوم وتزدهر وتخرج ؟ »

لقد حلّ هذا المطر المبارك علينا بعد الجفاف الطويل ، الحمد لله . . . إنه ضرب البساط الأخضر البري الصيفي قليلاً ، لقد كانت المحاصيل قد بأت تجف واحدة تلو الأخرى ، جيد . . . مفرح وجميل . . . ولكن ماهذا الحال الذي في ؟ هل كانت السيدة نفيسة تقف في الداخل عندما تتشابك الغيوم السوداء فوقنا ؟ بل كانت تمد يديها إلى رحمة ربها المنزلة ، هل كانت لترفع رأسها وتدخل للداخل حتى تكبر تماماً ؟ ماهذا التعب والإرهاق ؟ أنا من ثلاثة أيام أرى ذلك الخيال ، خيال يوسف . . . » .

أخذت السيدة نفيسة نَفَساً من الرائحة التي عبئت المكان من النافذة المفتوحة قليلاً بالخفاء ، وضخَّتها بداخلها ، أغلقت عينيها ، لوقت طويل جداً ، ثم نورٌ ، على يمين الحائط الحجري الذي وقع غباره على الأراضي . . . عنكبوت كبير ، يخيط شبكته ، وقطة عجوز بجانب الفرن منكمشة تنام ، وفراغ كبير في الغرفة ، بردت النملات التي بداخل الوعاء الذي فوق رماد الفرن ، ونحيب السيدة نفيسة ، واختفاء السيدة نفيسة . . . أزاحت قدمها المشلولة

ووصلت إلى رأس صندوق الجوز ، أخرجت من حزامها مفتاحه ووضعته في قفله وقالت : « بسم الله » وفتحته ببطء ، وكأنهم ملؤوا الصندوق من الرائحة الخفية التي دخلت من النافذة ، الغير منتهية ، ورقة الوردة الجافة ، وزهرة أقحوان هذه رائحة عطر ، هذه رائحة زهرة السهول ، مدت ذراعها وأخرجت قميصاً قد اهترىء ، أبيض بياض الحليب ، قديم وقميص بلا ياقة ، ناعم ونظيف ، أخذت السيدة نفيسة القميص إلى وجهها ، مسحت به عينيها ووجهها ، شمته واشتكت : « يوسفي ، يا نور عيني ، يا قنديل قلبي يوسف » . كانت في المواسم الثمانية بدون أن تعطي أي فاصل ، تمسح قميص يوسف في وقت الشروق على وجهها وعينها ، وتتنفس رائحته إلى رئتيها ، كان قلبها مجروحاً كيعقوب ، كالنبي يعقوب الذي كان يشم رائحة يوسف في الشروق ، وفي كل شروق ينزوي إلى الغرفة بسبب قسوة الوحدة والهجر وعدم تحمله ، كانت السيدة نفيسة تتخيله في قلبها وتعيشه ، كان يوسف وكأنه لم يفارقها طوال المواسم الثمانية هذه أبداً ، كان يستلقي فتسمك يده ويستلقي فتقبل عينيه وشعره وتُنِيْمُه على حضنها وتشمه وتداعبه لساعات طويلة ، كانت تطبخ له الخبز وتجمع له من الجبل ثمار شجر الزعرور ، وتلف ما جمعت ، وتحضره ليوسف ، فتفسد ثمار شجرة الزعرور التي جمعتها ليوسف ، ويفسد الخبز الذي طبخته ليوسفها ، فتجمع ثمار شجر الزعرور مجدداً وتطبخ خبزاً مجدداً ،

في الطريق ، الأماكن التي لم يطأها أحد ، قمم الجبال الشامخة ، الصخور المجوفة ، عواء يخترق معابر العاصفة ، يصرخ وكأنه يفرد جناحيه ، يصرخ ، يصل صوته للأفق ، ويصطدم بصخور الجبال التي لا تهزم ويعود ، كانت السيدة نفيسة تكاد تختنق ، هي تعزف وتغني أحزنَ وأتعسَ الأغاني الشعبية التي قد عيشت ، كانت تتحمس لأي شيءٍ تعتقد بأنه يوسف ، لكن سرعان ما تذبل أزهار أملها ، وتسقط أوراق أملها كالسمسم سريعًا . . .

كانت الزحمة تعم الأناضول ، كانت نار الرابح لا تخمد بل في ازدياد بلا انطفاء ، والأشقياء قد احتلوا الجبال والوديان ، يعبئون الكرز الصيفي البري المغولي ويحملونه ، حظ المغول شرارة نارية ، يحرقون المكان الذي يلمسونه ، يهدمونه ويجعلونه رماداً ، ويلوحون برمادها في السماء ، لا . . . . ولا نظام ، لا يعرفون ظهر الجبل ، يأكلون لحم البشر ، يشربون دم البشر ، الظلم كأفعى سوداء تكورت على نفسها ، لا القادم معروف ، ولا الذاهب معروف ، كل واحد يستمع لأغنية شعبية معينة ، في زمن الأبطال . . . . . ، ومن وراء هذا يُضْرَبُ القوي ، ويدور بيده وذراعيه ، تحول الزمن ليوم القيامة ، كان لدى الشاي الذي لم يخرج حرب مع البحر ، صار نزيلاً لدى أنفاس آدم ، لا يظهر يوم موته لقد تفتت مع الرياح . . .

كل آمال السيدة نفيسة ألا تسقط الأوراق ؟ كيف لزَهْرَتها ألا

تذبل ؟ ما عسى يوسف فاعلاً في وسط هذه الجهنم وحيدًا ؟ من ينقذه ؟ من يفكر به في زحمة القيامة ؟ ومن يحميه ؟ « أنت مولانا القادر الأحد احمي يوسف . . . » .

المواسم الثمانية التي انتظرتها السيدة نفيسة أو التي ستدوم فترة أطول جعلتها في حالة يرثى لها ، خصوصا تلك الرثاء . . .

تقول « بحث عن الثلوج في الهوامش » وتقول وتنتحب : « بردت القرية ، وغطت الثلوج الأرضَ بغطاء أبيض ، أُغْلِقتْ الطرق ، عوت الذئاب ، احتمت العصافير والحشرات في أماكنها ، وسكتت ، وأصبحت المهور المجنونة هادئة ومهذبة في الإصطبل ، والبذور تحت التربة مستعجلة ، وينهمر الثلج ، ملىء المكان وتخطى الركب من زمان ، جاء الشتاء الذي قد تعدى الركب جاء وأنت لم تأتي يا يوسفي ! . . . » .

« ثم ذاب الثلج ، وامتصت التربة الثلوج ، ثم تغطى الجبل والتلة خضرةً ، وتفتحت زهور الأقحوان والنرجس والزعفران ، جَفَّتْ الأغصان وتفتحت مرة أخرى بالبركات ، وصنع الطائر عشه واستيقظ ، وتدفقت المياه تدفقاً كبيراً ، الأطراف الأربعة امتلأت بألوانها السبعة ، أطلقنا الأحصنة الصغيرة في البراري ، وبدأت اللقالق تعود ، جاء الربيع بترتيبه وبخضاره وبخرفانه الصغيرة ، وبعصافير ، ولم تأت أنت يا يوسف .

« ثم الصيف ، وامتلئت الأغصان بالثمار ، والمحصول جاهز للجمع ، وتسارعت أعمال البستان ، وجاء الصيف مع حرارته وظلاله وخضاره وغصونه وبناته وأولاده ، وأنت لم تأتي يا عيوني ! »

وتقول : « اصفرّت الأوراق وانتهى المرض وغادرت الطيور المهاجرة ، وجاءت الرياح وضاقت الأعمال وجاء الضباب ، وأنت لم تأتي يا نوري ! هكذا جاءت ثمان مواسم وذهبت وأنت لم تأت . . . » .

أنا أُمٌّ يا نور عيني ، أنت تعرف الماعز التي ليس لديها ولد أليس كذلك ؟ كيف تثغو ويعلو نحيبها في الجبال والحجار ، كيف ؟ أنا أمّ يا شجيرتي ، أنا تراب أسود ، بلا ماء ، جاف ، تراب متفحم ، أحتاج ماءً وأحتاج سيلاً ، وأنت مائي وسيلي ، أنا أمّ يا قلب عيني ، أنت شتائي وخريفي وصيفي وربيعي ، وهل يطير الطائر بلا أجنحة ؟ وهل يغرد البلبل بلا أزهار ؟ وهل هناك آدميّ بلا روح ؟ أنت أجنحتي وزهرتي وروحي ، أنا أمّ .

عندما كانت الرحمة تهبط من السماء ، وكأنها تفرغ من كأس ، ولدتك بعد أذان الفجر بقليل ، أدفئت غطائك بيميني ، مددته فوق قلبي ، أُعْطِيْتُ روحاً ببسمة منك ، وحياة لضمة منك ، وانحنيت عليك كعصفور ، ووضعت في فمك العسل ، ومسحت شفاهك

بالسكر ، وصنعت لأرجلك الصغيرة جواربا ، وأمسكت من يدك وتجولت بك ، وحملتك على ظهري ، ووضعتك على حضني ، وكبّرته . . .

وكانت تصرخ : ولكن ثمان مواسم جاءت وذهبت ، وأنت لم تأت يا يوسفي !

في كل كلمة رثاء كانت تقولها السيدة نفيسة كانت هناك دموع في عينيها ، وفي داخلها ألم لا ينتهي ، وعندما رتبت قميص يوسف وهمت بوضعه في الصندوق سمعت صوتاً من الخارج ، وكأنه كان صوت خجل وحزن وهم ، « أمي نفيسة ! افتحي الباب ، أنا يوسف » .

هل جاءت الأمطار في يوم صيفي حار من سماء بلا غيمة حتى بحجم اليد ؟ هل جاء سيل من فوق السهول يضرب الأحجار ويتدفق ؟ ماذا حدث ؟ هل فتحت أبواب السموات ونزلت الملائكة على الأرض ؟ هل أصبح خادماً في باب الشمس ، هذا البيت الحجري القديم المهترىء الذي أصبح جاهزاً للهدم ؟ هل أصاب السيدة نفسية فالج ؟ هل انقطع نفسها ولم تعد قادرة على النهوض ، ولا على الركوض إلى الباب ؟ لن تستطيع الوصول وفتح الباب ومعانقة القادم ، لن تستطيع فتح صدرها وإدخاله إلى قلبها .

أمام عينيها نجوم ونجوم ونجوم ، شيء كبير يتوهج ، ولمعات

وأضواء وأضواء ، جاء الصوت مرة أخرى بخوف قليل وبقلق قائلاً : « أمي ، هيا افتحي الباب » .

فتحت الباب ، رأت رجلاً طويلاً ونحيلاً جداً ، ووجهاً ضعيفاً وداكناً على لوحته أثر حرارة الشمس ، وشعراً بنياً طويلاً تساقط على وجهه ، ولحية مصفرة ورقيقة وطويلة ، وعينان عسليتان مملوءتان بالدموع ، وأنفاً مستقيماً صغيراً ، وسترة مفتوحة ، وشروالاً مغبراً ، وهيبة على كتفيه ، وعصا طويلة في يده ، ونور كبير في عينيه ، فتعانقا ولم يرى أي آدمي هذه المقابلة ، لأنه لو رآها أحد لما تحمل ، لأنه سيذوب ويصغر ويختفي ويذهب ، الأم وابنها كانا مستعدين أن يكونا سِرّاً صغيراً في على باب البيت الحجري ، وتعانقا ، كان هناك انقطاع في نفس السيدة نفيسة ، وهمهمة خفيفة ، وفي وجهها اصفرار واصفرار ، وانغلاق في عينيها غير مفهوم ، نفسها ضائعة في بخور ودخان ، لم يعلما كم سنة استمر هذا العناق ، كان عناق الابن وأمه كسمكة فاقدة كل أملها ، واقعة على الشاطىء ووجهها مدفون في التراب ، ومضروبة ومتعبة تلتقط أنفاسها الأخيرة ، وفجأة وجدت نفسها في الماء مستغربة غير مصدقة ، وأنها انتقلت من خط الانعدام إلى الوجود والتقت بالحياة مجدداً .

وعندما تربعا على ركبهم على لوح الأرز كانت الشمس قد

أشرقت منذ وقت طويل ، كانت أشعة الشمس تنزل على القرية ، تكلما بكل ما حدث وهما ساكتان ، وربما بكل ما كان سيحدث أيضاً ، وهل يبقى مكان للسان عند اللقاء ؟ عندما يكون المتحدث هو القلب .

قال يوسف : « أمي . . . لقد جئت من باب تابدوك ، لقد أعطاني الإذن فجئت ، ورأيتك ، وكان إذني لرؤيتك ، ليس للجلوس والقيام ، علي أن أرحل غداً صباحاً قبل أن يطلع اليوم الجديد ، فطريقي طويل ، و(تابدوك) ينتظرني أنت تعلمين ! أليس كذلك ؟ حتى أنت من أخبرني ، من المؤكد أنك تعلمين ، كان الولي ويسل قد جاء ليرى السيد محمد ذا الأيدي المزهرة ، وكان إذنه أن يأتي إلى بابه ويراه فقط ، فجاء إلى بابه ولكن لم يستطع رؤية سيده ، فالتفت وعاد ، ومن دموعه الحزينة المتساقطة من وجنتيه تفتحت أجمل زهور العالم ، والحمد لله أني رأيتك ، ماذا لو لم أرك ؟ ماذا لو عدت فارغ اليدين من بابك ! »

قالت السيدة نفيسة بشرودها وبدهشتها مكررة : « غداً صباحاً ؟ . . . » ثم قالت بخجل : « إذا كان الإذن هكذا فبالتأكيد يا روح روحي ، عليك الذهاب ! » وسكتت مجدداً . وأنار وجه يوسف ، ووقع على يديها باكياً ، وقال : « أنت عظيمة يا أمي ، أنت عظيمة بقدر زوجة تابدوك الأخت الكبيرة » ثمّ عمّ السكوت مرة

أخرى ، صمت رهيب وطويل . . . تحدث يوسف مرة أخرى قائلاً :
« أمي الغالية ، ما أخبار يونس . . . ؟ »

سأل يوسف عن يونس قبل أن يسأل عن كل من في القرية ، ظهر أنه لم ينسى صديقه الحسن ، كان يونس رفيقاً ليوسف ، كانت خطواتهم واحدة ، وطعامهم واحد والماء الذي يشربونه واحد ، فإذا دخلت بينهما الفتاة مليكة ، يرحل يوسف ، فيكون ذهابه مفقوداً وعودته مولوداً ، كان قد ركض إلى الموت وحيداً في طرقات الجبال الوعرة الحادة والقاسية ، ومن يعلم فلربما كان في طريقه عتبة شيخ ، أو باب (تابدوك إيمره) ، وربما هناك حي فقير ، وفي ذلك الحي جنود مدفونون بصمت الحي ، أحنوا رقبتهم وسلموا أنفسهم ، وولادة جديدة في ذلك الحي ، وحياة وسعادة ، السعادة التي تحققت بعد المعاناة ، وفي حصن الألم سعادة ، ويحيطه حبل لا يقطع من أطرافه الأربعة بأكثر أناس أحرار على وجه الأرض ، كان يوسف قد مَدَّ يده وكانوا هم قد أمسكوا بيده ، وكانت الأزهار قد تفتحت في يدي يوسف .

« تغير حال يونس ، تظن أنه قد بكي دائماً ، وتظن أن بداخله بحر يهتز ، يقال عنه بحر الهم . . . والهم الأقصى ، أصبح لسانه لا يتحرك ولا يتحدث مع أحد ، حديثه كان مع صيف وطبيعة وأحجار وتراب القرية ، يقال إنه على الحافة الثلجية أو تحت شجرة الزعرور ، وكان يطلع الفجر ويأتي الليل ، ويمتلىء ذهن الزوج

حضر بالأفكار ، فلقد طلب من يحيى تشلبي ابنته ليونس ، قال لنفسه لعله يتزوج وبذلك ربما يتغير إذا أصبح لديه أولاد وأحفاد ، ولكن يحيى تشلبي لم يعط يونس ابنته ، وكل ما أسمعه أن يونس يحترق حباً وعشقاً بها ، هذا ما سمعته . . . » .

« لماذا لم يعط يحيى تشلبي ابنته ؟ أليس يونس بطلاً مغواراً ؟ قلبه كبير ومحارب ذا فؤاد جياش ، أليست أمواله وأملاكه وحاله ووقته كلها جاهزة في مكانها ؟ إذاً لماذا لم يعطه ؟ »

« هذا يعلمه المولى القدير يا بني ، ومن يعلم . . . ربما مليكة لم ترده » .

أدار يوسف وجهه إلى النافذة ، هناك بعيداً ، شجرة زعور بحجم الكف ، وعلى رأس التلة هناك بعيداً جداً حركة خفيفة ، حركة بداخل يوسف ، فقام وقال : « علي القيام قليلاً يا أمي ، عليّ رؤية يونس » فقالت السيدة نفيسة : « اذهب . . . وعد سريعاً ، سأصنع لك فطائر بالزيت ، وأطبخ لك الحساء ، تعال بسرعة . . . » .

خرج يوسف ، مع بعد هذا البيت عن القرية كثيراً لم يكن هناك أحد في قلبه ، من الجيد أن لا يكون هناك أحد ، يكفي أن يرى يوسف يونس ، فيذهب غداً صباحاً كما جاء دون أن يراه أحد ويرحل . . .

وصل إلى شجرة الزعرور ، كان يمشي في وحدة كبيرة ، وكأنه تجمد وتُرِك . . . .

جلس يوسف على رأس النهر ، أخذ ماءً في كفيه ، وشرب مُسَمِّياً بالله ، ثم قام ، لم يكن يونس موجوداً ، كان عليه البحث عن يونس ورؤيته والتحدث معه ، كان يشعر بذلك ، كان يجبر صوته الداخلي ، ذهب إلى خلف المنحدر ، وتجول في بضعة رؤوس تلال ، ونظر إلى أسفل الشجرات المتناثرة ، ونظر إلى من لها ظلال ، ونزل إلى أطراف مياه سكاريا ، وصل إلى تلك الخزانة التي على طرف مياه سكاريا تلك التي لم تتغير لسنوات وبدون أي تعب يخرج صوت أزيز ، ورنّ في إذنه صوت عميق ومؤثر وحزين يخرج من جانب الخزانة التي تعمل تحت الشمس ، جلس وانتظر ، كان الصوت صوت أنين الخزانة ، وقع في مياه سكاريا وجرى ، صوت هائج أحياناً وأحياناً هادىء وأحياناً باكي ، كان أجمل صوت في العالم ، يا ليت مياه سكاريا لو يتوقف ويسمعه ! لا فلا أحد يسمعه ، يا ليت الذئاب والطيور تتوقف وتستمع له ! يا ليت الخزانة تقف وتستمع له ! فلا أحد منهم استمع ، توقف يوسف واستمع ، كان قد عرف الصوت ، كان صوت يونس قبل سنتين تحت شجرة الزعرور ، ولكنه كان قد انهرس وتحطم وقُهر .

« أرجوك عُدْ مرة أخرى

يا ليتك تترك الفساد يا قلبي

يا ليتك تبكي مرة على ذنوبي

يا ليتك تقتنع مرة يا قلبي

من الجيد لو أسمع أنا لك مرة

وأضع نفسي في المصائب

أرجوك تعال أنت أيضاً

واستمع لنصيحتي يا قلبي . . . »

كان يوسف يعرف هذا القهر ، هذا الضعف وهذا الحزن ، كان قد رأى ماذا يفعل هذا الندم المخفي الذي يحرق يونس ، كان هذا كالحراس الذين وقعوا على باب (تابدوك) ، بفقرهم ـ أول ما قدموا ـ وخجلهم ، وليس من الممكن طرد هذا الفقر والخجل بسرعة ، ولكن يمكنه بالإصرار والإجبار .

حزن على يونس ، واحترق لِهَمِّ يونس ، كان قلب يونس لا يستمع للنصيحة ، وهل يستمع للنصيحة قلب متعلق بشيء فانٍ ؟ ألم يأخذوا روح المحب بأظافرهم ؟ ألم يجعلوا جسده متقطعاً قطعاً قطعاً ؟ هذا هو صوت يونس ، حتى لو لم يره إلا أنه يعلم أن يونس مقطع قطعاً قطعاً ، ومجروح ، وجرحه لن يشفى أبداً ، قام ومشى

إلى صوت الخزانة ، إلى شجرة الصفصاف ، كان يونس حاني رقبته ومغلقاً عينيه ، وشعرُهُ ولحيته غير مرتبة ، وعلى وجهه عرق ودموعه مختلطة بعينيه ، ويداه متشابكتان على حضنه وكأنه لم يجد مكاناً ليضعهما فيه ، حاله ليس حالاً ، ووجه ليس وجهاً ، ففي وجهه قلق ، قلق ملتصق فيه من فوقه لتحته ، نام وبجانبه العشب والنمس وأزهار الأقحوان .

« السلام عليكم ! يونس ! . . . » .

استيقظتْ أولاً الأعشاب والنمس وأزهار الأقحوان ، ثم يونس ، فتح عينيه وكأنه رأى شمساً ، الشمس تضرب عينيه كسكين تمزقها وتقطعها ، وقال : « وعليكم السلام . . . هذا أنت . . . أليس كذلك ؟ يوسف أليس كذلك ؟ »

قال يوسف : « هذا أنا » ، تعانقا وجلسا وتحدثا الآن توقفت مياه سكاريا واستمعتْ لهما ، وسكتتْ الخزانة ، وسكتتْ الطيور ، وأصغت الأعشاب والنمس وأزهار الأقحوان ، تحدث الصديقان عن الماضي ، وعن أحوالهم وعن المستقبل ، غير معروف إذا كان قد تبقى مسألة لم يتحدثا فيها ، وعندما سكتا وقاما كان يوسف يبكي ويونس يبتسم ، الأرض والسماء ومياه سكاريا والخزانة والأعشاب والنمس وأزهار الأقحوان وشجرة الصفصاف تفاجؤوا بما حدث ، لم يفهموا بكاء يوسف وتبسم يونس أبداً ، ولكن الخزانة بدأت تهتز

وكأنها فرحت بما حدث ، كان اهتزازها يعني عودتها للحياة ، وهذا ما قالته مياه سكاريا عن حديث الصديقين للعالم :

قال يونس هذا أنا ، اشتقت إليك ، انتظرتك . . . سألت عنك صباحاً وليلاً بجانب شجرة الزعرور ، لم تقل شجرة الزعرور شيئاً ، لقد ذهبت ، وحَلَّ جفاف على القرية ، تجمد الماء وانقطع ، وجفَّتْ المزارع والأراضي ، وأَنَّت العصافير والحشرات ، قلت في نفسي هذا بسبب ذهابك ، تحسرت وقلت كان عليَّ أنا أن أذهب وليس هو ، وأبي طلب مليكة ، فلم يعطونا ، قلت أنهم لم يعطونا لأنك ذهبت ، كان كل عذابي وحزني بسبب ذهابك ، تأثرت بك أكثر من مليكة ، فكرت فيك أكثر منها بل أكثر من كل شيء ، كنا صغاراً ، فقفزتْ على طريقنا في المزرعة أفعى سوداء ، كانت طويلة ومخيفة وباردة ، والتفت حول قدمي ، انهرت على الأرض ، وفجأة كيف حدث وأمسكت بعنق الأفعى الكبيرة ، وشددتها وشددتها ، وكان على جبينك عرق ، وفي عينيك لهب ولهب ، فارتخى جسم الأفعى الملتف على قدمي وأصبح طرياً ، وخرج من فم الأفعى دم رقيق ، ثمّ رفعتها ورميتها فوق الأشواك ، تعانقنا وأكملنا طريقنا ، هل تظن أني نسيت ؟

بعد ذلك ذهبنا يوماً إلى قرية عمّ نجلين ، وفي العودة حلّ الظلام فجأة ، تفاجئت أنا ، وخفت أنا ، خفت من الذئاب والطيور التي في

وسط الجبال الجافة ، خِفْتُ من البراري واللصوص الصيفية ، قسمت قطعة بصل وأعطيتني إياها من حقيبتك ، أكلتها كلها ، وأنت لم تأخذ أية لقمة ، وصلنا وجلسنا تحت شجرة ، فنمت ، وعندما استيقظت كنت أنت جالساً تنتظر كما كنت في الليل تماماً ، لم تنم وانتظرتني طوال الليل ، هل تظن أني نسيت ؟ وفي الصباح عدنا إلى القرية كأن شيئاً لم يحدث ، فهل تظن أني نسيت يا يوسف. . . واستلقيت على السرير كالميت ، كنت مريضاً ، قالوا أن هذا لن يتحسن ، قالوا سيموت ، ربما بكي الجميع ، الجميع ذرف الدموع من أجل يونس ، ولكن ليسوا مثلك ، ليلة كاملة جلسوا أمام رأسي ، كنت أرفع يدي بوسط الغرفة وحيداً وأقول هذا ، وأسمع إلى الآن نفس الصوت يا يوسف ، في الصباح والمساء ذلك الصوت : « يا إلهي ! يا العظيم القدير ياربي الكبير ! لا يمت يونس ! فلتأخذ روحي عوضاً عنه ، اقتلني أنا ، لا أتحمل. . . » .

لقد أحببت هذا الصوت طول حياتي ، لتلك الشجاعة ، لذلك الفداء ، لذلك الوفاء . تعافيت ، وتجولنا معاً مرة أخرى ، وذهبنا وحيدين وتقاتلنا مع أعدائنا الأطفال ، فضُربت أنت ، وتكسّرت ، ولم تتركهم يضربونني ، ولا يؤذوني ، هل تظنّ أني نسيت ؟

كان على وجه يوسف خجل ، وفي شفتيه دعاء مخفي ، ولهيب الخجل في عينيه العسليتين .

« يا خليلي . . . لقد علمتني أمي أولاً كيف أفدي نفسي . . . أن أعطي بدون أن أطلب ، وأن أرفع من يقع ، نحن أعلمنا أن الكون صندلاً لصديقنا شرف لنا لهذا لا يوجد شيء حجمه كبير ، وأنت كنت لتفعل هذه الأشياء ذاتها » .

« أنا يا يوسف ؟ لو استطعت لكنتُ أنا مَنْ ذهب ورحل ، ألم أكن الذي سيترك لك القرية ومليكة ويرحل ؟

« ملكية كانت حلماً ، وأنا استيقظت من ذلك الحلم ! »

« وهل أصدق هذا يا هذا ؟ »

« أليس التصديق يعني الحب يا يونس ؟ »

خجل يونس ، فأكمل يوسف دون أن يُجْرح ، « اللهُ يعطي الطائر الذي لا يستطيع الطيران جذعاً منخفضاً ، ينادي ذراعه ، ويقول له تعال ، فيذهب عبده ، ويصبح شرابه شراباً ورد يا عسلياً » .

قال يونس : « إلى أين يذهب ؟ »

« إلى بابه يا يونس ، إلى بابه الذي يتحول همّك إلى علاج عنده » .

« كيف يذهب ؟ »

« تطلّق الدنيا القذرة ثلاث مرات . . . وتزيل الصدأ الذي على قلبك ، وتفتح أذن روحك ، وتشعل الخشب كالمروحة » .

« ألا ينطفىء ذلك الخشب أبداً ؟ هل يبقى مشتعلاً دائماً ؟ »

« لا ينطفىء أبداً ، يبقى مشتعلاً دائماً ، الذرات تصبح رماداً ، والرماد يشعل قلبك ، فتسكر سكرات جميلة ، ليس سكر الدنيا ، تصبح مجنوناً وتنادي باسمه فقط ، فقط اسمه هو موجود ، ولا تستطيع التفكير باسم آخر ، ذلك الاسم « الله » يا يونس . . « ياهو . . » .

« الطريق الذي يذهب إلى الصداقة ، ليس طريقاً آخر ، أزهار وريحان في قلب الأشواك ، واحة بقلب الصحراء ، قمر بقلب الظلمة ، ولكن في ذلك الطريق النور لا يأتي من القمر ، يأتي الرزق من البحر والمحيط يا يونسي . . . » .

« وماذا عن الموت ؟! »

« الموت في ذلك الطريق نور إلهي يا يونسي . . . هو التقاء » .

« ثقيل ، ثقيل جداً هذا يا يوسف ، صعب أن أفهمه ، ماذا إن كان مستحيلاً ؟ » .

« إذا أراد الله أنْ تلد مريم عيسى بلا أب ، وإذا أراد أنْ ينفجر البحر بضربة عصى وينشق ويعطي طريقاً ، وتنقسم الأراضي قطعاً قطعاً ، ويخرج جمل جميل مهذب بلون ذهبي من بين جبلين ، جمل النبي صالح ، إذا أراد ربي تتوقف الرياح وهي تهبّ ، وتهب وهي واقفة ، كقول النبي سليمان : إذا أراد بي يصبح النار نوراً ، والزهرة تصبح حديقة أزهار يا يونسي » .

« من الذي جعلك تقول هذا الكلام ؟ أنت لست يوسف الذي قبل سنتين ، من الذي جعلك تقول هذا ؟ »

أنار وجه يوسف أكثر ، واصفر قليلاً وارتعش ، واهتز قائلاً : « الله ! أولاً الله ثم (تابدوك إمره) الذي على عتبته ، تابدوك إمره الذي أمسكت بحزامه ولم أتركه ولن أتركه » .

« ومن هو (تابدوك إمره) يا يونس ؟ »

« النور الذي في مركز العلم ، نور للسرب . . . ورأس مركز العلم ، وضوء أربعة أطراف ، وردة القلب ورياح الرحمة . . . » .

« يا يوسف ، قلبي كعش طير مثقوب وممزق ، هل يوجد علاج لثقبه في مركز العلم ذاك ؟ قولك عن زهرة القلب المضيئة من أطرافها الأربعة ، هل يجدون حَلاً لجرحي ؟ هل يعطونني نفسي لنفسي مرة أخرى ؟ هل يكون رابطاً لسلامتي ؟ »

« بإذن ربي يا يونسي . . . ألا تصبح قطرة ماء المطر رقيقة ؟ وألا يخلق آدمي من طين ؟ »

فكر يونس للحظة بذهاب أبيه الزوج حضر قبل سنتين إلى قونيا ، وقوله ليحيى تشلبي على الباب مولانا ، فكر بقوله مولانا وإنارته ، فلمعت أضواء في داخله ، وولد صباح يوم أرق من الحرير ، لم يستطع التوقف ، اللسان أصبح بلبلاً صياحاً بالحب ، المتحدث لسان يونس والذي يجعله يتحدث الله .

« يا صديقي سهم الحب

يمر من طبقة حجرية صلبة

ومن يقع في حبك

يمر من روحك وعقلك

هذه الدنيا للعارفين

مثل خيال وحلم

ومن يعطيك نفسه

يمر من الخيال والحلم . . . »

كانت اندهاش الأرض والسماء ومياه سكاريا والخزانة والأعشاب والنمس وأزهار الأقحوان بسبب هذا . . . تبسم يونس وبنهاية قوله « يمر من الخيال والحلم » .

كانت دموع يوسف لا تتسعها السماء التي ترتفع للسماء والتي تملىء السماء وتحملها من سعادته ، وكانت سعادة الخزانة بسبب هذا .

وهكذا شَرحَتْ مياه سكاريا لجميع العالم ما حدث وانتهى .

* * *

كانت الأوساخ تمطر على الأحجار المجروحة والتراب المجفف ، ورياح خفيفة تطفىء عيون الشموع القادمة من الشمعدان ، وكان هناك في الرياح الداخلة من النافذة المفتوحة قليلاً غرابة وسكراً ، كانت كأنها فاقدة للوعي ، وفي وقت الصباح الذي يُحمد فيه حق كل زهرة ، كان هناك زهرة فقيرة تحمد حقها باكية ، وهناك بريق حسرة زمان بقيت في أماكن بعيدة جداً في وجهها الجميل الرقيق ، كانت بحجابها المطرز الذي على رأسها والشروال الأحمر الذي في رجليها ، وبشالها الأزرق الطويل تبدو كأنها ملك نزل من السماء ، كانت تطلب الصبر بأصابع يديها المرفوعتين إلى السماء ، النصف مفتوحتين والمرتجفتين من الإله الذي تثق بقوته بقدرته وقدرته ، كان جسمها الذي أتعبته الهموم وكأنك إذا نفخت عليه سيصبح سرّاً ، سيختفي ويذهب ، كانت دقات قلبها تتسارع وتلدعها ، والشمعة التي في الشمعدان تؤاخي دموع الزهرة العزيزة تبكي ببطء وبشدة ، كان بكاء الشمعة ودموعها التي تنزل على الشمعدان ثم تقع تُحزن مليكة ، كانت تكبر مع أكثر الأغاني الحزينة الملموسة ، مسحتْ مليكة وجهها بيديها ، كانت قد أنهت دعائها وصلاتها ، فنظرت إلى سريرها ، لم يخرب ولم يتحرك ويُفسد ، كيف ما كان في هذا الصباح كما كان تماماً الليلة الماضية ، كانت الفتاة الشابة تنتظر صاحب السرير الذي رتبته بيديها الثابتتين ، وصاحبه لا يأتي ولا يدخل ، ولا يغوص في النوم في نعومة الصوف

وتحت اللحاف النظيف الذي برائحة الصابون ، كانت عينا مليكة التي كعيون الغزال حزينة ، تضيء تعب ليلتين ، رتبت السجادة بيديها ووضعتها فوق السرير ، والمسبحة البيضاء الطويلة كذلك ، وذهبت ببطء نحو النافذة وأحنت رقبتها ، كانت تشعر بألم في ذراعها يؤلمها من شعرها حتى أصابعها ، وتصبح كأنها على وشك الوقوع ، لم تكن قادرة على قول توقفي لدموعها التي بين رموشها ، كانت ترتعش من الرياح الخفيفة الداخلة من النافذة النصف مفتوحة وكأنها طفل عصفور صغير ، كانت الجبال الظاهرة بالنور الملتصق بشجرة الزعرور المواجهة لها بكل ثقلها قد وقعت في قلبها الضعيف الصغير ، وبينما كانت قد شردت في نور شجرة الزعرور ظهر لها ذلك البيت الحجري القديم البعيد الذي يقع خارج القرية ، والدخان الأخضر الخارج من مدخنته أيضاً ، فخطر في ذهنها : « لقد أشعلت أمي نفيسة الموقد ، كنت أنا أشعل الموقد لها ، وأنا أطبخ لها وأنا أصنع لها لقاحها ، وكنت أجعل ذلك القفل القديم والبيت الذي يبدو وكأنه سيتهدم يضحك ، كنت أجلس جنب ركبة أمي نفيسة وأضع رأسي على ركبتيها وأتحدث عن يوسف ، وكنت أحضر موقداً جديداً وجميلاً وطازجاً ، كنت هكذا لا أموت ، كنت أعيش في ذلك الوقت . . . » .

كانت مليكة كلما فكرت أكثر وتذمرت أكثر تصفر وتندم ، وتضغط بيديها على قلبها ، وتعض على شفتيها ، كان هذا ازدياد

الألم ، كانت الشرارة قد تراكمت وكبرت وراحت تحرق غابة بخضار الزمرد بلا رحمة تحرقها وتنهيها ، وكان في أكبر حب فتاة شابة ندم على يوسف الذي انتظرته ثماني مواسم وفكرت فيه دائماً ، كان يجب أن يكون الذي فتحت عينيها وأعطته قلبها ، وهامتْ في حبه سرّاً ، لا يُفْشى به ، لم تقل مليكة أسرارها لأحد غير أمها ولا حتى لأي مخلوق ، صبت السُّمَّ كله في داخلها ، وأصبح السم الذي صبته داخلها لاذعاً ، وبدأ ينخر قلبها الطازج ، كانت هناك أغنية لا تقال في أذنيها ، كانت الأغنية تذيبها ، تمتمت : « حتى الموت ، سأنتظر ، لن تنظر عيني إلى غيره ، حتى في التراب . . . لقد أصابني سهم الحب ، فليطلي سهم الحب هذا الغزال بالدم ، فقيل إن المحب لا يموت ، حتى لو جَفَّ جلده ولو أصبح جلده طعاماً للذئاب وللطيور ، فالمحب لا يخاف من الموت . . . أنا لا أخاف من الموت ، أريده هو ، حتى لو جاء بسرعة ، حتى لو أخذ روحي بسرعة ، فلم يبقى قوة في هذا الجلد ، ليتحمل هذا السم . . . » .

التفتت وأطفأت الشمعة ، هناك صوت خفيف ، ورائحة حريق خيوط ، وعندما عادت مليكة مرتا أخرى إلى النافذة ، رأت أحداً يخرج من البيت الحجري ، ليس أحداً ، رأت يوسف خارجاً ، لم تصدق ، كانت هناك حقيبة على ظهر يوسف ، وعصى في يده ، وغرابة في حال يوسف . . . يوسف درويش تركماني فقير ، ويوسف

يذهب حانياً رقبته ، يوسف يذهب في وقت الصباح مع قطرات الندى دون أن ينظر خلفه وكأنه في عجلة من أمره ، هل يسمى هذا ذهاباً ؟ ألا يلتفت يوسف وينظر إلى الطريق الذي ورائه ؟ ألا ينظر ؟ ومتى جاء يوسف ، وجاء ولِمَ لَمْ تره مليكة ولو لمرة واحدة ؟ صغر يوسف وصغر وصغر حتى اختفى خلف التلة ، شعرت مليكة أنها تنفست آخر نفس لها من فمها ، وكأنه قلبها لا يدق ، وكأنه ليس هناك عَالَم ، ارتخت أصابعها الممسكة بعتبه النافذة ، وانزاحت ووقعت ، بياض وبياض... ثم صمتٌ مخيفٌ وطويلٌ وكأنه لن ينتهي ، صمتُ الموت ، ذبلت هذه الزهرة الفقيرة ، هناك دم كالشريط على طرف شفتيها باحمرار الزهرة ، تدفق على شالها الأبيض المطرز ، اهتز شالها الأبيض ، كيف سيعلم المحبين الذين لا يموتون والذين يعطون أرواحهم للدنيا الفانية ؟

حَطَّت حمامتين بسرعة على عتبة النافذة المفتوحة قليلاً بجانب يد مليكة ، وبدأتا تغردان ، ثم التفت عصفوران وحطا على عتبة النافذة ، ولكن أصواتهما لم تكن تغريداً ، كانت بكاءً ، ووقعت على يد مليكة قطرة ندى من القطرات التي تنزل على الصخور الجافة والأراضي القاحلة ، ولمعت .

كان هذا ما استطاعت رؤيته الشمعة المسكينة التي في الشمعدان الذي حُرق نصفها ، ثم أقسمت الشمعة أنها ستبكي إلى يوم القيامة ،

وقيل إن في ذلك الصباح نزل نجم زُهرة على الأرض ، وبقي حتى المساء مختبئاً يبكي ، وفي ظلام الليل هاجر وذهب ، ويقال إن في ذلك الصباح في الوقت الذي وقعت فيه مليكة على الأرض في المنحدر الذي كان فيه يوسف سُمعت صرخة لم تسمع الأرض مثلها إلى الآن ، ثم خَفَّت الصرخة وتحولت ل : « يا هو » وسكتت .

* * *

في يوم من أيام شباط الذي يقطع الأنفاس ببرودته ، دخل رجل شاب إلى دكان من دكاكين أسكي شهير التي على طريق قونيا بينما كانت أبوابها على وشك الإغلاق ، دخل إلى صدره عماد هذا الدكان المصقول بالأحجار في مساء هذا الشباط البارد رغم تعبه الشديد ، كانت النقوش التي على السور قد اختفت تماماً في الظلام ، وأغلق الباب الحديدي الثقيل بصوته ، والبيوت التي بجواره علمت أن الاضطراب قد انتهى وعادت للصمت ، الاضطراب يبدأ في ساعات الصبح الباكرة بانفتاح الباب مع صوته ، ويستمر دون أن يستريح حتى المساء ، المئات لا يُعرف من أين ولماذا أتوا يملؤون الدكان حتى المساء ويفرغونه ، إذا كانوا سيقبون تلك الليلة هناك ينامون هناك ، وإذا لم يناموا يذهبوا قبل أن تغلق الأبواب ، كان هناك ساحات مخصوصة للصيف وخيم للجلوس ومظلات ، وللشتاء غرف وإصطبل للحيوانات ، وغير ذلك ، كان هناك حَمَّام ومستشفى

صغيرة وأدوية ربما تكون جاهزة دائماً للضيوف ، وأطعمة ساخنة ، كان هذا الدكان من دكاكين اسكي شهير التي على طريق قونيا التي يمكن للغرباء في طرق الأناضول الممتدة كالأفاعي وللفقراء وللسياح الوقوف فيها والارتياح وأن يملؤوا بطونهم ، ويبتعدوا عن المخاطر وينامو بارتياح . . .

وعندما دخل الشاب . . . بينما كانت الأبواب تغلق ، كان ينظر حوله بخوف ، كانت يداه يداه وقدماه ترتجف من البرد ، وبينما كان يفكر في غرفة ساخنة وحساء ساخن أمسك يده أحد ، التفت ونظر إليه كان رجلاً وجهه من نور وعلى وجهه ابتسامة سرور ، على رأسه إبريق كبير وعلى ظهره سترته التي كانت أكبر منه بكثير .

قال « أتيتَ وجاء معك الخير يا ولدي ، تفضل هيا نذهب إلى الغرفة ، لقد تغير الجو ، لا يمكن الانتظار في الخارج ، فليكن الله في عون من سيبقى في الخارج ، تفضل » .

ارتاح الرجل الشاب ، ورمى اضطرابه خلفه ومشى خلف الرجل العجوز ، تخطيا الساحة التي في وسط الدكان والتفتا يساراً ، فتح الرجل العجوز باب الغرفة التي على اليسار تماماً ودخلا ، كانت الغرفة كبيرة ودافئة ، كان هناك في الغرفة خمسة أو ستة رجال أخر

كانوا قد جلسوا على الطاولة يأكلون ، وعندما رأوا دخولهما نظروا أولاً لوجه الشاب ثم لوجه العجوز ، سلم عليهم أكبرهم

ودعاهم إلى الطعام ، فجلسوا ، ومع أن الشاب كان جائعاً للغاية إلا أنه كان يأكل بهدوء وبصمت ، ومع سعادته بالحساء الساخن الذي ينزل في حلقه ويدفئه ، والخبز المقلي الطازج ، كان ينظر حوله بطرف عينه ، كان سقف الغرفة الكبير على شكل قبة ، وفي الزاوية الأخرى كان هناك موقد ، وفي الموقد حطب كبير يشعل ويحترق ويدفيء الغرفة ، وعلى طرف الحائطين المقابلين لبعضهما اصطفت الأفرشة ، وفي طرف آخر الأسرة ، وعلى الأرض سجادة قيّمة مزينة بالأزهار الزرقاء والخضراء والصفراء من يعلم أي أصابع ! وكم من الوقت ! لمسها الكثير ، وهناك ضوء كثير قادم من القنديل الذي على الحائط ، ويقلب الداخل إلى صباح ، وفي الطرف اليساري للقنديل كانت هناك لوحة مكتوبة بالذهب المزيف قد أهداها صاحب قافلة للدكان هذا منذ زمن بعيد ، كان واضحاً أن كلمة التوحيد المكتوبة على اللوحة مكتوبة من قبل معلم فنان ، وأطرافها مطرزة بالصدف ، تلمّع جراء ضوء القنديل ، وكان داخل الغرفة نظيفاً ، كانت تنادي الراحة والسعادة وتنسي كل تعب الإنسان .

هذا أول ما لفت انتباه الشاب .

ثم الضيوف الجالسين على مائدة الطعام ، كانوا خمسة مع العجوز الذي أحضره ، لم يكن معروفًا إن كانوا على معرفة ببعضهم سابقًا أم لا ، لربما كانوا قادمين من أماكن مختلفة وأزمنة مختلفة ،

ربما كان الخمسة مسافرين ، كانت ملابسهم المختلفة تدل قليلاً على أن الاحتمال الأول هو الأكثر ترجيحًا ، كان الرجل الذي يجلس على يمين الشاب تماماً هو العجوز الذي سلم عليهما عندما دخلا ، كانت الذكريات قد حفرت في جبينه كالخطوط ، كان لديه أنف طويل مقوس وعيون سوداء صغيرة ، كانت ظاهرة عليه علامات الضجر والتعب والسئم بوضوح ، ملامحه غير مريحة ، يهز رأسه بحزم وربما كان رأسه يهتز من جراء نفسه ، كانت رقبته النحيلة كأنها جذع شجرة بطبقات وطبقات ، فقد جف جلده الأسمر وتخالط ، والجالس بجنبه كان أصغر منه وألطف منه بقليل ، كان كالجبل بقامته المشدودة ، وبيديه الكبيرتين ورأسه الكبير بشعره الطويل وبجسمه الكبير ، كان الآخرون يظهرون صغاراً جداً بجانب هذا الرجل الضخم ، وأما الرجل الثالث ربما كان طفلاً كبر وتضخم باكراً ، فعضلاته قوية ، وخطوط وجهه متوترة ، وقامته طويلة ، كان على وجهه آثار حياة غنية ، كانت شواربه قد بدأت تعرق وهي جاهزة للظهور ، كان شاباً مليئاً بالحياة والتشوق ، كان يفكر في مستقبله وفي الأسرار التي بداخله ويشرب حسائه بإخلاص .

وقبل أن يجد فرصة ليدقق في الشخص الرابع أنهى طعامه ، وأما العجوز الذي دخل إلى الغرفة معه رفع يديه بهدوء وبدأ بالدعاء .

وقالوا : آمين ، ورؤوسهم محنية على الأرض وعيونهم نصف

مفتوحة ، فليكثر الله الرزق على عباده الجائعين ، وليجعل رزقهم كثيراً ، لا يبتعدون عن الطريق الصواب . . .

وعندما انتهى الدعاء قرأوا الفاتحة وقاموا ، ورفع الرجلُ الطعام العجوز ببطء ، ثم أحضر إليهم إبريقاً ووعاءاً وتوضؤوا واحداً تلو الآخر ، ومن بينهم اثنين لم يتوضؤوا ووقفا بجانب الموقد يتحدثان ، كان الشخصين اللذين لم يجد الشاب فرصة للتدقيق بهما ، واحد منهما طويل كغضن ، أرميني أسمر جاف ، والآخر مرهق عمداً ، روميّ ثقيل وقصير ، كانت محادثتهما باللغة الرومية ، ولا تسمع .

مُدت السجادات وصليت صلاة العشاء ، كان العجوز الأول إماماً ، والعجوز الثاني المؤذن ، وفي نهاية الصلاة قرأ الرجل الضخم بصوت عذب للغاية الآيات التي تبدأ بـ : « لو أنزلنا . . . » .

كانت رقابهم قد أحنت إلى جنب ، وعيونهم امتلأت وأنهوا عبادتهم وقاموا وهم في سعادة كبيرة ، ورموا أنفسهم على الأسرة التي بجانب الحائط ووضعوا وساداتهم المغلفة بالجوخ خلف ظهروهم واستندوا عليها وجلسوا ، وبعد صمت قصير نادى العجوز الأول الشاب الذي جاء آخراً :

« لم تتفضل علينا باسمك بعد يا ابني ، من أين أتيت وإلى أين تذهب ؟ »

انتظر الجميع جواب سؤال العجوز بدقة ، قال الشاب دون أن يستطيع إخفاء خجله :

« اسمي يونس يا أخي ، قادم من القرية الصفراء ، ومرادي الذهاب إلى قونيا » .

تبادل الرومي والأرميني النظرات .

وأخذ الرجل العملاق حق الكلام قائلاً : « وأنا قادم من قونيا ، قونيا تغلي كغلاية مزدوجة يا ولدي ، أسس في قونيا سوق القيامة ، فأخذه السيئون والتائهون ومضوا » .

تدخَّل العجوز الثاني قائلاً : « هل تظن أن المناطق السفلى مختلفة ؟ الأماكن التي في الأسفل من خورسان إلى بغداد ومن بغداد إلى أرزروم وإلى سيفاس وإلى قونيا وإلى المناطق السفلى أكثر مغلاية مزدوجة ، في موغول أصبح التراب الذي يداس عليه لا ينبت فيه العشب ، لقد هاجر ومشى إلى الغرب ، هذه هجرة من قونيا فارغة ، غير معروف أين ستقف ، فليحفظ الله بلادنا » .

وبعد أن نظر العجوز الأول بطرف عينه إلى الغريبين الجالسين بجانب الموقد يتحدثان قال : « لقد جاءت اليوم قافلة جديدة إلى الدكان ، يقولون إنهم جاؤوا من ملاطيا ، مع عدتهم وأطفالهم وشبابهم وعجائزهم عشرون أو ثلاثون شخصاً ، سيمضون الليلة هنا ، وكما تفضلت ، هؤلاء لا يستحقون رجل المغول ، لقد رأت

هذه الملة السلامة في الهروب إلى الغرب ، وحال قونيا دخان حقيقة ، فبعد وفاة السلطان علاء الدين كيكوبات بدأت قضية مبتذلة تمشي ، لا يعرف ما نهاية هذا العمل ، بقي في قونيا نور واحد لا يطفىء ، هذا القنديل وحده يدفىء قونيا » .

علم الجميع أن القنديل الوحيد الذي يدفىء قونيا هو مولانا ، فأحنوا رؤوسهم .

قال العجوز الأول : سأوصل أنا الإخوة إلى غرفهم ، من المؤكد أنهم متعبون ، ويريدون الراحة » .

التفت إلى الرومي والأرميني الذين بجانب الموقد ، وتحدث معهم بالرومي قائلاً لهم أن يلحقوا به وأن الغرفة التي سينامون فيها غرفة أخرى ، قام الرجلان عابسين وكأنهما مزعوجان مما حدث ، وخرج الرجل العجوز قبلهم ، ودخلت ريح كالسكين ملئت المكان من الباب الذي فُتح ، ثم حبات ثلج غاضبة بطنينها وحركتها وكأنها لن تهدأ أبداً ، وأغلق العجوز الباب .

قال الرجل الضخم « لقد أحسن صنعاً ، لقد أحسن صنعاً في إخراجهم وأخذهم ، هؤلاء لا يعرفون العار ولا الأدب ، ذو الأديان السوداء ، لم يبقى عمل سيء لم يفعلوه ، يقولون هذه فرصة فيرقصون ويهتزون ، أتمنى أن لا يقع مولا بين يديهم ، يقال أن في هذه الأرجاء هناك سيد يدعى أرتغرل ، يحارب غرباء البيزانس بلا

توقف ، وفي هذا الزمان في الحرب المخفية عَلِقَ أصحابنا ببعضهم البعض ، فضرب أوغوز بهذا السيد أرتغرل الذي من عشيرة القوة البيزنسيين ، وفي رأيي هذا أكثر حل منطقي » .

لمعت عيون الشاب الذي بدأت لحيته بالظهور ، دخل ضوء إلى وجهه الداكن ، وأمسك نفسه بصعوبة ، وليته لم يمسك نفسه ، فلم يجد ما يقوله « يا أخي أنا للسيد أرتغرل الشجاع. . . » حذر أن يكمل قول الجملة حتى لنفسه ، فمهما حصل كان الرجل المساعد يقرأ ما يدور في داخله بعينيه ، وهكذا رتب الحصيرة جيداً .

أحب يونس اللمعة التي حدثت في عيون الشاب عندما ذكر اسم أرتغرل ، أعجبته ، ولسبب غير معروف أدفىء اسم السيد أرتغرل داخله هو أيضاً ، كان هذا السيد أرتغرل ـ الذي يتحدثون عنه في كل الدكاكين وفي الأزقة والشوارع ـ بطلاً مغواراً ، كان شخصاً لا ينحني ظهره ، ولا يختل إيمانه ولا دينه ، أخذ ووضع حاله في طريقه عشيرته القوية .

كان من يقع في ضيق يذهب إلى حدوده ، يقال إنه صديق الشيخ أدبالي .

نادى الرجل الضخم القوي يونس الذي على طرف الحصيرة ، يداه فوق ركبتيه ورأسه منحنٍ يفكر ، وسأله :

« أنت لا تتحدث أبداً يا أخي ، ما السبب ؟ نحن من الذين

يعلمون أنه إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب ، ولكن عندما يحين وقت الكلام يكون السكوت قصوراً » .

كان يونس سيسأله « وهل حان وقته ؟ » إلا أنه لم يسأل ، تبسم فقط .

قام الشاب المراهق الجديد ورمى حطباً في الموقد ، تماسك الحطب مخرجاً أصوات الاحتراق اللطيفة ، قام الرجل العجوز من مكانه ووصل إلى جانب الموقد وقال : « أشعر بالبرد ، لقد ازداد برد شباط هذا العام ، ليت الطرق لم تغلق على الأقل » .

سأل الشاب : « وهل الطرق تغلق ؟ » كان في سؤاله خوف كبير ، وربما شيء أكبر من الخوف ، ماذا إذا أغلقت الأبواب وإذا جاء ذلك اليوم ولم يصل إلى كرمان ؟!

قال العجوز : « كان ظاهراً منذ بداية الشتاء أن شيئاً غريباً سيحدث ، تغلق الطرقات والأزقة... ألم تشبع زقزقة بطنك بالثوم ؟ » تنهد الشاب الجديد ، ووصل الرجل الضخم إلى جانب يونس ، كان قد بدأ الحديث ليجعل يونس يتحدث ، كان لا يستطيع فهم الهموم المخفية في وجه يونس ، كان يحاول تحليل هذا الرجل الذي في عمر الخمسة والعشرين تقريباً ، فسأله : « قلت أنك ذاهب إلى قونيا ، فماذا ستفعل في قونيا يا ولدي في هذا الثلج الفاجع ؟ »

تمتم يونس : « نريد العلم ، نريد أن نكمل محصولنا ، فلقد

سمعنا أن في قونيا علماء عظماء ، سننزل إلى ركبهم ونطلب تحصيل العلم » .

نظر الثلاثة إلى يونس مرة أخرى بتركيز ، هناك في حديث يونس انضباط ، وفي لسان يونس جمال غير معتاد عليه ،أحب ثلاثتهم يونس .

سأل العجوز : « وهل تعلم إلى من ستذهب ؟ يوجد في قونيا من سيرشدك إلى بحر العلم ، ولكن على الشخص أن يعلم بجانب ركبة من سيجلس » .

فقال يونس : « سنجد أحدهم بالتأكيد ، لن نعود فارغي الأيدي » .

أكمل العجوز : « من الممكن للذاهبين أن يعودوا بأيدي فارغة يا ولدي ! على طريق كارامان هناك جامع قديم ، على باب قونيا ، وللجامع القديم إمام ، رجل عجوز ذو لحية خشنة وذو قامة طويلة ، إذا ذهبت إليه أولاً لا أظن أنه سيعيدك من بابه ، اسمه الأخ سيرفر ، هو شخص قلبه علبة مليئة ، لقد ملىء داره بعلوم الأقاليم السبعة ، ربما قونيا لا تعرفه ولكنه هو أيضاً لا يريد أن يُعرف ويتعرف عليه » .

حلت على يوسف سعادة لا توصف ، الآن هو يعرف مرشداً يذهب إليه ، ما أحسن صنع هذا الرجل العجوز عندما أعطاه هذا الاسم في غرفة هذا الدكان الكبير ، سيصل ويدق باب الأخ سيرفر ،

ويضع رأسه على عتبته ويقول له : « أنا ، أنا يونس فقير ، لقد سمعت باسمك وجئت إلى بابك ، ومرادي الحصول على العلم » .

ليت الطرق لم تغلق ، ليتها لم تغلق وليته يبدأ رحلته فوراً ، ليته يصل إلى الجامع القديم الذي على طرق كرامان .

صلوا صلاة العشاء معاً وناموا ، وبدأت آخر شجرة بلوط عريضة رموها تشتعل ، وعندما وضع الشاب رأسه على الوسادة نام بسرعة ، ونام الرجل الضخم ، ونام الرجل العجوز بعد أن سعل مرتين ، ولم يستطع يونس أن ينام ، اختلطت السنوات التي مرت وذهبت ببعضها البعض ، وأصبحت سوداء تتجول في ذهنه ، حلّها إذا استطعت ، ملايين التخيلات المتفككة وملايين الأفكار ، ثم فراغ ، ثم اختلاط مرة أخرى ، والده ولحية والده التي امتلأت بالبياض ، وجثة على الأرض ، وحشرة تتحرك فوق عين الجسد وفوق ماء عين الجسد ، وشجرة الزعرور ، والمقبرة ومليكة ويوسف ، وعندما بدأ يهدأ هذا الإعصار الذي استمر لساعات انقطع تركيزه بصوت ، كان صوت الرجل العجوز الذي قام مرة أخرى وغطى الشاب الجديد الذي أبعد عنه اللحاف ، برحمة والد ، وكان الشاب الجديد نائماً ، ثم جلس الرجل العجوز على ركبتيه ، ودعا دعاءً طويلاً ، ثم سمع يونس صوتاً مرة أخرى ، كان الرجل الضخم قد جلس على سريره يهذي وعيونه مغلقة بأصوات منخفضة ، كان الرجل الضخم يغضب بصوت

غاضب قليلاً على المرأة التي مقابله ، كان يقول : « يا جميلة ، ألن أحبس أنا بين جدران أربعة وأموت ؟ ألن تخنقني أربعة حيطان ! يجب علي الذهاب ، فليحدث ما سيحدث لي في الصيف يا جميلة . . . » .

ثم سقط على سريره ببطىء وأكمل نومه بشخير خفيف ، وصنعت نار الموقد أشكالاً غريبة على الحائط ، وعندما كان القنديل يهتز نام يونس أيضاً . . .

* * *

قال : « لقد انتهى ما يمكننا تعليمك إياه يا بُني ، ولكن ما نعلمه لا يكون حتى قسماً صغيراً من المحيط ، اذهب إلى المكان الذي تتمنى أن يكون موجوداً ، انزل إلى الشام ، ومر على بغداد » وذهب من الباب كما جاء بهدوء ، كانت نظراته نظرات صديق كما كانت أول مرة ، وحديثه بحرارة اليوم الذي رآه فيه أول مرة .

كان قد جاء إلى هنا قبل أربع سنوات ، في يوم من أيام شباط عندما كانت العواصف هائجة والثلوج متحركة ، والبرد قارساً لدرجة أن يدخل إلى الأجسام ، ثم هدأ الثلج ، وحلّ الضباب ، وقطع الضباب الصقيع ، كان صحيحاً طرق الباب ، وانتظر على الباب قليلاً ، ظنّ أن انتظاره لن ينتهي ، فضاق نفسه ، كان قد رآه عندما فُتح الباب ، كان رجلاً عجوزاً ، على وجهه وقار غريب ووعي في

وجهه ، وثقل الحجارة ، ولحية مختلطة بالبياض والسواد ، وعلى رأسه القبعة الكبيرة ، وعلى ظهره جبة سوداء كبيرة ، وفي يده وعلى طرف جبته مسبحة صنعت حديثاً من الأحجار البلورية الكبيرة ، كان قد سلم عليه وأدخله للداخل ، ثمّ أحضرت سيدة عجوز صينية ، وكان في الصينية أطعمة وجلس العجوز بجانبه وتصرف كأنه يأكل .

ثم قام وانتفض قائلاً : « أنت ضيف الله ، وأنت متعب فليجهزوا سريرك وأنا سأذهب لأصلي » فأجاب : « هل يمكنني أن آتي أنا أيضاً ؟ أن أتوضىء وآتي » فأحضرت العجوز ذاتها إبريقاً ، فتوضئا وخرجا ، كان ضباب شباط ينجلي ، ووقفوا إلى صلاة المغرب .

كانوا قد وقفوا إلى صلاة المغرب أيضا قبل أربعة سنوات ، كالصلاة التي كانت قبل قليل ، كان بعد الصلاة قد طلب حاجته قائلاً : « أنا أتيت لأجلس بجانب ركبتيك ، أريد تحصيل العلم ، سمعت عنكم في دكان » .

فتمتم « السمعة لله والمديح له وحده » وقال هذا أيضاً بعد أربعة سنوات : « ما نعلمه لا يكون حتى قسماً صغيراً من المحيط » .

كان عبارة عن التواضع ، لا يركض خلف الرئاسة ، ولا يريد أن يتعرف عليه ، أو أن يعرف أو يمدح ، كان يريد أي أحدٍ يعطيه العلم الذي معه ، وكان يريد شيئاً واحداً فقط : الإخلاص . . .

كان يونس قد أعطاه ما أراده ، فهم أنه أعطاه ما أراده من كلمات

الرضى التي قالها : « لقد انتهى ما يمكن أن نعلمك إياه يا ولدي » .

كان هذا شرفاً ليونس وجملة لانفصال حارق ، هذا يعني طرقات وطرقات . . .

كيف كان سيشرح ما معنى الانفصال عن ذكرى هذا الجامع القديم ، كيف يتحدث ، كان هذا صعباً ، كان صعباً الشرح عن ذلك في كلمة واحدة ، إذا كان على الإنسان أن يكون عبداً لمن علمه حرفاً ، فعلى يونس أن يكون ملايين المرات عبداً للأخ سيرفر ، فلقد شرح الأخ سيرفر كل ما يعلمه ليونس بإخلاص ودون أن ينسى أي تفصيل ، كان الاثنان سعيدين بهذا النجاح ، لأنه لم ير مثل هذا الإمام التركماني الشاب أبداً ، وبعد كل هذه السنوات أرسل له الإله المجيد من سيعطيه المنارة من بعده .

كان هناك لديه ولدان بلا حظ ، فقيران كلاهما قلبا أيديهما ودفعا عنهما الصندوق المليء بالعلم ، وفي نهاية أربعة سنوات كان هذا الشاب التركماني الفقير قد عانق هذا الصندوق المليء بالعلم ، فمن الآن فصاعداً حتى لو مات ليس هما ، كانت السنوات الأربعة التي أعطاها ليونس هي كل شيء . . .

لقد حفظ أصعب دروسه في الغرفة الصغيرة المظلمة ، والمسورة بالحديد ، وفهم أصعب المسائل وتعلمها ، لقد أصبح من الآن عالماً يستحق أن يشار إليه بالأصابع ، بذهنه الذي لا يشبع ،

وبجسده الذي لا يعرف معنى التعب ، وبعزمه الذي لا يعرف الانهزام ، كان قد تعلم ما علمه الأخ سيرفر الذي قال عنه ليس جزءً من بحر .

والآن حان وقت ذهابه ، كان قد اقترب وقت الانفصال اقتراب النفس ، فسرح بأفكاره مع أستاذة الذي خرج حزيناً .

إلى أين سيذهب ؟ الذهاب للشام والمرور على بغداد والتجول في مراكز العلم الأخرى ، وأخذ قسم من البحر ، وأن يزين الحياة ويسحب المحن ، ويتعب العقل ، قال : « قيل أن أول العلم أَحرُّ من البصل ، وآخره أحلى من العسل ، هل من الممكن الوصول إلى نهاية حلاوة العسل ؟ ولكن هناك نملة ، بأقدامها الصغيرة قيل لها لن تسطيعي الذهاب بأقدامك الصغيرة وبغبار طرق مكة وترابها ورياحها ، ستموتين في الطريق » .

بنهاية جهد السنوات الأربعة ، الجرح الذي كبر كل يوم خلال هذه السنوات الأربعة وتصبح غرغرينا .

لماذا الجرح لا يغلق ؟ لماذا لا تهدأ هذه الأمطار الموسمية ؟

« أربعة سنوات يا ربي العظيم . . . فلتمزق الروح قفص الطائر فليصمت العفريت الذي يرمي بالسم في داخلي ، أربعة سنوات يا ربي العظيم ! »

كان أنين يونس يمزق الحجر ويجفف التراب ويهد الجبال

ولا تمر من يونس ، كان الصندوق المنحوت قد اصفرت أوراقه من يساره ومن يمينه ، ومحيت كتابات الرسائل ، والنسخ المكتوبة ، والمجلدات والكتب ، وأصدقاءه ومقربوه وأرواحه التي كعيونه باتوا ينظرون إليه ببرود وبصمت ، كان قد عانقهم ونام واستيقظ معهم وتحدث معهم وقالوا له كل شيء ، كل شيء جيد وجميل وكبير ، ولكن لماذا لم يمت العفريت الذي يرمي بالسم بداخل يونس ، السنوات الأربعة التي ضرب فيها العفريت وقهره بها ولون يدي ووجه العفريت بالدماء ، العفريت الذي لا يهتم للدماء التي على يديه وعلى وجهه ، العفريت المتكبر والمتعالي ، كان وجه يونس قد رقّ ، وحزن واصفر . . . هذا اختناق متعب وقاطع للشفاء ، عيون يونس الكبيرة تبكي في حفرها ، وعظام جبينه قد ارتفعت ، وجلده أرق من عظامه .

كانت لياليه طويلة نعسة ومشاجراته مع العفريت الذي لا يُجن ولا يُهدأ داخله ، كان عفريت الكبر والأنانية ، باختصار عندما كان يونس في زاوية غرفته سارحاً في كتابه وناسياً الدنيا ، عندما سمع صرخات الدنيا وفي يدها مطارق وبنهاية يدها دماء ومقابض شائكة ، وهناك رأى مخلوقاً بشعاً ولا يخجل ، مخلوق خائن ، النفس الواقفة دون أن تُرى ، وهي واضعة عينيها في عينيه . قال يونس بأنين بشفاهه الجافة المشوية « لقد لعنت ، اخرجي من غرفتي واتركي رقبتي ! » ثم سمع ضحكة تثقب الآذان ، قهقة تعاند الغرفة

الصغيرة المظلمة ، والصباح والليل ، والكتب ويونس ، وصوت بصفير الأفاعي يقول : « أخرج يا يونس ! وادخل داخل الناس ، هناك الحياة ، وهناك الخلود ، ستدفىء نظراتك تلك المشاهد وذلك الاستمتاع ، هناك المجد والشهرة والمنصب ، هناك نساء يقفن أمامك ذات شفاه حمر ينادونك بكل شهوة على أرائك ، هناك يوجد كل شيء ، خذ المرأة وضعها ، واترك جسدك لتبغ الخشخاش ، ستنسى كل شيء ، كل شيء . ما هذه الجمل التي يصعب فهمها ، وما هذه الغرفة الضيقة ، اكسر النافذة واكسر الباب ، واقفز إلى الخارج ، وانسى نفسك لنفهم وجودك ، إنها دنيا ليومين فقط يا هذا ! »

كان الصوت الذي بصفير الأفاعي يستمر أحياناً حتى الصباح ، فينفجر رأس يونس ، وعروقه تتراجع وكأنها ستنقطع ، فيقوم ويصل للباب ، ويفتح الباب ويحول نظراته إلى قونيا ، ويرى اختناقه الذي في قونيا وتوتره ، ويشعر برائحتها ، ويتقدم خطوتين نحو الحياة السفيلة التي تقوم بندائه بصراخات كالمجانين ، ثم يعود بارتجاف عجيب إلى الوراء .

وكان أستاذه لا يلاحظ ، كان يعلم بلا شك ، كان يسمع صوت شجاره ، ولكنه سكت ، وقال بشأن هذا الموضوع أشياءً قليلة جداً ، إذا لم تمشي كلمة هذا الشاب التركماني الذي من القرية

الصفراء على نفسه ، ماذا كان سيقول غيره ؟ ألم تكن نصيحة الشخص على لسانه نفسه ؟

ربما كانت النافورة المتزايدة التي في داخل يونس قد هدأت قليلاً ذاك المساء ، وربما كان يراقب وقته باجتهاد .

يونس سيذهب غداً ، قبل أن يقتل العفريت الذي في داخله ، سيمسح وجهه على أعتاب أبواب أخرى مكملاً حربه .

أعطى القرار أنه سيعطي روحه في الوقت الذي سيعطي روحه ذلك العفريت الذي بداخله .

قام وجدد وضوءه لصلاة الفجر ومشى إلى الجامع ، لقد شعر يونس أن المسافة التي بين الجامع وغرفته بَعُدت جداً جداً ، كان الأخ سيرفر يرتدي جلبابه ، ومشى يونس على حسب إشارته إلى المنارة ، صعد السلالم وأنار السلالم بالقنديل الذي يدور ويهتز في يده ووصل إلى المأذنة ، كان هذا أذانه الرابع خلال السنوات الأربعة ، كان الأخ سيرفر قد أشار إليه ليريه المنارة أربعة مرات ، تنفس يونس في المأذنة ، ووضع القنديل في زاوية على الأرض ، هناك قونيا بثقلها وبجسدها المتعب ، وبسمائها الزرقاء وبنجومها المضيئة اللامعة وبقمر اكتمل ولم يبقى هلالاً ، قونيا التي ترفّ عيناها بأضوائها ، قونيا التي التجىء إليها آلاف الناس من أطراف العالم الأربعة ، بلغات مختلفة وبألوان مختلفة وبمواقف مختلفة وتدفؤوا بموقدها .

أدار يونس وجهه للنجوم وبدأ بالأذان ، وتردد صوت في الفراغ حزين وعميق وربما لم يسمع مثله من قبل ، تشابك بالليل وانتشر ، تردد وطال ، وربما بكى يونس في نهاية تكبيرات الأذان التي يسمعها جميع العالم ، واختلطت دموعه بصوته .

استمع الأخ سيرفر أمام المحراب إلى أذان يونس الذي جلس على ركبتيه حانياً رأسه ، كان صوتاً يحترق ، صوتاً عميقاً للغاية ، كان سيتركه الأخ سيرفر ، وليس لديه أي حل آخر ، قام ببطء ووقف للصلاة ، ومع نهاية الدعاء كان آخر من يخرج من الجامع مع نهاية الأذان ، انحنى الأخ سيرفر وهمس في أذنه : « ابني يونس ، هذه ليلتك الأخيرة ، بإذن المولى جاء الوقت الذي ستخرج فيه أمام مولانا الذي تسمع اسمه كل يوم ، أنت ضيفه اليوم ، فلنذهب » .

ضيف عند مولانا . . . ارتجف يونس من رأسه حتى قدميه ، ارتعش وخاف ، هذا خوف مجهول وغريب ، هذا يعني أنه سيكون هذه الليلة ضيف مولانا ، اختلطت السعادة في خوفه والتوتر في سعادته ، أمسك برداء معلمه وقبله ، وضعه على رأسه ، وسأل : « هل لدى مولانا خبر بقدومنا ؟ » تبسم الأخ سيرفر « لا تقلق يا بني ، بالتأكيد يعلم » .

وعلى باب مركز علم مولانا كان هناك الأخ سيرفر ويونس ، ونور خفيف ، وحديث لا ينتهي حتى أذان الفجر ، ويونس ساكت

يستمع ، ينقش كل جملة يقولها مولانا في ذاكرته ، وبعض دموع وبعض ابتسامات وفرح وهمّ ، عاش يونس كلّ المشاعر التي يمكن أن يعيشها في مركز العلم السعيد هذا ، وسكر ، لم يكتف من رؤية هذا الوجه المبارك الذي ينير قونيا ، كان مولانا رعباً للسراب ، عظمة واتزاناً ، كأنه لا يتحدث ، كأن صوته صوت ماء قادم من إقليم آخر ، وهكذا بهذا التوتر تلاقت عيناهما هو ويونس مرتين ، كانت هناك سعادة في عيون مولانا التي تنظر إلى يونس ، إعجاب ولربما غبطة أيضاً ، كان انحناء رقبة يونس وصمته والحريق الذي في داخله وكأنه سلم كل ما فيه لمولانا ، وهذا ما كان يجعل يونس يرتجف ويحمر وجهه ويهيجه ، الساعات مقابل مولانا الواقف كأنه سيعانق الدنيا ، ينيمها في صدره كانت قصيرة وكأنها ثواني ، كانت تنتهي ساعة اللقاء ، والوقت يجيء ، كان المؤذن سيبدأ بأذان الفجر ، وقبل أن يبدأ المؤذن بأذان الفجر قال مولانا كلماته التي انتهت عندما بدأت ، كانت كلماته على وشك الموت :

« إذا رأيت في يوم الموت تابوتي يذهب لا تظن أنك انهممت بهموم الدنيا ، ولا تقل الفراق الفراق عندما ترى جنازتي ، فلقائي وملاقاتي في ذلك الوقت ، لا تقم وتقل الوداع الوداع عندما يضعونني في القبر ، لأن المقابر ستارة لمجموعات من الجنان ، القبر يُرى كأنه سجن إلا أنه نجاة الروح ، فأي بذرة زرعت في الأرض ولم تخرج ؟ فلم تفكر تفكيراً خطأً عن بذرة الإنسان ؟ وأي

وعاء نزل في البئر ولم يخرج ممتلئاً ؟ فلم الروح تخسر وتعذب يوسف ؟ هل أغلقت فمك بهذا الشكل ؟ هو في ذلك المكان جائع ، يتأوه عليك وفي فراغ اللا مكان . . . » .

وعندما التفت يونس والأخ سيرفر إلى الوراء ، كان يوم جديد يستيقظ في قونيا ، يبدأ بالتهيأ وبالاهتزاز والحركة ، وليس هناك حدود لمن يدخل ويخرج من أبواب قونيا ولا حساب .

جمع يونس أغراضه التي في حجرته بهدوء ، وبقيت هيبة أشياءه في عينيه كما هي ، كما كانت اليوم الذي جاء فيه ، خرج ، وانتقل إلى غرفة الأخ سيرفر سلم وجلس ، كانوا في الاستراحات الأخرى أيضاً يجلسون على شكل حلقة ، كان سيبدأ الدرس بعد قليل ، كان الجميع ينظر إلى يونس ، « اليوم انتهى وقت يونس ، علينا أن نعلم أن كل قادم يذهب ، وكل من يحط يهاجر ، فالروح عائدة لله ، ولا خيانة للأمانة .

لقد أحببنا يونس وأدخلناه إلى صدورنا ، سيعيش يونس داخلنا ، وبإذن الله سيعيش يونس داخل أناس أخر ، نحن سامحناه ، فهل سامحنا هو أيضاً ؟ »

كانت الدموع المنهمرة من عيني يونس على خديه دافئة جداً ، « الحق والمسامحة لكم يا أستاذي ، فبماذا نسامحكم نحن ؟ وإذا كان هناك ما نسامحكم عليه فنسامحكم بالتأكيد ، وبما أنه قد ظهر

الرحيل ، أقول لكم ابقوا بخير ، وسلام على الباقين . . . لن أنسى عتبتكم الفضيلة ، استودعكم الله » .

قام الجميع معاً وودعوا يونس ، وراقبوا جسده الذي يصغر كلما ابتعد أكثر حتى اختفى ، وعندما اختفى يونس كلياً عاد الصمت ، وكأنما مُزقت قطعة من أجسادهم ، وانتقلوا إلى الغرفة متفاجئين ، وسمَّىٰ الله الأخ سيرفر وبدأ الدرس .

الطرقات التي تطول وتطول وكأنها لن تنتهي . . . والناس الذين يمشون ويحطون ويهاجرون ، رؤوس الجبال ، والمقدمات والهدوء والصرخات ، وتغريد الحمام ، وصرخات الغربان ، ونقنقة الهداد ، والبلابل والأقحوان والزهرات المزينة ، وبعض النباتات الشوكية ، وأشواك الجمل ، والأعشاب المقطعة ، والمنحدرات على قدر ما استطاع ، والسيول المتدفقة ، والحانات والحمامات والأحياء والساحات ومراكز العلم : محافظات أناضول الشرقية ، أرزوروم ، أرزينجان ، ديار بكر ، ثم بغداد ومحافظات القفقاس ، وأذربيجان .

جبال ليس لها ممرات ، وصحارى لا تمر منها قوافل ولا يطير فيها طائر .

طريق وطريق وطريق ، طريق دائماً . . .

رجل غريب وفقير ومعدم ، على ظهره حقيبته ، وفي حقيبته

كتب وخبزه الذي بمقدار لقمتين ، وأعتاب الأبواب التي مسح وجهه فيها ، وأناس وأناس ، أناس رآهم فتعرف عليهم ، وأحبهم فأعجب بهم ، ومدحهم وعظمهم ، وحزن وتألم عليهم ، والأسابيع والشهور والسنوات التي أتت وذهبت تجر بعضها بعضاً ، وشوق كالجمر ، مشاعر غربة قاسية ، غرابة وغرابة ، رجل سائح يعود ويجول ويجول ويعود ، فقير صامت ، على وشك البكاء ، مجوف لم يستطع أن يقتل العفريت الذي بداخله إلى الآن ، يونس الذي يبكي ويحزن... جمع علم العالم في مفرداته التي يحملها ويعبئها ، اسأله ، أسأله أي سؤال سيعلمه ، فقلد ترك كل منضدة قراءة جلس عليها ممتلئاً ، تعلم من كل عالم علماً ، وعندما سُئل شرح ما تعلمه . هذا جيد ولكن لماذا لم يمت العفريت الذي في داخله إلى الآن ؟ لماذا يخاف من الموت إلى الآن ؟ ما هذا الشك وهذه الوسوسة وهذا الاختناق ؟

القرية الصفراء حلم باهت بعيد ، القرية الصفراء غير موجودة ، ليس هناك شيء موجود ، هناك طرقات فقط ، طرقات شائكة مليئة بالأفاعي ، أصبح يونس قدّاً جافاً ، نحيلاً للغاية .

سنة ١٢٧٦ كانت قد مرت على موت صاحب النظر الثاقب مولانا الذي كان يقول عنه « عرسي » ثلاثة أعوام ، كان مولانا يقول عن موته « عرسي » أما يونس يخاف من الموت ! آه أيتها الحياة

الكاذبة ، كاذبة ولكن لماذا يحبها يونس ؟ هل يُحَب الكذب ؟ مشاعره المتفاجئة ، المذهولة والمدمرة ، والندم المتوحش ، ومخاوفه المتضخمة ، وأحزانه ، ومشاعر الموت الجاهز لحَرْقِ وتدمير كل شيء ، الكدر والحزن والمغص . . . يُشْرِق يوم ويغرب ، ولا يأت المبتغى ، ما يبحث عنه غير موجود !

ما هو الذي يُبحث عنه ؟ روح كرم الذي ينتظر النور ، روح مجنون المحتاج لليلى . . . وهل لدى يونس مطرقة ليحطم بها الجبال ويصل إلى شيرين ؟ لقد ماتت أسلي يا هذا ، وماتت ليلى وماتت شيرين ! أما فعلوا من أسلي وليلى وشيرين مليكة وأناموها في تراب القرية الصفراء الرمادي ، ورموا فوقها التراب ، وذبلت الزهرة . . . لقد قال يوسف : « لقد كانت مليكة بالنسبة لي حلماً ، ولقد استيقظت من هذا الحلم يا يونس . . . » أما استيقظ يوسف من حلم مليكة ، إذاً لماذا يونس إلى الآن بعد كل هذه السنوات لا يستطيع الاستيقاظ ؟ أما ذهب إلى طرقات يوسف وأعتاب العلم ومحافظات خراسان وبخارى والروم ، والمحافظات العالية والمنخفضة . . .

من أيقظ يوسف من ذلك الحلم يا هذا ؟ ما هو ؟ وما هذه الأصوات والطنات ؟ هل جننت أنا يا هذا ؟ هل هذيت ؟ هل تتحدث الحمامات ؟ هل تتحدث الأشجار والأحجار والتراب

والزهور والسماء ؟ وما هذا الصوت الذي يطن في أذني أيضاً يا هذا ؟

« تابدوك ، تابدوك ، تابدوك ! . . . » .

يونس الغريب ، يونس الفقير ، يونس المعدم . . . أغمي عليه على رأس منحدر قريةٍ توشك على الانهدام . . . أَحْضَر راعٍ ملفوفة على رأسه قبعته خِرَافه وهو يقودها ، وفي شفاهه قصب وفي القصب أغنية تركية شعبية . . . فليمر الخروف الأسود من الماء يا هذا ! حتى لو لعق الملح واحترقت أكباده من الماء ، فلينحني وليمر دون أن يشرب يا هذا !

اقترب الراعي ذو الرأس الملفوف بالقبعة نحو الرجل الممتد على رأس التلة بخوف ، كان الرجل يأخذ ويعطي نفساً ، لم يمت . . . فحمله ومشى إلى أسفل المنحدر ، وبدأ بالصراخ :

« يـا أيهـا النـاس ألا تسمعـون ؟ الحقـوا قبـل أن يمـوت يا هذا . . . » .

عندما فتح يونس عيونه لم يرى شيئاً بداية ، كانت الدنيا تسكن في زجاج مخنوق ، ثم ذهب هذا الاختناق ، مسحت يد لا ترى جفون عينيه ، أشجار سميكة ، وأعشاب تعلقت بين الأشجار على الأرض ، وتراب صغير جاهز للصب ، وسقف مهترىء محاط بالدخان ، ومن النافذة التي على اليمين ينزل ضوء قليل للغاية ،

وموقد قَدُم وذبل وراح يخرج أصواتاً وحيداً ، وبجانب القدم مشواية ، وبداخله فحم الأخشاب مشتعل محمر .

نظر يونس بدقة حوله ، فتحول استغرابه إلى توتر ، وفي زاوية الغرفة رداء راعٍ مصنوع من الصوف مرمي ، ورائحة صوف من الواضح أنها قادمة من ذلك الرداء ، وربما كانت رائحة إصطبل ، وطقطقة وعاء فوق الموقد ، وفي الوعاء حليب ، على وشك الفيضان ، حليب تسبح على وجهه حبات تبن ، حاجة دخلت إلى عروقه ، وكأنه كان حلاً لكل تعبه ، إذا شرب إناء حليب ، إذا شرب هكذا حليباً حتى يصل إلى رأسه ، سيرتاح ويخفّ ، ولكن ما هذا المكان ؟ بيتُ مَنْ ؟ كيف جاء إلى هنا ؟ حتى هو لا يرتدي ملابسه الخاصة ، عليه ملابس قديمة للغاية ولكنها نظيفة ، وملابسه الخاصة فوق رأسه ، قد غُسلت وجُفِّفت ونُظِّفتْ وحقيبته كذلك أيضاً ، وكأن يداً لم تلمس حقيبته ، تذكر آخر لحظة ، كان على رأس تلة جبل وحجر وحشرة وكان يصرخ : « تابدوك ! » فقط هذا ، ثم نسيان كبير جداً ، فراغ وسواد ، كان يريد أن يقوم ويرتدي ملابسه ويضع حقيبته على ظهره ويخرج ، لا ، لا يستطيع أن يقوم ، وكأن كل مفاصله مشلولة ، « هل نزل الوحي يا ترى ؟ ربي . . . » حرك أصابعه وحرك ذراعيه وأدار رأسه يمنة ويسرة ، ثم استراح كثيراً ، ولكنه كان متعباً كثيراً ، إذا قام على رجليه سيفقد السيطرة وينهار ، فترك رأسه مرة أخرى على الوسادة ، وأغلق عينيه .

واستيقظ مرة أخرى على صوت أزيز الباب ، كان قد دخل ثلاثة أشخاص إلى الداخل ، جاءوا إلى رأسه ونظروا ، أحدهم وضع يده على جبينه ، وغطاه باللحاف بشدة ، وأحدهم حمل الحليب المطبوخ وأنزله من الموقد ، وبدأ يجهز مائدة طعام ، والآخر خرج مرة أخرى إلى الخارج .

الرجل الذي غطاه جلس بجانب رأسه وسأله : « لقد استيقظت ، إنك تتحسن لله الحمد ، لقد نمت يومين بلا فاصل ، لقد وجدك رجب على رأس التلة وهو من أحضرك ، لا تقلق ، خلال أيام قليلة وتقوم على رجليك بشكل أفضل من السابق ، لقد مرضت مرضاً ثقيلاً ، لو لم يرك ويحضرك رجب ربما كنت ستموت ، لقد غفر الله لك عمرك . . . » .

إذا لم يجده رجب ويحضره كان سيموت ! قبل أن يرى يوسف وقبل أن يصل إلى تابدوك ؟ « يا ربي ! الحمد للطفك » .

سأل بصوت يسمع بصعوبة : « لقد قلت رجب يا أخي ، من هو رجب ، ولماذا أحضرني وأين هذا المكان ؟ »

أجاب الرجل على هذه الأسئلة الثلاثة البعيدة عن بعضها واحدة تلو الأخرى ، وفي صوته صداقة وشفقة ومغفرة وبطولة خاصة بالشرق : « رجب راعي قريتنا يا بني ، راع مثل جده ومثل أبيه نحن أتينا إلى هنا مع ملكنا سليمان ، وسلالة رجب منذ ذلك الوقت كلها

رعاة ، ورجب راع ، لا أحد يعرف لسانه بقدر خرفانه وحملانه وماشيته ، لقد أخذ يداً من والده ، ووالده من والده كذلك ، ولا تقل أنه راع وفقط ، رجب كل شيء بالنسبة للقرية ، كل القرية تنظر إلى يده ، تعمر منه وتنتظره ، إذا وجدك في الجبل في تلك الحال سيحملك ويحضرك بالتأكيد ، ليس رجب فقط ، حتى ذئاب جبالنا كانت ستفعل هذا يا بني ، فمن لا يهتم بمن بقي في اللا مكان هل يقال له آدمي ؟ ألا يجب عليه أن يمسكك من يدك ويرفعك إذا وقعت ؟ إذا كنت أنت أما كنت سترفعه ؟ لقد عرفنا من ثيابك وملابسك أنك لست غريباً ، أنت منا ومعنا ، وفي حقيبتك موجود كلام ربي ، على وجهك نور ألفناه ، من أين أنت ؟ ومن أين أتيت ؟ لا أعرف اسمك ولكن من الواضح أنك منا ، ويكفي أن تقول لنا اسمك . . . » .

لم يسع في قلب يونس الصوت القطني هذا ، وهذه الشجاعة ، وحب الضيف هذا ، شعر بالفخر والسعادة ، وكأن كل آلامه ذهبت ، وكأنه لم يبقى ذرة من تعبه ، ولكن صوته خرج بصعوبة مجدداً : « اسمي يونس يا أخي ، أتيت من أذربيجان ، وطريقي إلى الشرق ، هذه هي الطرقات التي أتيت إليها ، واسم قريتي القرية الصفراء ، وهي على أطراف مياه سكاريا ، بعد قونيا ، قريبة على أسكي شهير . . . » .

قال الرجل : « هل أنت تركماني ؟ » أجاب يونس : « نعم » سكتا ، كانت المائدة جاهزة ، وضعوا الصينية فوق اللحاف ، ووضعوا خلفه وسادة عشبية ، طلب يونس حليباً ، فأعطوه ، شرب يونس الحليب الساخن ومر إلى معدته ، شرب وشرب وشرب ، وفي تلك اللحظة تماماً دخل الرجل الداكن الأسود الذي خرج قبل قليل ، كان ضعيفاً طويل القامة .

في يده فخذ خروف ذُبح حديثاً ، وفي يده الأخرى سكين عليها دم أحمر ، سَلَّم ومرّ ، وضع فخذ الخروف فوق الصينية البعيدة ، غسل يديه ، وتدفيء على رأس الموقد ، ثم تحدث متمتاً وكان صوته يأتي من أنفه مخنوقاً : « ما رأيكم أن نتركه يرتاح يا إخوة ، فليرتح وينم قليلاً » قال يونس : « لا ، لم يبقى فِيَّ تعبٌ بفضلكم ، أنا بخير . . . أريد الجلوس والحديث ، وأريد التعرف عليكم » .

قال الرجل الذي سأل يونس عن اسمه قبل قليل مشيراً إلى الرجل الذي على رأي الموقد : « هذا هو رجب يا ابني ، الراعي الذي أحضرك ، وهذا بطل القرية ، لم يستطيع أحد أن يضع ظهره على الأرض ، اسمه روستام ، نحن نقول له ابن زال ، وينادوني أنا باسم أزار » .

أحب يونس كلاً من رجب وابن زال وأزار ، وثلاثتهم أحبوا يونس أيضاً .

عندما خرجوا من البيت ورجب يتقدمهم كان الوقت ليلاً ، كان منتصف الليل ، وكان يونس قد غرق في نوم وفي أحلام جميلة .

استيقظ يونس عندما كانت عواء كلاب الراعي تبتعد ، سُمع صوت حشرة الليل بصوت عال ، فانتفض على هذا الصوت الذي لم يكن يُسمع وقام ، ارتدى ملابسه وأخذ حقيبته وخرج ، كان الراعي رجب قد التفت خلفه ينظر إلى البيت ، وما إن رأى يونس على الباب حتى أسرع وجاء إليه ، قال : « ليتك لم تقم ، فبعد قليل كان عمي أزر سيأتي ، وكنت ستفطر ، فأنت لم تتحسن بعد. . . » كان في صوته مرحمة أب ، وحنان واهتمام أب ، أحنى يونس رقبته متشكراً ، وقال : « علي الذهاب ، يجب على المسافر أن يكون على طريقه ، فليرضى عنك ربي ، عليَّ الذهاب » .

قال رجب : « حسناً ، إذا كنت تصر اذهب ، وأوصل سلامنا إلى الأماكن التي ستذهب إليها ، ولا تقطع دعاء الخير ، فأنت يبدو عليك أنك إنسان قلبه مليء ، لقد أحببناك » .

عندما قال الراعي رجب « أحببناك. . . » وكأنه كان على وشك البكاء ، وكأنها جاءت هذه الجملة من قلبه وليس من لسانه ، تعانقا ، عانق الراعي رجب بمشاعر لا يعرفها يونس ، بشكل أبوي وبشفقة من القلب ، ثمّ أحنى رأسه إلى الأرض ومشى ، وركض قطيعه الذي ابتعد ولم يعد يرى ، ثم رأى يونس أزر ، كان قادماً إلى

جانبه ، كان في يده طبق مغلق ، وفي داخله خروف مشوي نزل من الموقد حديثاً وبخاره يصعد ، أحزن أزر إرادة الذهاب في يونس ، إرادته في الذهاب سريعاً : « ولكن يا ابني نحن طبخنا لك هذا الشواء ، لا يمكن أن تذهب قبل أن تأكلها » فدخلوا إلى الداخل وجلسوا ، ودعا يونس بعد الطعام ، وقال أزر : « آمين ، سَلِمَ فمك يا ابني لقد أفرحت قلبنا لقد مرت أيام ونحن مشتاقون لضيف ، شكراً لك » .

أوصله أزار إلى رأس التلة وحكا له حكاية الراعي رجب الحزينة في الطريق .

كانت قبل سنتين ، قبل سنتين من العاصفة التي حدثت في قرى المغول ، بينما كان المغول يقطع ويقتل دون أن يقول هذه فتاة أو امرأة أو شاب أو عجوز ، بينما كانت تقال أحزن الأغاني الشعبية للحداد هربوا هم من القرية ، والراعي رجب هرب وذهب أيضاً . . . ولكن لم يخرج من عقله الباقون في الخلف ، والداه وزوجته وأمه وابنته . . . في يوم من الأيام ذهب إلى القرية ، ودخل إلى البيت بسرية ، كان قد أشعل حريقاً ، كان الموقف يدهش الإنسان ، يجعله يُجن ، أولاده الذين أحدهم عمره خمسة عشر والآخر عمره تسعة .

كلاهما فوق الطاولة الخشبية ، وسط دماء متخثرة للغاية ، وكل

منهما رمي فوق الآخر ، ينامون بلا أنفاس ، وزوجته أصابع يديها قد قطعت ، وامتدت إليهم ، وبجانب الموقد يرقد جسدها ممزقاً بلا نفس ، وابنته في الغرفة الأخرى علقت على أخشاب السقف السميكة تهتز ، وأرجل ابنته بجانب لحاف (مدميّأمه) ذات الشعر القليل نائمة بلا نفس ، حزن الراعي رجب لم يهدأ لشهر ، أعطى حزنه للجبل وللحجر ، فلقد احترق وتذمر وقُهر وانقهر ، فهل باليد حيلة ؟ فالقادم والقاتل والهادم ليس شخصاً ولا عشرة أشخاص ، جيش كامل ، جيش سيوفهم مليئة بالدماء ، جيش لا يملكون عيوناً ، المغول الذين دمروا السلاجقة ، وطحنوا ملكهم ، هرب الراعي رجب ولم يُرى لأيام ، ظنوا أنه مات أولاً ، وفي مساء جاء وفي فمه مزمار وفي يده عصا الراعاة ، وبجانبه كلب لا يفارقه لدقيقة ، وتحت يده ما بقي من قطيع الخرفان وما حصل عليهم حديثاً ، جعلهم عشرة بعد أن كانوا واحداً ، وجعلهم مئة ، وإذا ضحك وجه القرية فبالتأكيد ضحك وجه الراعي رجب ، كان رجب دائماً راعياً ، راعياً وفيّاً . . . » .

* * *

صرخ قائلاً : « تعرّى ! . . . أَخْرِجْ كل شيءٍ ترتديه وإلا أنا سأعرّيك ! » .

كان في صوته خشونة عمياء ووحشية ، وفي يد الرجل الحقير

سيف حاد وضعه على حلقه ، ويقوم بدفعه كل مرة وأخرى ، وفي قامة الرجل ذو السيف الحاد طرفه يرمي خيوط دماء في الأرجاء ، وبدأ يتعرّى بعجز ، أولاً أخرج سترته ، ثمّ سترته الصوفية ، وفك حزامه ، وانتظر ، صرخ الشقي « كل شيء ! لا تتعبني اخلع كل شيء » .

قال الرجل : « ألا تخاف من الله أنت ؟! تعال وابحث عما تريد ، وإذا وجدته خذه ، لن أخلع ! » .

كان قد قال ذلك بصرامة ، كان قد اتخذ قراره ، فليقتله إذا أراد ، فبعد كل هذه السنوات أن يتعرى داود الأصفر كما ولدته أمه لا يليق بالأخلاق ولا بالإنسانية ، وإذا أراد فليقتله ، ازداد الدم الذي ينزل من رقبته ، وتدفق ، وملىء جسده ألم رهيب لا يحتمل ، عَضَّ على شفتيه بأسنانه كي لا يصرخ ، فدفع الرجل ورماه أرضاً ، فخرج فوقه ، كان يمزق رأسه ويمزق شرواله ويشد لحيته التي ابيضت ويمزقها ، كان في وجهه عيني ثور مليئة بالدماء .

فتش كل طرف فيه ، حتى وصل إلى صنادله وفتش فيها ، ولم يجد شيئاً ، ومع أنه كان يأمل أن يجد كيساً مليئاً داخله ، ويأمل أن يكون في الكيس ذهب يلمع ، فبصق وقام على رجليه ، ثمّ أخرج الحبل الذي كان قد لفه على خصره ، وربط داود الأصفر ـ النصف عار ـ على شجرة بشدة ، ووقف مقابله ، كان قد سحبه إلى طرف

الطريق وطلب منه أن يتعرى ، كان داوود الأصفر وحيداً ، كان ذاهباً إلى المدينة ، فكان قد أقيم سوق في المدينة ، وكان يجب أن يكون مع داوود حمولة ، ولكن لم يكن على الرجل العجوز أي خردة ، نظر الرجل إلى السيف الحاد ، إلى السيف الأحمر بلون دم داوود الأصفر ، بصق بغضب على الأرض ، رفع رأسه ونظر ، كان العجوز المسكين صامتاً كالميت ، وجسده العجوز منحني ، ودماء تتدفق من رقبته حتى حضنه ، تتغلغل في شعر حضنه .

ألقى الرجل نظرة حوله ، كان في أرجائه صمت وجفاف مخيف ، اتجه ومشى شاداً على أسنانه ، أشعت عينا داوود الأصفر ، النصف مفتوحتان مرة أخيرة ، ارتجف جسده ، شعر بما سيحدث جيداً ، وتمتم : « إلهي ، الحمد لك » .

سمع الرجل تمتمة داوود الأصفر ، فأمسك بشعره مبتسماً ورفع رأسه ، تمتم بأزيز أسنانه الباهتة المتسخة قائلاً : « نادي الله الذي تؤمن به يا غريب الأطوار ، ناديه ليأخذك من يدي ، أنا لا أؤمن به ، ولا أعرفه ، أنا لا أؤمن بشيء !... سأقطعك ، سينقص من هذه الدنيا الوسخة مسلم آخر ، بواسطتك سيضاف إلى نصري صفحة جديدة ، سأقتلكم إلى أن تموتوا جميعاً... في المكان الذي أمسككم به ، وفي المكان الذي أراكم فيه » كان في صوته قسوة وهجوم حيوان مسعور ، وفي يديه التي انفجرت عروقها أظافر طويلة

وداخلها متسخ وحادة كالخنجر ، كأظافر قطة برية محدبة وحادة .

كان هدوء داوود الأصفر وتبسمه الذي لم يستطع أن يفهمه الرجل بأية طريقة يجعله يفقد عقله ، اهتز بجسده الذي عرق كثيراً تحت شمس الظهر الحارقة ، وبدأ يخرج رائحة ، وبدأ بضربه ، أصبح وجه داوود الأصفر قطعاً قطعاً ، وفي عينيه كدمات ، وأسنانه التي تبعثرت وصغرت ، والجروح الكثيرة التي أحدثتها صنادله السميكة القاسية بركبتيه ، « يا ربي ! أرجوك أرسل ملاك النصر . . . أرجوك ! » .

ثم حلّ صمت وانتهت حياة ، دخل سيف الرجل الرقيق ذو الطرف الحاد في رقبة العجوز ووصلت إلى الشجرة السميكة .

وفي سكرة انتصار الرجل ، تقلصت عينا الرجل .

وعندما كان ينظر إلى هذه الدماء ، إلى هذا العجوز ، إلى هذا الجسد المقطع ، سمع فجأة أصواتاً خلفه ، فالتفت بسرعة ، كانوا خمسة رجال ، خمسة رجال مسلحين من رؤوسهم إلى أرجلهم ، على ظهورهم أقواس الأسهم ، وفي أيديهم السهام ، والسيوف وبجانبهم كلاب صيدهم ، وخلفهم أحصنتهم التي تمشي بكسل ، عندما رأوا هذا المنظر تفاجؤوا أولاً ثم توتر خمستهم ، ثم رأوا الرجل المربوط كالنائم وفهموا كل شيء ، وفي لمح البصر كَسَهْمٍ قفز من القوس ، التفت الرجل وبدأ بالركض ، قفزت الكلاب إلى

الأمام وهي تعوي ، وانزعجت الأحصنة ، وركض الخمسة مع الكلاب خلف الرجل ، وأحاطوه من أطرافه الأربعة وحاصروه ، وضاقت الدائرة وضاقت ، وبدأت الدائرة ترتص وكأنها حلقة من نار ، ركع الرجل ورمى سيفه من يده ، وارتمى على الأرض بانحناء ومُسح كالأفعى ، فأمسكوه ، كانت شمس الظهر تشتعل وتحترق ، وكانت كلاب الصيد قد لفت ألسنتها بأسنانها ، وكانت هناك طيور غريبة تحوم حول جسد داوود الأصفر الميت المدمي .

صرخ أحد الصيادين الخمسة : « فلنقتله فوراً ! » وقال الثاني : « فلنشنقه ! » وقال الصياد الثالث : « فلنقطع رأسه بسيفه الخاص » سكت الرابع ، وركض الخامس ليطرد الطيور التي تحوم حول داوود الأصفر .

كانت الروح حلوة ، فكان الرجل يرتجف ويتأوه ويزحف ، وخمستهم ينظرون إليه باشمئزاز ، لقد جاءت نهايته ، كان سيموت ، فطلب رشفة ماء بيأس ، وقابلوا يأسه بجرة ماء كبيرة أخرجوها من حقيبة الحصان ، فتأمل ، نظر إلى أعينهم واحداً واحداً ، لم تكن أعينهم تعطي أملاً أبداً ، كانت العيون مليئة بالاشمئزاز ، شرب الماء وشرب .

شرب الماء وهو يسكبه من فمه بكثرة ، دون أن يأخذ نفساً ، برد قلبه بتلاشٍ ، وارتاح جسده ، وجملت الحياة في عينه ، ظهر

بجانب رأسه عرسان لم يرمهما من قبل أبداً ، وتحركت أعشاب الفربيون ، كانت رقاب أعشاب الفربيون منحنية باحترام ، سمع أصوات اللقالق في السماء ، وسمع صوت الحياة في التراب ، كانت الطبيعة تستحق الحياة ، وكان الموت مظلماً ومخيفاً وكان بعد الموت فراغ ، فراغ لا قعر له ، فراغ بحدة السكين ، فراغ بلا رحمة ، هل سيسامحونه إذا ترجاهم واحترق وَأصبح عبداً واستعبد وتذلل وأهين ؟ رأى رجلاً جديداً قادماً من بين الأشجار فجأة ، فازداد أمله ، كان الرجل القادم حديثاً يمشي ببطء وبصمت وبحزن ، وفي حاله غرابة وحزن ، وبه مشاعر رحمة سيطرت عليه من أوله لآخره ، رأوا جميعاً الرجل الجديد القادم ، سلموا عليه وشرحوا له ما جرى ، نظر الرجل أولاً إلى المخلوق الحقير الذي يتحرك ويترجى ويتذلل على الأرض ، ثم نظر إلى جسد داوود الأصفر المحني بجانب الشجرة ، يا ربي كم كان من الصعب فهم أن المخلوق الحقير الذي على الأرض إنسان ، ولكنه إنسان ، وهو إنسان يتذكر خياله ، ركز جيداً ، قبل سنوات في الخان الذي كان على طريق أسكي شهير وقونيا ، وغرفة الخان الكبيرة ، وفكر فجأة بالرجلين الغريبين الذي كانا بداخل الغرفة يتهامسان بجانب الموقد بينما كانوا هم يصلون ، فكر بأحد الغريبين ، بالأرمني النحيل الجاف الأسود ، والذي يتذلل على الأرض كان ذاك الأرمني ، عرف يونس ذلك ، ولكن الأرمني لم يعرف ، كان الذي يذلل نفسه يريد

شيئاً واحداً من الرجل الذي ينظر إليه بدقة ، أن ينقذه من أيدي هؤلاء الصيادين ، كان هو أمله الوحيد ، وحيلته الوحيدة ، لم يكن في نظراته قرف ، ولا قسوة . . .

قال العجوز الذي بين الصيادين ليونس : « أنت كن الحكم يا ابني ، أنت أعط القرار ، من قطع هذا الرجل العجوز هو هذا الرجل ، ويبدو من لغته أن أرمني ، أعط أنت القرار ، ماذا نفعله به ، هل نشنقه أم نجرح جروحاً قاتلة ونترك الكلاب تأكله ؟ أم نرميه بالحجارة حتى يموت ؟ ماذا نفعل ؟ قرر أنت . . . » .

أغلق يونس عينيه لفترة ، فكر ، فانتظروا ، وكان الانتظار على الأرمني طويلاً كالعصور ، نَفَسُهُ ينقطع ويجفُّ حلقه ، تحدث يونس ببطء :

« هذا الرجل قاتل يا إخوة ، قتله مؤكد وفيه شهود ، ولقد وقع في أيدينا ، فسيرى جنازته ، ولكننا مسلمون ، والمسلم لا يشبه الآخرين ، حتى تعذيب المسلم يكون في دائرة إنصاف كبيرة ، تعذيب الأسير وتقطيع جسده قطعاً قطعاً لا يليق بالمسلم ، بما أنه قاتل وبما أنكم طلبتم أن أتخذ القرار أنا ، فقولي هو هذا : اقتلوه دون أن تعذبوه ودون أن تجعلوه ينتظر بأقصر وقت وبأسرع طريقة ، سيف أحدكم يحلّ هذا الموضوع ، ولكن اسمحوا لي أن أبتعد ، وأختفي ، ثم افعلوا ما قلته لكم ، دمتم سالمين . . . » .

ثمّ ذهب ، واختفى بين الأشجار ، وبعد أن ابتعد كثيراً ، سمع من خلفه صوتاً مؤلماً كلمح البصر ، وانتهى ، فعرق واختنق وهرب ، كانت في رأسه نيران تشتعل ، وأذناه تطن ، ماء متجمد ، وثلج على رأس جبل ، ليته يدخل في الماء المتجمد ، ويغطي يديه ووجهه بالثلوج ، هل سيطفىء حريق جسده ؟ هل سيذهب الطنين الذي في أذنيه ؟ هل فعل فعلاً خاطئاً ؟ هل أخطأ يا ترى ؟ لم يكن قاضياً ليعطي حكماً .

أليس هنالك دولة ؟ ماذا يكون هو ؟ هل كان يملك الحق في إعطاء أمر الموت ؟ اختنق ومَلَّ وبكىٰ ، وكأنما فتح جناحيه وراح يركض كالمجنون ، لم يعرف من ركض وإلى أين ركض ، ثم وجد نفسه على رأس نهر ، انحنى ووضع رأسه في مياه النهر ، كان الماء كالجليد ، ينبع ، توقف هكذا لمدة طويلة ، ثم توضىء ، ووقف للصلاة فوق العشب الأخضر ، وبعد أن صلى وضع حقيبته تحت رأسه وغرق في النوم تحت شجرة التوت الكبيرة ، كانت الشمس تميل للغروب ، وفي السماء غيوم بيضاء رقيقة تتجول ، والنهر يتدفق ، رأى حلماً ، حلماً دموياً ، غير واضح ومخيف ، كانوا قد أناموا رأسه فوق طاولة خشبية ، وسكين عريضة في يد الجلاد الذي يرتدي ملابس سوداء ، يرفع الجلاد سكينه وينزلها ، فيقع رأس يونس الذي ينفصل عن جسده ويستدير فوق الطاولة الخشبية ، في عينيه سحر عجيب ، وجسده مقطوع الرأس يتحرك ويقاوم ،

فيستيقظ مذعوراً ، آآه لم يمت ، رأسه فوق جسده ، يأخذ ويعطي نفساً ، يعيش ، كانت الشمس التي أصبح لونها بنفسجياً تماماً على وشك الغروب خلف جبل ، لو يصل إلى المدينة قبل أن يحل الظلام ، هل المدينة بعيدة جداً ؟ يسرع بخطوات سريعة ذاهباً ، ويُسمع من بعيد صراخ الحيوانات البرية وعوائها ، يطوي الليل الدنيا بسواد حالك ، بظلام بلا قمر وبلا نجوم ، فتتعثر قدمه كل فينة وأخرى بشيء ويقع ، وأحجار تؤلم قدميه ، وأشواك تنغرس في صنادله ، ومدينة . . . مدينة يؤذن فيها العشاء .

يتقدم يونس نحو مدينة يؤذن فيها الأذان ، يمكن أن يصبح على حائط ذلك الجامع ، بلا خوف ، وربما يرشدونه إلى مكان يمكنه النوم فيه .

وبين ازدحام الناس الخارجين من الجامع ، كان هو اليتيم والوحيد ، والناس الذين يتهامسون فيما بينهم ، وشبان خارجون من الجامع أيديهم بأيدي بعضهم وأذرعتهم متشادة ، وعجائز ، وركب يونس قد أصابها العضال ، وتعبه الشديد ، وانهار فوق العتبة التي أمام الباب .

* * *

« زهرة الحناء الخاصة بي ، تسمعينني أليس كذلك ؟ أولاً اسمعي دقات قلبك التي تنبض جيداً ، وانظري إلى هذا الموقد الذي يشتعل ، إلى وهجه الشديد وإنهاكه وانتهائه ، وعُدّي أن ذلك عمر الإنسان ، سينتهي ، ستخمد ناره ، وسيتلاشى ضوءه ، حسناً . . . قولي الآن ، ما هو الشيء الذي لن ينتهي والذي سيبقى إلى الأبد؟» .

خرج من شفاه الفتاة التي باحمرار الورد وبنضارته كلمة واحدة وكأنها أحاطت كل شيء وعانقت كل شيء ، صوت أنين قائل :

« العشق . . . » .

تمتمت المرأة : « لقد عرفت ، لقد عرفت يا زهرة الحناء ، الشيء الذي سيعيش دائماً هو العشق ، تلك النار الوحيدة التي لن تخمد أبداً ، فبدون العشق العمر صحراء ، والإنسان بلا معنى ، لأولئك الناس الذين يتخبطون ويبتعدون عن الويل ، ولا يتمسكون بالويل ويعيشون بلا عشق وبلا فائدة وبلا حيلة . . . » .

« قلت يا أمي أن العشق هو الفائدة والحيلة وهو كل شيء ، وأبي يقول ذلك أيضاً ، تتحدثون وكأنكما تطبقان ذلك ، ولكن في يدي فراغ ، وكأنه فراغ ضخم للغاية ، على ظهري وفي يدي فراغ كبير معلق الآن ، فماذا يفيد ما أقوله إذا لم يسمعه داخلي ؟ أنا لا أستطيع أن أوفي بما أقول يا أمي . . . اليأس يكبر بكل همومه الضخمة بداخلي .

العشق هو سعادة لا توصف ، وأنا غير سعيدة ، فبماذا ستتفضلين الآن ؟ » .

كان في صوت الفتاة هم ضخم وألم شديد ، وكان في عينيها ـ النصف مفتوحتين ـ دموع خفيفة ، قد انهارت أكتافها التي بنضارة عمر السبعة عشر ، وبقي جسدها في ملابسها النظيفة البيضاء كنقطة صغيرة ، في مساء آذار البارد ، وعلى رأس هذا الموقد الذي يشتعل ويتوهج ، تلاقت عينا الأم وابنتها لوهلة ، لم تستطع الأم أن توقف نفسها ، مدت يديها ببطء ، وقالت : « زهرتي الحناء » ومسحت وجه الفتاة المرتجف بأصابعها وأحبتها .

ثم بدأت : « يا قلبي وعيني ، ويا روحي ، لماذا لا تثمر البذرة التي تزرع حديثاً ؟ لماذا لا تظهر ثمارها ؟ ولماذا لا يطير الطائر الذي ولد حديثاً ؟ ولماذا تنتظر البذرة تحت الثلج ثم تبتل تحت المطر ثم تتدفىء بالشمس ؟ لماذا تنتظر تحت التراب وتنام ؟ لكل شيء وقته وزمانه ، طلبه كله وبلا صبر يعني أنه لن يجد حتى نصفه . » قالت هذا وأنهت كلامها .

فكرت الفتاة . . . . بذرة مزروعة حديثاً وطائر مولود حديثاً ، هذا يعني أنها كانت بذرة رميت في التراب حديثاً ، بعد كل هذه الليالي الطويلة ، وبعد هذه الدراسات الطويلة ، وبعد هذه الإنزواءات الكثيرة . . . هل يجب النوح ؟ وهل يليق النوح ؟ ولكن

ما هو الوقت الذي ستفرد جناحيها به وتطير ، متى ستشعر بما تعلم في داخلها ؟ متى ستمسك تلك الابتسامة التي على وجه أبيها دائماً وتعيشها معه ؟

في مركز العلم هناك دراويش انتظروا أكثر من عمرهم ، من يحرثون الأرض ، دائماً يحرثون الأرض .

من يشعلون المواقد ، ويصنعون الخبز ، ويعملون ويعملون ، ومن لا ينامون ليلاً ، دراويش صامتون دائماً ، كالجد الأبيض ، ومولا شاكر والراعي علي ، أولئك أيضاً يقفون وينتظرون من أجل الحب ، يقفون وينتظرون من أجل الفاكهة ، ولكن غيرهم جميعاً هناك نقص في مركز العلم ، هناك أماكن في مراكز العلم فارغة ، فارغة تماماً ، هناك نقصان غير مفهوم ، وحتى (تابدوك إمره) مع عظمته لا يملأ هذا الفراغ ، في هذا النقص الذي لم يمسك العشق الحقيقي ولم يتوصل إليه ، في نقص الأجنحة والفاكهة والمسامير . . .

وقطع غفوةَ الفتاةِ السارحة كسكين ، ظِلُّ رجلٍ خلف الأريكة ، استيقظت الفتاة ، هزّت أمها وأيقظتها ، مشت الأم العجوز نحو الظل ، تحرك الظل وأخرج صوتاً ، صوت فيه محن طويلة ، ووحدة وغربة ، « أختي الكبيرة ، (تابدوك إمره) يطلبكم ، يتمنى منكم القدوم حالاً » .

قالت الأخت الكبيرة : « أنا قادمة » ، حدثته بذات الصوت الذي تحدثت فيه مع ابنتها ، بذات الصوت الرقيق ، من القلب ، منقطع وقادم من القلب ، وكأنها أمسكت الظل وعانقته وأرته حبها العظيم قائلة : « أنا قادمة يا يوسفي ، أوصل الخبر . . . » .

ابتعد الظل ببطء ، ارتدت الأخت الكبيرة وشاحها وانتفضت ووصلت إلى الباب ، كانت هناك رياح في الخارج تهبّ كالسم ، كانت الغيوم التي تعانق سماء المساء تجعلها حالكة أكثر ، وبعيداً هناك دخان خارج من زقاق فقير ، وهناك توتر في الفناء ، توتر المساء ، وربما كانت ارتجاف الدرويش الوحيد بسبب الليل الذي يقترب في الفناء ، لم ترى الأخت الكبيرة سوى الجد الأبيض ، مشى الجد الأبيض بسلة الحطب التي على ظهره إلى الحظيرة ، كم أن ظهر الجد الأبيض منحني ، وكيف أن مشيته لطيفة وعرجاء ومتعبة .

وعندما مشت الأخت الكبرى ودخلت من باب (تابدوك إمره) كان هناك شاب درويش ينير المنارة بقناديل كبيرة ، كانت القناديل تنير المنارة في أول أيام السنة المعروفة ، فالليلة هي ليلة الرغبات ، ليلة رغبات مباركة مليئة بالمنّ وليس لها مثيل .

وفي الوقت الذي تضيء فيه القناديل المنارات كانت السلطانة فاطمة التي تقول لها الأخت الكبرى « زهرة الحناء » بجانب

النافذة ، كانت سعيدة تفكر : « في هذه الليلة يتغير مركز العلم ، في هذه الليلة يملىء مركز العلم نورٌ ، الشمسُ ـ مقارنة به ـ مجرد شمعة ، ليت أمي لا تتركني وحيدة ، لو تتحدث دائماً وتشرح لي . . . » .

فجأة انتفضت السلطانة فاطمة وتوترت ، كان يوسف قد خرج من باب (تابدوك إمره) وجاء إليها ، رأس يوسف على الأرض ، وخطوات يوسف بطيئة ، جاء وأسه على الأرض ووقف ، وتمتم : « أختي ، أختي في الدنيا والآخرة ، لقد تفضل والدكم ، جميع النساء ستجتمع هذه الليلة في مركز العلم ، يجب عليك أن تناديهن ، الأخت الكبرى تريد أن تراهم مجتمعين ، هناك ما ستقوله لهن . . . » ثم ذهب ورأسه على الأرض مجدداً ، إلى الحي الفقير مجدداً ، وخرجت السلطانة فاطمة لتجمع النساء ، أولاً نادت صديقتها وحاملة سرها (نيجار) ، وتجولتا معا وجمعتا النساء من بيوتهن جميعاً ، فهذه الليلة هي ليلة الرغبات ، في هذه الليلة سينير مركز العلم .

وبعد صلاة العشاء اجتمعت جميع النساء والفتيات في غرفة السلطانة فاطمة ، وكان في يد السلطانة فاطمة صينية ، وفي الصينية كؤوس صغيرة فيها زمزم ، وزعت (نيجار) الزمزم للجميع باحترام وحب كبير ، كانت على الشفاه بسملات ، وفي الوجوه نور على

نور ، وبعد أن انتهى هذا الفصل وشربت الفتاة الصغيرة زمزمها ، نظرت الأخت الكبرى إلى النساء واحدة تلو الأخرى ثم بدأت حديثها .

كما فعل (تابدوك إمره) تماماً :

« نحمد ونثني خالق الإنس والجن ، رب العالمين ، من لا حدود لمغفرته وعفوه ، صاحب يوم الدين ، فالتوفيق منه والهداية منه ، وسلام مؤبد على رسوله منير العالمين ، وسلامنا وحبنا لأمهاتنا الفاضلات ، لزوجات رسولنا ، ولتاج رؤوسنا حضرة السيدة فاطمة ، ولحضرة خديجة . إخوتي وإخواني سند حفّاظنا وقلوب بيوتنا : تعلمون أن الليلة هي ليلة الرغبات ، على الأحوال أن تكون أحوالاً أخرى هذه الليلة ، فليكن عيدكم مباركاً ، وليكونوا أحبتكم كثر ، غداً ستبدأ سنة جديدة بالنسبة لنا ، والآن سنتحدث عما يجب أن نفعله في السنة التي ستبدأ غداً ، وهذا سبب اجتماعنا » .

استمعوا لما كل ما قالته الأخت الكبرى بآذان صاغية ، تعلمّ الجميع مهمته وعمله ، ثمّ توجهوا إلى الذكر بإيمان عميق ، وعلى خدودهم دموعهم ، وعلى وجوههم إنارة لا تنتهي ، لم يكن قد بقي الكثير على أذان الصبح عندما انتهى الاجتماع الذي في قسم النسوة في مركز علم (تابدوك إمره) ، وبعد أن سلمت السلطانة فاطمة

على (نيجار) ذهبت إلى غرفتها ، كانت الأخت الكبرى ما زالت فوق السجادة ساجدة ، كانت هكذا واقفة ، كان الضوء الخفيف القادم من القنديل الصغير يعطي الغرفة ضوءاً سحرياً ، لم يكن يعرف كم ستطول سجدة الأخت الكبرى ، لم تشعر حتى بذهاب السلطانة فاطمة . . .

توضئت الفتاة الشابة مرة أخرى وجلست على سريرها ، وسرت كثيراً مع نهاية سورية الملك ، وارتاحت ، ثم انتقلت إلى جزء عم ، آيات وآيات ، آيات حدثت وعِيْشَتْ وستعاش دائماً .

كانت في عالم كبير جداً ، وكأن في داخله هناك السلطانة فاطمة فقط ، وفي آذانها صوتها وتمتماتها ، التمتمات التي تحدث الروحانية ، والعذوبة ، والغيوم والنجوم التي وقفت لتسمعها وكل شيء يمشي وقف ليسمعها ، حتى هي تستمع لنفسها ، « قل هو الله أحد . . . » .

ثمّ صلت صلاة الفجر ، ومع إشراق اليوم بدأ ضوء مركز العلم يخف قليلاً قليلاً ، فوصلت السلطانة فاطمة إلى قنديلاً وأطفأته ، علقت عيناها في القنديل الذي أطفىء وأصبح مظلماً مدة ، لا ، مع بداية هذا الإشراق النظيف ، ومع غسق هذه الليلة المباركة لم ينقص ذلك الفراغ من مركز العلم ، مع أن الفتاة الشابة قد تمنت أشياء ، أشياء أخرى ، أحلامها التي لم تحدث بها أحداً البتة ، وفكرت في

انتظارها الغريب الذي يملأ وحدتها ، ذلك الانتظار الذي سلط عليها منذ سنتين بكل قوته ، اليوم وفي وقت السحر السعيد شعرت بآلام أكبر ، وكأن قلبها سيتبعثر ويتقطع .

كانت تتجول في حديقة مركز العلم ، وكانت تمسح بأصابعها على كل من الزهرات الحمراء والبيضاء والصفراء ، والياسمين والزهرات البرتقالية والقرنفل ، وتشم كل واحدة منهم وتأخذ الرائحة إلى جوفها ، ثمّ بين الضباب البعيد جداً هناك أشياء لم تفهمها تتحرك وكأنها قادمة لتنهي النقصان الذي في دار العلم ، وستكمل النقص . . .

كم طلبت ذلك ، كم ليلة صرخت ونادت وقالت : « تعال » لم يكن شخصاً ، هو معنى ، وضوء ، كان عرش قلب السلطانة فاطمة فارغاً تماماً .

والآن لا يوجد ضوء ليوضع فوق عرش قلب السلطانة فاطمة ، ولم يأت ، أمها تقول : « العشق » ما هو العشق ؟ يقال إنه لا يُعْرَف دون أن تتذوقه وتشعر به ، متى ستتذوقه ؟ لا أحد يفهم هذا الحزن الذي يعطيه هذا الانتظار الطويل لوجهها أبداً ، صديقتها تنظر إلى عيونها طويلاً وتقول : « هناك شيء غريب فيكِ يا فاطمة ، اشرحي لي ما بك ، والدك (تابدوك إمره) روح سعيدة تنير مركز العلم ، الجميع يركض إليه من أنحاء العالم الأربعة ليستريحوا عنده ، وأمك (أمنا) ، لا ينقص الحب والمرحمة من نور وجهها ، أنت ابنة

نورين ، ألا يجب أن يكون لديك جناحان من السعادة ، وأن لا يكفيك العالم ، ما أصل حزنك المخفي هذا ؟ كانت السلطانة فاطمة تستمع لصوت (نيجار) القلق. . . فيزداد شك (نيجار) ، وتقول : « أم أن هناك حطباً نزل في قلبك أيتها السلطانة فاطمة ؟ هل أنت عاشقة ؟ » هنا تفزع السلطانة فاطمة وتصفر ، كانت تفكر في المعنى الذي يكمن تحت سؤالها ، « هل أنت عاشق لمحارب ؟ ووضعتْ (نيجار) على وجهها أكثر نظراتها نظافة ونضارة وبرائة ، فأجابت : « لا أعلم (يا نيجار) ، هل هذا محارب أم هو شيء آخر ؟ فأنا لا أتعرف عليه ولا أعرفه ، ولم أره أبداً » تفاجئت (نيجار) وسكتت ، هل يعرف والدها الشيخ بهذا ؟ فعندما تخرج إلى طابقه كأنه يرى ما بداخلها بمرآة وكأنه يعرف أسرارها التي لم تستطع حلها ، تشعر وكأنه ينظر إليها كذلك ، فتخجل ، وكأنها كانت تضعف وتحزن بين نوعين متضادين من المشاعر بين أن تهرب منه وبين أن تستمع له .

وأحياناً تأتي الكلمات التي قالها يوسف لأمها إلى عقلها ،كان يوسف قد ركع على ركبته ، وأحنى رقبته قائلاً : « أختي الكبيرة ، لدينا في القرية الصفراء أشجار زعرور ، على رأس التلة ، وهناك شجرة زعرور بجانب شجرة البنار .

كنت أنسى الزمان بقربها ، وكان يونس الزمان يونس أيضاً ، كنا

نذهب ونسرح ، أنت لا تعرفين يونس يا أختي الكبرى ، ربما هو كل روحي ، يعيش في قلبي دائماً ، لن أنساه أبداً ، ربما أنسى أمي ولكن لا أنساه . . . » .

من هو يونس ؟ كيف هو ؟ كانت تفكر فيه إذا أرادت وإذا لم ترد ، كانت هناك رياح تملأ قلبها ، هناك يونس تعرفه ، وهو النبي ، الذي نادى أمته للحق ثلاثة وثلاثين عاماً ، ذلك النبي الممتحن لم يستطع أن يجعل أحداً يؤمن به غير شخصين ، ثم ركب سفينة كبيرة ، وانطلق في البحر ، ولكن هناك عاصفة لم تتركهم يروا شيئاً ، فأرادوا تخفيف حمل السفينة ، ففعلوا قرعة ، ورموا النبي يونس في الماء ، وأصبح لقمةً لحوت ، فسرح هناك في أذكار لا تنتهي ، فعفى عنه ربه ، فأخرجه الحوت من بطنه على شاطىء ، كان هذا ما تعرفه وما تفكر فيه السلطانة فاطمة ، ما تعرفه وما تفكر فيه : « كم هو امتحان كبير الكون في بطن حوت » ولا تعرف يونساً آخر ، فمن هو الذي يتحدث عنه يوسف . . . .

* * *

لا ، لم يكن هناك دواء لِهَمِّ قلبها ، فلو عانت السلطانة فاطمة ولو ماتت لن يمتلىء فراغ مركز العلم ! « يا ربي ! ما هذا المحيط ! ليس هناك جذع أتمسك به ، وما هذا الفراغ ، أقع طوال الوقت ، هل هذا هو الاختناق ؟ . . . » .

« هل هذا هو الاختناق ؟ » سؤالها هذا كان وكأنه محنة ، يقطع الحياة ويقسمها ويجعلها غير قابلة للعيش ، هناك نهر ، ينبع فجأة ويزداد .

يسحب من أيدكم الحيلة ومن أرجلكم القوة ، وانجرفتم ، ومقاومتكم ومحاولاتكم بلا فائدة ، تبلعون الماء ، وأغلقتْ المياهُ رؤوسكم ، وأرجلكم لا تصل إلى الأرض ، وهناك بعد المحيط أشجار ، وطيور وسماء وحياة ، ووسط المحيط عتمة ، عتمة رهيبة ، لا تستطيع أن تفتح عينيك من الظلام ، وأسنانكم ترتجف وأطارها الخوف ، ثم شعور صامت ، عدمٌ بالتفكير بأي شيء إطلاقاً ، فراغ بلا حدود ، شيء يدعو للجنون ، وبقي للموت نصف نفس ، وأنتم تموتون ، وهذه هي النهاية ، هذا هو الاختناق ، ثم تنظرون باستغراب للحياة ، كيف أن قدمكم قد جاءت للتراب ، قبل نصف نفس للموت حياة ! ياه... العيش جميل ، العصافير تزقزق ، والأشجار تحفّ .

كانت أقدام السلطانة فاطمة لم تدس على التراب بعد ، كانت تنجرف إلى الموت ببطيء...

وعلى حسب ما قالت أمها كانت قد ولدت قبل سبعة عشر عاماً ، في الربيع ، في الربيع عروس المواسم ، في اليوم الذي ولدت فيه تفتحت زهور أشجار الحديقة ، وهناك لَقْلَقٌ حَطَّ على زاوية سقف

الجامع وراح يبني عشه ، ركضت نسوة مركز العلم العجائز وجاءوا ، فلفوها جيداً وغسلوها ونظفوها ، قال والدها : فليكن اسمها فاطمة ، وقرأ الأذان في أذنها .

وأصابتها أمراض طويلة جداً ، كانت فتاة نحيلة ورقيقة وناعمة ، حنطية وشعرها طويل ، ولها وجه أبيض ، وعيون كبيرة عميقة ، وفهم دائري وجبهة عريضة ، وحواجب كثيفة ، كان الكل يحبها ويغبطها ، ويرتجفون عليها ، فهي ابنة (تابدوك إمره) ، وابنة الأخت الكبرى ، حملها الوحيد ، ثم جثت السلطانة فاطمة على ركبتها بجانب والدها ، تتذكر ذلك ، جلست أمام طاولته ، بجانب سجادة الصلاة النظيفة والطويلة .

قالت ألف وقالت باء ، وأنهت الأحرف الأبجدية بفترة قصيرة ، وبدأت بالحفظ ، كم كانت أيام جميلة ونادرة ولا يشبع منها ، بعيداً عن كل القلق ، سعيدةً وحُرَّةً ، والقرى البعيدة الممتدة ، والأزهار الريفية التي جمعتها وصنعت منها تاجاً ووضعته على رأسها ، وفي يدها جرار وفي الجرار ماء ، مياه كالثلج ، وليال تحكى فيها قصص الأنبياء ، ليال الشتاء النظيفة ، والمواقد المشتعلة دائماً . . .

والأناس الذاهبون والقادمون ، والمسافرون والمهاجرون ، أناس غرباء لا يشبهون بعضهم أبداً .

كانت دائماً تنتبه إليهم ، كيف هم ومن هم ؟ ملابسهم غريبة ،

وخطوط وجوههم مختلفة ، وحركاتهم وأحاديثهم مختلفة ، ربما مئات وآلاف الحيوات ، بعضهم حط وهاجر ، وبعضهم سكن لثلاثة أو خمسة أيام ثم ذهب . . .

وأبوها على الأريكة ، وقور وهادىء ، يمتدون ويقبلون يده ، ويطلبون دعائه ، وهو يبتسم دائماً ، ويصمت كثيراً ، ويتحدث قليلاً ، والدها مليء عبارة عن معنى من رأسه حتى قدميه ، وكأنه رجل بلا لحم وبلا عظام وبلا شكل ، كأنه روح . . . موجود وواضح للغاية ، ولكن كأنه لا يعيش . . .

السلطانة فاطمة تحترم والدها وتقدره كثيراً ، وتشعر اتجاهه بحب أكثر من الاحترام ، لا يمكن التعبير عنه ، إذا مد إصبعه وقال لها : « موتي ! . . . » ستموت ولن تفكر لثانية .

ماذا عن أمها ؟ عن أمها التي هي أم جميع من في مركز العلم ، المرأة التي تجدها دائماً بجانبها ، وتمتد وتتمسك بها ، وتتدفىء في حضنها ، ووعظها ونصائحها . . . لا تمل السلطانة فاطمة من هذه الأحاديث مهما طالت ، تحني رأسها وتستمع دائماً ، وتطير نجوم في عيونها العسلية ، وتظهر الغمزات في خدودها ، وتزداد جمالاً .

كانت السلطانة فاطمة طفلتهم الثامنة ، الطفلة الثامنة . . . قبل أن تولد هي مات سبعة إخوة لها ، وهذا كان سبب سرحانها لمرات عديدة ، وأخذها لأنفاس عميقة ، لقد سَلَّم أطفالها أرواحهم واحداً

تلو الآخر أمام عينيها ، الأوشحة المبللة والنقوش التي صنعت من شجرة السرو التي لم يكبروا فيها ، وتنظر إلى المهد المزين بالنقوش وتتحدث : « يا زهرة الحناء ، هم ماتوا كلهم ، أنت الوحيدة التي عشت ، أنت جناحي ، ولطف ربي ، الولد نعمة لا تعوض ، بإذن الله سيكمل نسلنا معك . . . » .

آه ! الكون مثل الأخت الكبرى . . . آه ، نفض هموم الدنيا ورميها من على الأكتاف ، الامتنان لكل جفاء سيأتي من الآن ، والشكر في كل فرح ، كيف يمكنها أن تشرح ، هم يتقدمون مستقيمين بالأمل دون أن يميلوا إلى خط اليأس أبداً ، صعب جداً ، ما أصعبه ، أن يكون التوكل كأنه غرفة بيضاء في يديهم ، ويلفونه ويلفونه ، والدها الشيخ بكبره وعظمته يلف قماشاً ويضع مرهماً على قدم قطة مجروحة ، وفي المزرعة تحت أشعة الشمعة الحارقة يمشي مع درويشه يحرث ويمسح عرقه ويحرث التربة ، ثم تثمر الأرض خمساً ومئة عوضاً عن الواحد ، والدها الشيخ يلقح الزهرات ، يسقي الزهر ويزيل شوكها ، وتجرح يديه أشواك وتدمي يديه ، ويجعل طعام المساء على شكل حلقات مع الدراويش ، ويأكل من أبوابهم ومن ملاعقهم ، دائماً متوحد معهم وبداخلهم ، ويتغير والدها الشيخ عندما يجلس عند ركب الجد الأبيض ويحني رأسه ، يصفر . ويقول : « الجد الأبيض روح لا تعوض ، فليدعي لنا . . . » .

فينحني الجد الأبيض بجانب تواضع الشيخ هذا ، وينتقل إلى الأرض ، ويتعلق فيه ويرتبط فيه أكثر .

ينبع عمراً ويمشي ، وحكم الزمن قاطع ، آه يا سلطانة فاطمة ، لو تستطيع أن تمسك السعادة التي أمام عينيها ولا تستطيع الوصول إليها ، لن تموت أبداً . . . الانتظار صعب . . . الانتظار ثقيل بشكل لا يحتمل .

« أنتظرك قائلة ستأتي

ووضعت عيني على طريقك

وكل زهرة تترجى وتحني رأسها

لقد فهمت عذاب الشوق الآن . . . »

تقول السلطانة فاطمة أنها فهمت ذلك الآن ، ولكن هي تشعر بهذا الألم منذ سنتين وربما منذ أكثر من ذلك .

* * *

كان يوسف مستلقياً على الغطاء الممتد على سريره ولا يستطيع النوم بأية طريقة ، يتقلب يميناً ويساراً ، يدفن رأسه تحت الوسادة ، ينكمش ويمتد ولكن لا يستطيع النوم ، كانا شخصين في ذات الغرفة الصغيرة ، الملتصقة بالمطبخ ، المنقط فوقها بالتراب ، وبنافذة واحدة ، إحداهما يوسف والآخر بشير .

كان بشير رجلاً غريباً جاء بعد يونس بعام إلى مركز العلم ، ساكتاً ، ومنغلق على نفسه ، ويفكر دائماً .

كان رجلاً ذو جبين ضيق وذقن طويلة ، وعيون سوداء صغيرة ، نحيل وأسمر .

يعيش في حديقة الزهور وحيداً مع الأزهار والورود ، ويوسف في أغلب الأوقات لا يستطيع تكوين صداقة مع هذا الرجل السكوت الذي بين الأزهار والورود ، ومع إرادته بحمل الهموم التي بداخله ورميها التي استمرت لسنوات إلا أنه بشعور لم يحمله ويرميه يغذي أحاسيساً غير جيدة مع بشير ، أحياناً يخاف من عينيه السوداء الصغيرة ويخجل ، وأحياناً صمت بشير الغريب للغاية تجعل يوسف يشعر بالجفاء ، وفي حلقات الذكر وفي أكثر لحظاتها تشجيعاً وإحساساً إذا التفتت عينه إلى بشير يظن أنه ليس في المجلس وكأنه في أماكن أخرى انحناء رقبته مختلف ، وربطة يديه وكأن بشير يتألم من شوك يغرس فيه ، يفكر يوسف مستغرباً لماذا أراه (تابدوك إمره) حديقةَ الزهور عند قدومه مباشرة ، أم أنه أراد أن يطري قسوة بشير بأكثر الزهور والورود نضارة ؟

يقال أن (تابدوك إمره) إذا نظر إلى داخل عيون بشير مرة واحدة يعرف ما بداخله ، ويفهم كل ما فيه ، ويعرف إلى من يمكنه التقرب وكم يمكنه التقرب ، (تابدوك إمره) يبتسم لبشير دائماً ، وكل

الأوقات يقول : « يجب عليك أن تنظر جيداً إلى الأزهار يا بشير ، كيف تتفتح وتظهر أورقاها وتزداد جمالاً ، لا يجب أن ننسى ربنا الذي أعطانا تلك الألوان وتلك الحيوية وذلك الجمال الذي يُقبل ويُشم ولا لحظة » .

فيحني بشير رأسه إلى الأرض ، ويتحرك وكأنه يريد الهروب والذهاب ، وينكمش .

البارحة عندما هموا بالنوم ، لم يسلم بشير عندما دخل إلى الغرفة ، فلم يفهم يوسف ذلك ، فتحدث بينه وبين نفسه أنه لن يجيب على أي سؤال يسأله إياه ، جيد ، ولم يسأل بشير أي سؤال ، استلقى ونام ، هل كان هذا سبب حزن يوسف وعدم استطاعته للنوم ؟

فهو يتلفت ويتلفت ، وبشير هناك ، على بعد قريب نائم ، وليس معروفاً إذا كان نائماً أم لا ، تحرك مرة أو مرتين ، أخذ نَفَساً بعمق وسكت ، لم يتحمل يوسف هذا الجو الثقيل الذي يملأ الغرفة ، فلقد ضاق قلبه واختنق ، إذا خرج إلى الباب ومشى في ظلام الليل ربما يتحسن ، ولكن ما سبب تجوله أثناء وقت النوم ؟ إذا رأته عيون في الفناء أنه مستيقظ ماذا سيشعرون وماذا سيحسون ! قام وجلس فوق سريره ، كان يوسف يراقب من نافذة الغرفة الوحيدة الأنوار الخفيفة القادمة من القمر الذي على وشك الاكتمال ، ثم رأى

نجمتين بعيدتين ، فحول يوسف نظره إلى النافذة ودعا ، تخيل ليال القمر الخاصة بالقرية الصفراء ، ونجومها . . . وما حكت له أمه عن النجوم ، « هذا نجم الراعي يا ولدي ، وقال أجدادنا عن هؤلاء طريق الزمان والمكان ، وأنا أقول لهذه « أسلي » انظر إليها وحيدة ، وكأنهم قد فصلوها عن كرم . . . » .

ما أعظم قدرة ربي ، سماء بلا عماد ، وفي السماء التي بلا عماد ليلة كحلية تشبه القطن ، وبداخلها نجوم تلمع كالذهب ، نجوم كثيرة لا تعد ولا تحصى ، على شكل مجموعات ومجموعات ، هناك . . . . ليس هناك قصور ولا نقصان ، وهناك حرية ممتدة وذاهبة إلى ما بعد الأفق ، ما أعظم قدرة ربي . . .

وعندما ارتاح يوسف بأفكاره المريحة ، وأصبح داخله قطعة مليئة بالسعادة تحرك بشير مرة أخرى ، فالتفت ونظر يوسف ، كان بشير قد قام أيضاً ينظر إليه ، ثم جاء صوت على شكل تمتمة ثقيلة قائلاً : « يوسف ، هلا استمعت إليّ قليلاً . . . » .

فهم يونس من صوت بشير أنه يخفي شيئاً ما ، فقال : « عليك أن تسلم أولاً يا أخ بشير » .

« أنت تعرف أن من لا يسلم لا يجاب على سؤاله ولا يتحدث معه » .

« لا تؤاخذ قصوري يوسف ، أنا كالسكران . . . » .

ما هذا السكر ؟ لا يشبه سكر (تابدوك إمره) أبداً ، كانت تزهر دنيا في داخله !

« أنا أسمعك يا بشير ، يظهر أنك لا تستطيع النوم هذه الليلة أيضاً » .

أخذ بشير نفساً ثم قال : « هل تظن أني أنام في الليالي ؟ أنا لا أنام في الليل ، يبدأ ألم في جسدي ليس له دواء يشبه ألم الأسنان ، فلا أستطيع النوم » سأل يوسف : « لماذا يحدث هذا ؟ » انتفض وفكر . . . وقال بشير : « كنت سأحكي له ، ولكن إذا لم أحكي لك سأموت وسأصبح رماداً وأختفي ، لم يبقى لدي قوة للتحمل ، أنا يا يوسف أحببت السلطانة فاطمة ، سمعتني أليس كذلك ؟ قلت ذلك أليس كذلك ؟ ماذا سأفعل يا يوسف ؟ كيف سأعيش ؟! »

انتفض يوسف من مكانه ، وكأنه قلبه جاء إلى فمه ، تمتم : « ربي ، ربي في مركز العلم درويش أحبَّ ابنة الشيخ ، ربي ! » .

لم ينتظر بشير هذا كله ، وتساقطت من عينيه أشياء دافئة ، دافئة للغاية ، فارتاح ، وأخذ نفساً عميقاً وقال : « هذا هو يا يوسف ، أنت الوحيد الذي تعرف هذا ، لا أحد آخر يعلم . . . » وقال يوسف : « والله أيضاً ! » وصمتا .

* * *

كان يوسف الواصل إلى مركز العلم قبل أن يحل المساء يريد أن يريح جسده المتعب فاستند على حائط المسافرين ليأخذ نفساً وانهار ، كان في رأسه ألم لم يعتد عليه ، ووجهه يشتعل كأنه قطعة من نار ، مسح عرقه الدافىء الذي تساقط من شعره إلى جبينه بذراع سترته ، كان يجب عليه أن يغير ملابسه ، وأن يستحم في حمام مركز العلم جيداً ، ثم يصل إلى (تابدوك إمره) ويجثو على ركبيته أمامه ، فلقد قال (تابدوك إمره) : « بعد صلاة العشاء » . ويوسف حتى صلاة العشاء يكون قد نظف وانتعش وارتاح ، وهكذا يصل إلى سعادة الشيخ ، كان يجب عليه أن يقوم فوراً ، فلقد كان الوقت يمضي ، ولكن ما قِلَّةُ الحيلة هذه ؟ ومن أين هذا التعب ؟ لا يستطيع الانتفاض والقيام ، أقدامه قد انتفخت كثيراً ، وكأن حذائه قطعة من حديد ينكمش بكل قوته ، أخرج أحذيته ببطء من قدميه ووضعه في زاوية ما ، وأسند رأسه على الحائط وبدأ يفكر .

كان الطريق طويلاً ، كان الطريق ملئاً بالأحجار والحفر والأشواك ، وهناك أيضاً أشجار من الصعب المشي بينها ، ونهر يدور ويقطع طريقه كل فينة وأخرى ، ثم حرارة حارقة وكأنه في فرن علف ، يحترق ويتحرك ، وماذا يجب أن يقال عن الحقيبة التي على ظهره ؟ ثقيلة كل الثقل ، وكأنها معبأة بأحجار .

* * *

عندما كان اليوم يولد ناداه (تابدوك إمره) إلى جانبه ، قطع الدعاء الذي على طرف شفاهه وأدار وجهه إلى يوسف ، كان يوسف قد فهم ، كان الشيخ الذي سلمه روحه ورأسه سيعطيه مهمة جديدة ، فرح وتحرك ، كان قد انتظر هذا الزمن الخيالي ، مهمة وعمل كبير ، في الحقيقة إذا قال (تابدوك إمره) احمل هذا الحجر وارفعه من هنا وارمه إلى تلك الأشجار البعيدة بلا داع كان سيسرع ويأتي ، ويعانق الحجر ويوصله ، وعيونه تنتظر وآذانه تنتظر قال : « هل تأمروننني بشيء ؟ »

ناداه (تابدوك إمره) إلى الداخل ، وقال : « فليحضروا الحقيبة » فأحضرتها الأخت الكبرى بصعوبة ووضعتها أمامه ، حمل الحقيبة التي أحضرتها الأخت الكبيرة بصعوبة بيد واحدة ورفعها ومدها إلى يوسف قائلاً : « خذ يا يوسف ، احمل هذه » فامتد يوسف وأخذها « آه ثقيلة . . . فلتكن ثقيلة ، فلتكن ثقيلة حتى . . . » .

« ستأخذ هذه إلى (ساريجا) يا يوسف ، ستعطيها للحاج رجب في ساريجا » ولم يقل شيئاً آخر ، ولكن عندما كان ينتقل للغرفة الأخرى قال : « اذهب وعد بالسلامة ، وأوصل سلامنا بالتأكيد » .

فرح يونس ، وخرج من مركز العلم ، وصل إلى (ساريجا) حين كان الوقت يقترب من الظهيرة ، وسلم الأمانة ، ولم ينتظر الطعام

لأنه صائم ومضى في طريقه ، تذكر كيف نظر الحاج رجب إلى الكيس بدقة وقال : « شكراً يا درويش ، فليكن طريقك مفتوحاً ، فلقد كنا نعلم أنك ستأتي ، أوصل سلامي إلى (إمره) خصوصاً ، فنحن نقبل يديه » .

كان في تلك اللحظة قد غمر داخله فضول لا يُهزم ولا يهدأ ، ماذا كان يوجد داخل الكيس ؟ هناك جاء ذلك السؤال على عقله الذي لم يخطر على باله طوال الطريق أبداً ، كيف ظهر فجأة أمام الحاج رجب ؟ ولكن هل يترك الشيطان الإنسان إذا أمسك وقت فراغه ؟ وعندما تكون الكأس مليئة بالماء هل يبقى فيها هواء ؟ وانظر إذا فرغت ، ستملأ كلها بالهواء ، لذا يجب على القلب ألاَّ يفرغ لوهلة ، فإبليس كطلقة مذابة منطلقة ، ماذا يوجد في الكيس ؟ هل من حقه السؤال إذا كانت أمانة . . . . حتى الآن كان يوسف يحزن .

وصلت عينه فجأة إلى شجرة في الظل قريبة من الحائط يستند غصنها على الحائط ، كانت هناك هزة وحركة ، كان عنكبوتاً ، فراقبه ، كانت الحشرة تحمي ضباب البيت ، تتحرك وتدور حول مادة سائلة ليس معروف من أي مكان تخرج منها .

هذه خيوط رقيقة جداً ، متصلة ببعضها البعض بفواصل منتظمة ، خيوط متحركة وطرية . ما أسرعها يا ربي ما أسرعها ، كيف تمشي بجذعها النحيل ، وتتعلق وتتحرك على طرف خيط رقيق

كأنها تطير في الهواء ،كيف بنت بيتها بهذه السرعة ، والآن أصبح عشاً في الفراغ الذي بين الشجرة والحائط ، ثم حطت الحشرة وجلست على زاوية ، تظن وكأنها ماتت وكأنها أصبحت حجراً ، بلا حركة ، عرف يونس أنها تنتظر ذبابة أو فراشة حشرة مشابهة لتقع في الفخ وهي تتحرك فتقفز العنكبوت ما إن يتحرك الخيط وتهاجمها وتأكلها ، وكان قد رأى أيضاً كثيراً أنه حتى عندما تشبع العنكبوت بطنها تلف الباقي وتخبئه لوقت آخر .

مرة فكر : « لا يفكر في هذا إلا الإنسان ! إن حيلة هذه العنكبوت كحيلة الإنسان يا هذا ! كم أن هذا الفخ سيء ؟ » قال « يا ربي ! » وانتصب بصعوبة .

« أنت تعطي لجميع ذرات العالم رزقه بجميع الأنواع ، فهل يمكن الوصول لعلمك ولقدرتك ؟ إذا دق بابك الأجل مرة ستظلم أعين الحشرات ويلتصقون بشبكة العنكبوت ، ثم يقفون ويتحركون ، هل النجاة ممكنة ؟ يا ربي ! لا يمكن السؤال عن حكمتك » .

قام ومشى إلى الحمام ، وعندما كان داخلاً من الباب رأى بشيراً ، وبسبب تفكيره بالعنكبوت إلى الآن ومن قيام العنكبوت وذهابها ، بحث في أعين بشير عن فخ مخفي ، بحث عن خيط عنكبوت رفيع ، كان هناك فخ في عيون بشير المحولة إلى غرفة

السلطانة فاطمة ، أو ظن ذلك يوسف ، انتفض ومَرَّ ودخل إلى الداخل .

كان العجوز الدرويش الذي ينظر إلى الحمام يفرك ظهره ، وبدأ بالحديث ليكَوِّن صداقة وهو يسكب الماء على رأسه .

« يا هذا ، ما هذا الاتساخ يا روح يوسف ، وكأن الطين يتساقط من جسدك . . . » .

أجاب يوسف : « ألم نخلق من طين ؟ » أحب العجوز الدرويش هذا الجواب السريع ، فضحك ، ثم سعل سعالاً لا ينتهي ، نظر يوسف إلى وجه العجوز المحمر والذي أصبح بنفسجياً بشفقة ، كانت هناك في وجه هذا العجوز علامات عميقة ، علامات أكثر الانتظار ألماً ، وأكثر الهموم صعوبة وأكبر الصعوبات .

كانت عروقه الرقيقة تنتفخ في رقبته ، وتنزل إلى صدره ثم تصعد ، كان هو حارس الحمام ومن يفرك الظهور المتسخة ويجعلها نظيفة ، وكأنه في خشوع عبادة لسنوات طويلة ، كان يحب هذا العجوز كثيراً ، فلقد رآه منذ قدومه إلى مركز العلم ، كيف هو قريب كالأب وكيف يعمل دون أن يشتكي أبداً .

كان قد سمع قوله :

« عملي هو التنظيف يا ولدي ، تنظيف الأوساخ وإخراجها سليمة ، وإذا أخرجنا ربي في يوم الحشر على سواء ، وجعل وجهنا

أبيض في اليوم الذي فيه الناس وجوههم بيضاء وسوداء فذلك يكفينا ولا نريد شيئاً آخر .

وأكون أنا خادماً وعبداً (لتابدوك إمره) » .

كان هذا الرجل الذي ينظف بالليفة الكبيرة التي في يده مئات المسافرين والمهاجرين وآلاف الرجال على عين وأذن (تابدوك إمره) ، أولاً الجد الأبيض ثم هذا ، هل يمكن قياس قيمتهم عند (تابدوك إمره) ؟ كانوا قد احترقوا وأصبحوا كباباً بشكل واضح في نار دائرة الصبر ، لقد مروا من ألف امتحان وألف تجربة بإذن الرحمن ، والنور الذي في عيون العجوز ، نور الحب الذي لا ينطفىء .

حتى لو ماتوا لم يكن النور ذلك . . . لا غرور ولا كبر ولا شبكة عنكبوت في أعينهم . . .

وعندما انتهت نوبة سعال العجوز كان يوسف قد أصبح نظيفاً ، فقام ، إنه الآن بخفة الطير ، في داخله رياح مريحة للغاية ، قال يوسف : فليكن مكانك الجنة يا أخي إدريس ، حلل حقك الذي علينا » فأجاب العجوز : « وهل لدينا حق عليك يا ولدي ، نحن هنا نأكل الخبز ، ويجب أن نعشق خبزنا ، كن عزيزاً كالماء ، واسمع هذا قبل أن تخرج ، في هذه الليلة هناك ضيوف مهمون في مركز العلم ، يجب عليهم أن يكونوا جاءوا في هذا الوقت ، يجب

الوصول والخدمة ، فضيوف (تابدوك إمره) تاج على الرأس ، هل تحدثت كثيراً ؟ هيا اذهب والحق » تفاجأ يوسف للوهلة الأولى وانتفض خارجاً وهو يقول : « مسافر ؟ مسافرون معدودون ؟ هل أوصلنا الكيس من أجل ذلك للحاج رجب ؟ يا الله ! » كان المؤذن (الملا عزة) قد بدأ بالأذان ، كان أذاناً كثيفاً وقصيراً ، أذان لم يترك صدى في الآذان ، جثى على ركبيته واستمع ، ثم مشى بجانب مكان الموضىء الصغير ووصل إلى مائه الذي يتدفق بكثافة ، مد يديه وملأ كفيه وأنهى دعائه وشرب مائه ، آه . . . جوفه الذي كان قد احترق وتهدم كصحراء ، وبعد أن أفطر من صيامه هكذا دخل إلى الجامع ، رأى جميع الدراويش و(تابدوك إمره) ، وفي الصف الذي خلف (تابدوك إمره) ثلاث أشخاص لم يرهم أبداً حتى الآن ، عمر الذي في المنتصف يبدو كبيراً للغاية ، يبدو أنه انحنى قليلاً ، وأكتافه وقعت ، وفي جسده النحيل الطويل تعب كبير ، وأما الذي على يمينه شاب للغاية ، وكأن أكتافه العريضة وذراعاه الطويلة ورأسه المستقيم هيبة لا تنهدم ، ثم نظر إلى الذي على يسارهم تماماً بدقة ، كان شاباً أيضاً ونضراً .

ولكنه لم يكن طويلاً كالبقية ، حتى يمكن أن يقال عنه قزم ، وشعره منهمر على ظهره من الخلف . . .

استيقظ يونس عندما كان (تابدوك إمره) يكبر ، أسرع ووقف

للصلاة ، هل صلّى (تابدوك إمره) بهم الصلاة بسرعة ؟ وهل دعوا الدعاء أيضاً بسرعة ؟ ولأنهم أفسحوا له الطريق أولاً ، خرج (تابدوك إمره) من الجامع ، ثم المسافرون ثم الدراويش الذين كانوا واقفين على الديوان .

كان من المسافرين العجوز يمشي معه ، والشابان يتبعانهما خلفهم بخطوة ، وكان الشابان يمشيان وهما يدققان بكل شيء بالأرجاء ولكن دون أن يظهروا ذلك ، وفي وجوههم ابتسامة نضرة ولطيفة ، تدفقت في قلب يوسف أشياء دافئة ، قال من قلبه : « اليوم ، اليوم يشبه يوماً مماثلاً ، حسناً ، لماذا عيني ترتجف هكذا . . . » .

أخرجوا طعاماً للمسافرين ، كانوا وكأنهم لم يجوعوا كثيراً ، وبالأخص العجوز ربما أكل لقمتين أو لم يأكل ، وعندما قاموا من المائدة جلسوا على شجرة السدر المُنارةِ بضوء القنديل ، وثلاثتهم جثوا على رُكبهم صامتين ، أرسل (تابدوك إمره) يوسف الذي ينتظر على الباب لينادي الجد الأبيض ، فبقوا وحدهم ، بدأ العجوز من المسافرين بالحديث بعد الإذن ، كان في صوته لطافة وصميمة كبيرة ، إذا مددت يدك ستمسكها ، فكلماته تخرج واحدة تلو الأخرى دون أن يستصعب ، ودون أن يدوس عليها ويضغطها ، كان يشرح بصوت بطيء قليلاً ، كانت لحيته البيضاء مع عباءته البيضاء

العريضة تشعر كأنه قادم من عالم آخر .

ولكن بجانب طراوة الخيط هذا ومع كل عمره هذا مازال جسده يقف قوياً ومع أن عظامه قفزت إلى الخارج ماذا يجب أن يقال عن يديه التي عندما تمسكك تشعرك وكأنها ستقطعها ؟

وماذا عن عينيه ؟ عين طائر هادئة عسلية وعين صقر حادة صفراوية . . .

« لدينا حاجة يا (تابدوك إمره) ، لقد أتينا من إتبورون ، من مركز علم الشيخ (أدب علي) ، أولاً يجب علينا إيصال سلامه ، فلقد قال لنا : « فلا ينسانا (تابدوك إمره) من الدعاء ، نحن نتذكره دائماً ، ولكن (تابدوك إمره) يعرف أن زماننا زمان جميل ، ويعرف الأشقياء الذين يملؤون صيف البرية وقطاعها ولصوصها .

نحن قد جئنا من أقاليم آسيا البعيدة إلى تراب الأناضول لنزرع جذورنا فيها ، ويجب علينا أن نعطي جذورنا جيداً إلى التراب لكيلا تنحني وتتكسر بسرعة . . . » .

« نحن نريد أن نأخذ أبطالاً شجعاناً تربوا على أبوابكم يا (تابدوك إمره) ، ونريد أن نُسمع اسم الله ، فغايتنا إرضاء الباري ، وطريقنا سيمر من مركز علم الجد الأسمر بإذن الله ، الذي سيغير تاريخ التركمان ، الجد الأسمر ، بشخصيته التي تتحدث بجواهر وبكل احترام أوصل إلينا خبر : « فليكونوا زواري » فسيكون

لدينا أيضاً من سنختاره من أبطالهم ، فماذا يتفضل الآن ؟ » .

نظر (تابدوك إمره) إلى هؤلاء الرجال الثلاثة الذين من عشيرة الكايي ، يسحبون ويديرون ويرتبون التركمانيين المبعثرين ، كان الوجه الذي مقابله وجهاً بلا كذب وبلا رياء وجهاً بريئاً ، كان قد زرع أعينه في الأرض ينتظر الجواب ، ومع كل ثقله وقوته كان لديه قلب لم يمرض ، كان السيدأرتغرل رأس العشيرة التي بنت سقفاً لأكبر وأضخم الأماكن تاريخاً .

في أثناء نصر قلعة علاء الدين الذي صنعه ضد إمبراطورية الإزنيك ، كان قد استلم مقدمة جيش السلاجقة ، وبعد ذلك هو من فتح الحصار الأسود وأضاف إلى أملاكه ، كان السيد أرتغرل هو الكل المغوار الذي جعل سيد الروم (بيلجيك) يرتبط بالضرائب ، وأعطى سلطان السلاجقة كل ملكاً عظيماً ، ومع أنه قطع عمر الثمانين يبين أنه يكمل جهاده في سبيل رضا الباري . . .

أدمعت عيون (تابدوك إمره) ، كان قلبه لا يسعه من الفرحة ، وكأنه كان ينتظر هؤلاء منذ سنوات بعيدة ، القدوم إلى تراب الأناضول بشكل جيد ، والسكن فيها ، وهل عملوا القليل حتى وصلوا إلى تلك المرحلة التي سيعطوا فيها تراب الأناضول مهراً لدين الحق ، هؤلاء جاءوا من خراسان ومن بخارى ومن يسي ومن أماكن أبعد إلى هنا ، وجعلوا من هنا مبيتاً لهم ، وصنعوا مركزاً للعلم ،

(سالتوك الأصفر) ، و(باراك) والآباء الشجعان ، و(الجد الأسمر) ، و(كاراجا أحمد) . . . ثم الشيخ (أدب علي) . لماذا كانوا يعملون ؟ ماذا كانوا يصنعون ؟

كانوا يضعون أهدافاً مختلفة في كل مكان يحطون فيه ، بطونهم ستتغذى على مياه العجين الطازج ، وسيفجرون نبع ماء في أيادي الروم ، كانوا سيبنون بيتاً تركمانياً قادماً من سيل يتدفق ويجري لا مقدمة له ويشعلون مدافئه .

وأكثر من ذلك ، كانوا سيملكون تراباً من أكثر الأماكن أهمية ، ويحمون تلك الأرض ذلك بالحق والعدالة ويدعون إلى السعادة الغير منتهية ، ويملؤون كل الأماكن التي حموها بالعشق والإنسانية وبدفء سعادة القلوب .

وتتفتح الزهور في أيديهم ، وتغرد العصافير في حدائقهم ، كان قد مرّ عصران منذ ١٠٧١ ، تجولوا آسيا في عصرين كاملين .

ولكن أن يتركوا هذا كله بلا زعيم يعني أنهم يتركونه للموت ، كانوا يعلمون ذلك ، كان يجب أن يكون هناك انحناء حتى ينفع الماء ، كان يجب أن تُنشىء دولة بأساس لا يُهدم ليحكم التركمان العالم . . .

والسلاجقة يتهدمون مع الأسف ، فجروحهم تسيل دمائها إلى الآن من الضربة المدهشة التي ضُربها السلاجقة من المغول

عام ١٢٤٣ ، ثم بدأت حرب سلاطنة لا تنتهي ، تجعل الرجل يجن ، كان أولاد (قيصر الدين كي خسرف) يتشاجرون ويخنقون بعضهم البعض .

الشكاوى ، والخيانات والدسائس . . . وحكم (كي خسرف) الذي بسن الأطفال ،وحبس (محيي الدين بيرفان) الذي بيده الوزارة لفضيلة الوزير الذي يكون أكبر منه (فخر الدين علي) عند المغول . . . والدماء التي انهمرت ، والفتن الكبيرة ، والحاصل هو أن بعد هذه المعركة الطاحنة لم يستطع السلاجقة أن ينقذوا أنفسهم ويعودوا لعزيمتهم القديمة ، ذهب وسيذهب ، سيتشتت التركمان ، وسيأتي على المسلمين من يقطعون الأنفاس ، هناك في الأناضول احتياج لزعيم ، زعيم أهل للسيف وللسان . . . (أدب علي) جلس بجانب ركب أرتغرل وسيعطي ابنه ابنته ، كان قد وثق بابن أرتغرل العثماني الأسمر البطل ، ولهذا يجب على الشجعان الذين قدموا من يسي أن يغذوه ويساعدوه ، وأن يكونوا سنداً لظهره .

حتى الآن كل أعماله كانت تمشي بشكل جيد ، السيد أرطغرل الفطن الذكي ، وصل إلى حدود البيزانس وتحمل وثبت ووقف طوال السنوات .

سيعطي ترابه الذي يزيد كل يوم شبراً كنفس جديد لعشيرة الكايي ، وإذا أعطاهم ذلك سيسقط العمل على كل من تربى في

مركز العلم ، وسيقبل (تابدوك إمره) بروحه وبرأسه ذلك .

« يكفي يا ربي العظيم يكفي أن لا تطفىء نور قلوبنا ، وأن لا تقطع جذور شجيراتنا التي ستزرع حديثاً في التراب » .

كان السيد أرتغرل صامتاً ينتظر بصبر (تابدوك إمره) الذي سرح بعيداً .

ولكن كان في ابنه عثمان الأسمر الجاثي على ركبتيه على يمينه حركة ، حزن مخبىء وكأن عثمان الأسمر يقول :

« هل سننتظر أيضاً يا والدي ؟ ألم يطل الانتظار ؟ » .

ونفس الحال في الشاويش (ساسما) ، أما السيد أرتغرل لا يرى أي إزعاج في التأخير الذي طال ، كانت ابتسامة (تابدوك إمره) تدفىء داخله .

كان يفكر : « أنا أشعر بذات الشعور الذي شعرته عندما كنت عند حضرة الشيخ (أدب علي) ، هذا سرور عظيم جداً ، وثقة لا يمكن شرحها . . . » .

وعندما طرق الباب قطع تركيز المسافرين الثلاثة .

رفع (تابدوك إمره) رأسه ونظر ، دخل (الجد الأبيض) أولاً إلى الداخل ثم يوسف ، وقفا على الديوان بجانب الباب وانتظرا .

التفت (تابدوك إمره) إلى السيد أرتغرل وتحدث :

« هذه الدنيا تشبه عروساً جديدة يا سيدي أرتغرل ، عروس جديدة جهزت بالخضار واللون الذهبي ، هذا وقت الشخص لا يكتفي من النظر إليها ، ولكن خضارها سيزول بسرعة ، ستذبل وتصبح عجوزاً فوراً ، قلن تبقى لأحد وليست باقية أساساً .

إذا فلتسمع إلي جيداً ، الإنسان المحارب لا يستطيع العيش دون أن يعرف جيداً من هم تحت يديه ودون أن يحميهم ويراقبهم كعينه .

كل شيء في هذا العالم الكاذب يجب أن يكون لأجل الخير ، وكل غاية يجب أن تكون للعقبى ليس للدنيا ، الإنسان الذي يكون همه الشأن والشهرة قد هلك ، وأما أنت أيها السيد أرتغرل تطلب رضاء الباري ، ولا احتياج لغيره ، وهذا كاف للعمر ، و(الجد الأبيض) هو زهرة قلوبنا والبطل الذي ليس له مثيل في مركز علمنا هو يوسف ، هم من الآن معلمو طرق ، وسيصطفون خلفكم ويتبعونكم ، هم يعيشون فينا ونحن نعيش فيهم ، ماذا تأمرون سيسمعون كلامنا ويركضون ، فليكن طريقكم مفتوحاً » .

اهتز الجد (آك) وارتعد من الكلمة الخارجة عن القلب ، صعدت كلمة « الله » الرقيقة عبر شفاهه محلّقة ، تجول في الغرفة من جانب إلى جانب ، ثم سقطت دمعتان من عينيه على خديه المجعدين الأبيضين ، وأغلق عينيه . . .

كان يحمل الحطب إلى التكيّة طوال السنوات ، تقرّح ظهره ،

وجُرح . كان حطبه رزمًا رزمًا ، كان يشعل غازه بهم ويطهو البرغل ، كان في الغابة الساكنة المهجورة يجالس الأشجار ويشاركها همومها ويردد الأذكار معها ، قضى عمره في الطريق الذي بين التكيّة والغابة ، وأحيانًا كان يستعجل لكي يلحق محاضرة المتعبد (امرة) ، لكن المتعبد لم يكن ليبدأ المحاضرة دون الجد (آك) ، دائمًا ما يجلس على يمينه ، يستمع لنفَسَه وإلى همساته ، كان قد تعلق بشيخه لدرجة أن لو توحد العالم لا يفك هذه العقدة التي بينه وبين الشيخ ، رغم أن المتعبد يصغره سنًا ، ولكن هل للعمر أهمية في التكيّة ؟ كان يود أن يستلقي وقبل يديه ، كان الشيخ يسحب يديه ولا يسمح بتقبيل يديه ، وفوق هذا كان يقول : « إن الجدّ (آك فريد) فليقرأ علينا دعاءً » كان الشيخ العظيم يطلب دعاءً من فوق حطب التكيّة ، كان في تلك الأوقات يشعر بأن روحه قد وصلت إلى حلقه ، وكأن قلبه سوف يخرج من قفصه القديم ، وكان الجد (آك) يبكي بشكل غير محتمل أمام المتعبد (إمرة) ، كان يبدأ بالذكر في الليالي التي كان لا يستطيع النوم فيها إثر تلك الخطب التي يخطب بها الشيخ ، كان في فكره موجود هو والشيخ ، كان يعيش أكبر المتع سعيدًا حتى ينام ، ألن يبتعد الآن ، ولدى الشيخ أمرٌ ، قال : « يعني أن طريق العودة بدا لهم من الآن » .

ماذا كان ليفعل الجد (آك) دون المتعبد (إمرة) ؟ لكن الأمر كان بدلاً من عشرة ، ماذا لو كانت رقبته أرقُّ من شعرة أمام

الأمر . . . لويت رقبته جيدًا ، وارتجف مجددًا قائلاً : « الله ! . . » ثم سكت ، استغرب الضيوف ، لم يستطع السيد أرتغول تحمل الإفادة المتكدرة التي لا توصف الموجودة على وجه الجد (آك) ، ولكنه نظر فوجدها تقل ، وتلين ، التفت الوجه نحو الأم التي دخلت من الباب ، كان الجدّ (آك) ينتظر كما لو كان قد دخل للتو ، وكأنه إن قال أحدهم « هيّا » فسيمشي . ماذا عن الروح التي تدعى يوسف ؟ فلتعتبرها حال الجدّ (آك) الشابة ، كيف لبشرين أن يسمعا نفس الشيء ؟ كيف لهما أن يعيشا نفس الأشياء ؟ هذه كانت تربية المتعبد (إمرة) ، فرائض الإله . . . نفسان احترقتا بنفس النار ، إن وقف الشخص أمامهم فهو مقابل ديوان .

نظر الرقيب (سمسا) إلى وجه السيد ارتغول ثم إلى عثمان الأسود ، كانوا قد ارتاحوا ، خصوصًا السيد ارتغول . . . كان سعيد ولا تسعه الدنيا ، كان يبدو أن الجواهر التي وجدها لا تقدر بثمن ، في تلك اللحظة أحب الجد (آك) ويوسف الرقيب (سمسا) حُبًا مميتًا ، تقدم مبتسمًا كما يبتسم عثمان الأسود ، وقفوا ، كان عليهم أن يصلوا العشاء بعد قليل وأن ينطلقوا بعد صلاة الفجر ، كان عليهم أن يتركوا التكية خمسة أشخاص بدل ثلاثة ، وفجأة غمر شعور مبهج داخله ، كانوا وكأنهم يحررون كاراجهيسار مع مجموعة أرتغرل ، ربما كان الأمر أعظم ، في ذلك الزمان كانت كاراجهيسار قد استعمرت ، كانوا يحضرون روحين من تكية المتعبد (إمرة) يساوي

عملهم هذا تحرير كاراجهيسار بأكملها ، استمر ابتهاج الرقيب (سمسا) حتى الصباح .

وعندما كان الصباح يشعشع ، كان المتعبد (إمرة) يخرج من الباب الخلفي بخمسة أحصنة ، كان على الحصان الأبيض الذي يتقدمهم السيد ارتغول المنتصر ، كان بردائه الذي يلفه بقوة يبدو رغم عمره المتقدم ذو هيبة وعزم ، ولكن في لحيته البيضاء دعاء يهتز وتسليم بانحناء رقبته قليلاً ، كان قلبه الذي عاش أكثر الأيام رعبًا وانتصر بأعلى الانتصارات والمعنويات التي كانت مليئة بالكداح الذي عانى منها ، سيمتلىء بشعور عميق من الرحابة الغير منتهية وسيشبع جوفه ، كان دراويش خراسان قد غرقوا في أيدي الروم يتقدمهم الشيخ مؤدب ، كان ابنه عثمان بكل ثقة يساعده بصفة خاصة ، إذا صَحَّ حلم عثمان الأسود الذي رأه فإنهم سيحلون عقدة الفرع في الأقاليم السبعة وسيُنْشِؤون دولة لا تهزم في أي وقت ، كانت هذه هي بسمة السيد أرتغول التي على شفتيه ، ومن هنا يأتي نور عينيه ، شعور لا يوصف ، شعور راحة في آخر عمره ، كان باستطاعته الآن أن يبتسم ويموت ، كان المهم الآن هم الدروايش ، مهمٌ أن يخبروا عثمان الأسود في الزمن المناسب « قف واسأل هل ما تفعله مناسب للشريعة ؟ فكر . . . » كان بحاجة لمن يعدله إذا مال عن الحق ، وإلى من يعينه وقت الشدائد ، كانوا قد عثروا على أصدقاء حرب لا ينطفىء نور إيمانهم في وقت كانت البطولة فيها قد

تقلصت فيهم ، كان لدى ابنه من صار له ذراعًا وجناحًا من يمشي بحصانه نحو الموت لأجل تحقيق الوصية ، هذا ما كان عليه أن يحدث . (كونورالب) ، (اكتشاكوجا) ، (ايكوت الب) ، (المنتصر عبد الرحمن) ، الرقيب (سمسا) . . . هل صاروا أدرعًا واهتزوا أمامه ، لا جبل ولا أي أحد آخر يحتمل .

كل واحد من هؤلاء الأخوة وبلا محاسبة ذو قوة كافية (لبيزانس) ، لا تنحني رؤوسهم ولا تنكسر سيوفهم ، جعلوا من دمائهم سبيلاً لوطنهم ، لكن السيد ارتغول كان يعلم أن الدولة لا تنشأ على سيف مطلق ، وإذا نشأت فسوف تنهار ، ولكن الماء المعطى للسيف ستكون ماء مؤمنة ، والقلب الممسك السيف بيده أذا كان يحمي الدولة بدستورها فإنها لن تهزم ، لن تقع أبدًا .

بينما كان الدراويش يجولون لهذا الهدف يبحثون عن من يصبح لعثمان الأسود لسانًا وسندًا أن يكون ذو قلب لطيف . كان عثمان الأسود عريس لا للشيخ مؤدب ولم يكن باستطاعته أن ينفصل عنهم أو أن يبتعد ، كان من الآن لا يستطيع أن يقف في مكانه ويريد الذهاب وهو مفعم بالشباب والشراسة التي كانت تتدفق من عينيه ، لا يستطيع أحد من أصدقاء السلاح أن يخفف من حدتها ، إذا كان لهذه الحرب لا يوجد داعي ، فإن من يستطيع إخفاض حدة فكره هم صاحبوا القلوب المطبوخة مع المحن والمغلي مع التقشف الذين

ينظرون للعالم من نافذتهم فقط ، على أشباه الجد (آك) أن يتكاثروا وأن يصبحوا أصدقاء أوفياء لعثمان الأسود وأن تأسس الدولة كتاج فوق الرأس ، إلى العيش . . . قطع صوت امرأة عجوز أفكار السيد أرتغول ، كانوا على وشك الخروج من التكيّة ، كانت الأخت الأم قادمة ، « هاي يا يوسف ! فلتقف قليلاً ، لدي ما أقوله » .

وقف يوسف وأصدقاءه الأربعة على الأحصنة ، كأن أحدًا قيدهم ، أغلق الجد (آك) عينيه وفتح عثمان الأسود والرقيب (سمسا) أعينهم محدقين باستغراب ، بيد أم الأخت حزمة ، وقفت قبال يوسف ، انتظرت نزول يوسف عن الحصان ، نظرت إليه نظرة الأم التي ستفارق طفلها بعيون كأنها تعانق وتلف وتشم طفلها .

لم يتسع قبلها ألم فراق ابنها الذي كان عامود التكيّة قلبها ، قالت له : « ابني » وتقول لنفسها : « يا أمي » ، كانوا كأنهم أم وطفل حقيقيين ، وحان وقت الانفصال ، هل يبكي الأصل إن لم تبكي العين ؟ تبادلوا النظرات ، وبكوا ، كان الوداع يعني البكاء ، تماسكت الأم بعد ذلك ، مدَّتْ الحزمة وغمغمت ، « تسلم عليك أختك فاطمة أيضًا ، وأرسلت هذه الحزمة متمنية الحظ الوفير ، فيها أشياء أجيال خورسان ، قالت ألا تنزعها عنك ، وأنا أقول هذا أيضًا يا يوسف ، هل تعلم أن هذه زوجين من الأجيال ؟ الثاني في الصندوق ينتظر صاحبه ، سيأتي صاحبه ويأخذ نصيبه يومًا ،

فالتذهب بالسلامة الآن ، لا يخجلك الله في الجهادين ، وأردنا أيضًا أن نعطي صرة النقود الصغيرة هذه للجد (آك) ، فليتفضل لأخذها ، على جدنا (آك) أن في معيشتنا حياة موجودة أيضًا أليس كذلك ؟ إن صرة النقود هذه لا تفرق شيئًا عن هذه الدنيا ، من الآن فصاعدًا سيذكر السيد أرتغول هذا وهو على غازه .

فهموا جيداً أن ما أرادت الأخت الكبيرة أن عزمها مع العثماني الأسود أكبر بكثير من عزم الرقيب (سمسا) ، كان الجد (آك) يتعرق ويتعرق ، ويبكي .

مشوا مرة أخرى عندما بدأت الشمس تظهر رأسها من خلف الجبل ، كانت هناك نسمة خفيفة تهب ، كان الضباب الملتصق بالأرض بالتراب يتصاعد ، كانت أصوات العصافير تُسمع من أشجار البيت العتيق ، وعندما التفتت الأخت الكبيرة وجاءت تفاجئت برؤية غريبين على باب البيت العتيق ، كان هناك من خرج من البيت العتيق ومن دخل في هذا الصباح ، كم هذا حدث عظيم وكم هو تغير كبير يا ربي . . . مشت باتجاه القادمين ، الرجل المتقدم قليلاً كان عجوزاً فقيراً ، كانت قد رأته قبل فيما مضى ، ولكن من الذي خلفه ؟ علامات التعب التي على وجهه ، واصفرار شمعة العسل ، وعظام خديه مرتفعة .

وجبهته عريضة ومفتوحة ، وفي وجهه لحية رقيقة مصفرة ، وفي

عينيه الجائرتين همّ غير معروف ، رجل لديه انحناء خفيف ، وطويل وذو عظام مجوفة ونحيل ، وفي قدميه صنادل قديمة ومهترئة ، وعلى ظهره بقعة غريبة ، وفي يد حقيبة غذاء ، وفي اليد الأخرى عصا طويلة متينة ، وقفت أمامه وسلمت عليه ، كانت الأخت الكبيرة وكأنها قد عثرت على أشياء ستدفىء قلب الشاب التركماني الفقير هذا ، كانت قد بدأت في بيت قلب الأخت الكبيرة تجديد وبداية ، كانت تسمع سعادة محسوسة وسعادة داخلية لم ترى من قبل ، وتتفاجىء ، هذا الشاب الفقير التركماني كأنه كان قد فتح ذراعيه وضم العالم كله إليه ، ومع أنه كان قنديلاً ضرب ضوء نوره السماء ، ولكن ماذا عن صوته ؟ متعب وكأنه قد خرج من أقاليم بعيدة وأتى ، عجزه كصوت نعل عاجز . . . « منزل (تابدوك إمرة) هنا إليس كذلك يا أمي ؟ نحن جئنا من أماكن بعيدة ، ومرادنا أن نخطو عتبتكم ، وينادونني بيونس . . . » .

عندما سمعت الأخت الكبيرة اسم يونس وكأنما دخل قوس في صدرها التفتت بسرعة ، كانت الأحصنة الخمسة قد ابتعدت داخل سحابة صغيرة من التراب وكأنهم نقط سوداء على وشك الاختفاء ، كانت السماء قد ارتفعت مقدار سهم .

وبعد أن استلم يونس الإشارة من الأخت الكبيرة وبينما هو يمشي نحو فرهنى ، لاحظ أن فتاة تنظر إليه بجمود عبر نافذة الغرفة المقابلة

رأها وهي تبكي بصلابة كالموتى ، وعندما دخل إلى غرفة الضيوف أحسّ أن تلك الفتاة التي كانت تقف أمام الباب لا زالت تقف دون حراك في مكانها ، شعر بالغرابة ، سمّى بالله وتخطى العتبة .

خرجت الأخت الكبيرة وهي تقول : « لدينا موضوع نتكلم به فلتتفضل . . . » ، سلم أحد الدرويش الذي كان ينظر إلى غرفة الضيوف ولم يبدو ليونس إن كان عجوزًا أم شابًا ثم تفضل جالسًا في أحد الزوايا .

تربع يونس مع الرجل العجوز الذي كان يرافقه ، نزع عمامته وأخذ ينتظر ، كانت الأشياء وكأنها دخلت في أنشودة وتصدر أصواتًا ، ارتجفت شفاه يونس الجافة ، كانت الجمل تنهمر من طرف شفته وتفاجأ الرجل العجوز والدرويش الذي كان ينتظر في غرفة الضيوف ، كان الصوت يظهر كأنه يختلط مع صوت الأشياء ، كان لا يُشبع .

أنـــا جئـــت مـــع اجـــب لا أحـــد يعلـــم حـــالـــي
أنـــا أتكلـــم وأنـــا أسمـــع لا أحـــد يعـــرف لغتـــي
قـــال كـــن صـــديقًـــا وتعـــال فليصبـــح مـــا قـــدمتـــه قـــدحًـــا
أخذت القدح وشربت الشراب لا يمـــوت قلبـــي المتشقـــق

أرادت السلطانة فاطمة أن ترى يوسف الذي ترك التكيّة ، وغادر السيد أرتغول لكن شعورًا ملىء قلبها لم تستطع إيقافه ، أشياء معقدة

ومختلطة ، تعقدت وتعقدت فوقها .

أخذت هموماً لا تفك ولا تحل ومشت بها ، كان الهم يتضخم ، أصابها مغص طوى الفراغ الذي ملىء البيت العتيق لسنوات ، كان يوسف يذهب ، ولكنها كانت تعرف جيداً أن الفراغ الذي يكبر هذا ليس له علاقة بيوسف أبداً ، طلبها لرؤيته مرة أخيرة ، وأكثر من تحب في البيت العتيق وأكثر إنسان يعجبها كان بخصوص أنه هو ، الصبر الذي يخاطبها قائلاً : « في الحياة الدنيا والآخرة يا أختي » كانت تحترم في قلبها هذا الإنسان المضحي بكل ما يملك ، كانت بجانبه تشعر نفسها عصفوراً صغيراً وورقة قد سقطت ، ضعيفة إلا أنها سعيدة ، والآن لم يكن الوقت للتفكير بهذه الأفكار ، كانت تختنق ، كان الدم قد نشف في عروقها وجسدها قد قتل ، الشيء الوحيد الذي يستطيع الحراك كان تفكيرها ، كانت كشخص على وشك الموت يعيش حركته الأخيرة وضربة قلبه الأخيرة ، لقد ضاق نفسها بشكل غير طبيعي بسبب موقف محتمل وبجانبه حادثة لا يمكن أن تتقدم عليه ، كانت تنتظر بنفسها المقطوع ، كان هناك أشياء ستحدث ، إما أن حريقاً لن تخمد أبداً ستبدأ ، أو ستطفىء حريق كانت مشتعلة دائماً ، كان الهواء الذي بداخل الغرفة وكأنه لا يكفي لأكبادها ، عيناها تسود ، وكأنها ستقع ، حتى لو فتحت النواقذ تماماً ، ولو فتحت الباب كله حتى لو رفعت السقف ورمته جانباً ، ولو رأت السماء وحرية السماء اللا منتهية هل كان هذا الاختناق وهذا

الجفاف سيختفي ؟ هل كان هذا خطئها المميت والعاجز ؟ وعندما علمت أنها لن تتحمل أكثر انتفضت وقامت ، وركضت نحو الباب ، كانت تزهر كفوضوية قلب طائر جريح ، كانت السلطانة فاطمة قد اصفرت ، وعندما فُتح الباب وصدمتْ نسمةٌ عليلةٌ وجهها ارتاحت قليلاً ، ثم هجم الدم الذي كان قد أفرغ من شرايينها فجأة ، فجأة امتلئت التكيّة الفارغة بالأشياء وسيطرت على الفراغ ، كانت المياه تطأ بركة بلا ماء ، كان النور يستبعد الظلام ؛ كانت هناك إضاءة تبهر الأعين . . . كان إما أن النجوم تتساقط من السماء ، أو أن طيور السماء قد فتحت أجنحتها فوق الأرض ، طَنَّ ملىء الآذان ، حبٌّ غمر القلوب ، كانت السعادة مُرة في الباطن ، لهذا كان يُقال أن التلاقي والفراق سواء ، لأن التلاقي يحمل المفارقة والفراق يحمل التلاقي في نفس الوقت ، تبدلت مشاعر السلطانة فاطمة من مشاعر الحزن إلى مشاعر السعادة ، كانت مشاعر الانتظار التي كانت تعتريها على وشك النفاذ ، كان التكيّة التي لم يملأها أحد حتى أبوها القدير البائس الذي على وشك الموت رغم هذا ملىء الرجل الفقير الذي كان يقف قبالة الأخت الكبيرة المكان ، تجمدت عندما رأته ، كان كل شيء يبدو كأنه يغلي كأن يزمجر وكأن هذا الوقت هو وقت ما قبل العاصفة .

كانت الأخت الكبيرة تحاول تحريك الفتاة الشابة المتجمدة وقد اعتلاها الخوف والذهول وهلعت غير قادرة على فعل شيء ، كان

هناك أشياء حدثت للفتاة ، كان على وجه الفتاة جمود واضح ، عيونها توسعت وأسنانها سُكت ، وبدا أنها مريضة بشكل واضح ،

من الواضح أن الحزن فتك بها ، وبصعوبة أدخلتها الأخت الكبيرة إلى الداخل ، ساعدتها في الإستلقاء على السرير وغطتها ، لم تكن السلطانة فاطمة تتكلم ، كانت تبدو وكأنها فاقدة للوعي .

كان القلق يزداد عند الأخت الكبيرة ، كانت قد رأت ابنة الحداد (فازل) بهذا الشكل أيضًا ، كانت ابنة الحداد قد استلقت ثلاثة أيام بدون طعام ومن دون أن تشرب رشفة ماء كانت شبه مستيقظة ، وفي مساء اليوم الثالث من دون أن تنطق بحرف ماتت بعد أن سكبت الدموع كالأنهار ، لم يعلم أحد بالسبب ، لم يجدوا جواباً .

كانت الأخت الكبيرة خائفة ، لقد اعترها الخوف كثيرًا ، ثم أخذت تُخْرج نفسها من هذه الحال بقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، وقالت لنفسها « كل شيء بيد الله يا امرأة ما بالك تهرعين ؟ أتتركين الأمر بيد الشيطان فيمَسُّكِ غضب الله » . وهي ذاهبة لغرفة المتعبد (إمرة) ، أتم المتعبد (إمرة) أذكاره المعتادة ، وكان ينهض من سجادة الصلاة ، في وجهه لطف وقرب ، ويبدو من عينيه السلام الذي هو فيه بكل وضوح ، دموعه النقية الناعمة قد أنارت خطين على وجهه ، لحيته البيضاء الناعمة كالحرير ، وأسنانه البيضاء الصغيرة التي تفرض الاحترام على الناس ، فهم (إمرة)

المتعبد خوف وقلق زوجته الذي كان تبدو في تحركاتها ، وقبل أن تتفوه بأي كلمة أو تشرح أي شيء الأخت الكبيرة ، قال لها بصوت خافت « فلتجلسي يا فاتنتي » ، « فلتتنفسي قليلاً واسمعيني ، مهما فعل القبطان فسوف تمشي السفينة كما أمر الله ، ليس من المقبول أن نغير الفلك أو نوقف دورانه ، لا تبقى النملة بضعفها جائعة ، ولا حتى الأسد ، بمخلبه القوي يغذي نفسه ، لهذا فيجب أن نمسح مرآة القلب دائمًا ، لا يقبل بالصدأ ، الشكر يلائم المرء ، يبعث الله المعاناة للمؤمن كامتحان ، يستجيب بحمدك له ، فلتتكلمي الآن ، أعتقد أن سبب قلقك هي فاطمة ، قال الآن أخبرني ، أعتقد أن فاطمة هي السبب في ارتباكك . ألم الأمهات تفهم بسرعة . . . . » .

نظرت الأخت الكبيرة إلى وجه زوجها . لا ، لا يوجد أي ارتباك وقلق ، كانت هادئة جداً . . . قالت « لقد مرضت فاطمة » . « تنام ، لقد تغيرت كثيراً . . . » .

أجاب (تابدوك إمره) مبتسماً على حديث زوجته الذي في داخله مصيبة ولو أنها سرية ، وقولها بأن « فاطمة مريضة » :

« انظري يا آنسة ! قال رجل عطشان كثيراً في الصحراء : ماذا كان سيحدث ؟ لو وصلت إلى مرادي قبل أن أموت ؛ لو كان هناك نهر ، ترتطم أمواجه على ركبتي ، لو ملئت قربتي من ذلك النهر . . فكر بأن الإنسان الذين يشعر بالعطش في الصحراء أنها فاطمة ، ألن

تكون سعيدًا بالتقائها بالنهر الذي اشتاقت إليه ؟

الله يحب عبده الصبور ، الآن ، لنذهب لنرى . لدينا شيء نقوله له » .

لم تتمكن الأخت الكبيرة من فهم أي شيء ،كانت تمشي وراء زوجها المرتبك والخائف . على الرغم من أنه اعتاد على حالهم منذ فترة طويلة ، إلا أنه كان يعرف (تابدوك إمره) أقل معرفة ، كان يود أن يراه أشبه بنفسه وأكثر بساطة . ولكن هل كان من الممكن (لتابودك إمرة) أن يرأس التكية وينظم الدراويش وإدارتها بسلام بطريقة أخرى ؟اذا كان (تابدوك إمره) إنسان عادي ، هل استطاع دخول قلوب لا تعد ولا تحصى ؟ هل كان اسمه يذكر دائماً بكرامة واحترام ؟

كان يلمع نور الشكر والتوكل والصبر في وجهه الناصع الذي لا يضطرب ولا يتغير من الأحداث لن يكون متشائمًا ، أنانيًا ومتحمساً بشأن أي قضية في العالم . كان يقول « من غير الممكن لأولئك الذين أعطوا قلوبهم للصورة أن يصلوا إلى الكمال ؟ » أصبح جسده الضعيف والنحيف خفيفاً ورفيعاً جداً ومنهاراً نتيجة للصيام الطويل ، والوحدة كما لو أنه سيسقط لو لمسته . يبتسم دائماً داخل ملابسه ويوزع الحب للجميع ولم يبخل . لم يكن هناك شخص واحد جاء إلى بابه وعاد فارغًا . غالبًا ما يدعو الضيوف إلى مطبخ

الحساء ؛ يشبع الفقراء والمحتاجين ، ويوزع لهم من دخل التكية ، وكان ما يعطيه باليد الأولى لا تعلمه اليد الأخرى . كان يضحك قليلاً ، لكنه يبتسم دائماً . في بعض الليالي ، كان يأتي آنيناً عميقاً وحزيناً من غرفته ، يرن على الآذان صرخة عميقة ، كان يُعتقد دعاء متحمساً يدوي في السماء . في ذلك الوقت يتغير وجهه ، يمتد عروقه ، وعيناه تتقلص . كان يبكي وشفتاه ملتوية من الألم ورقبته منحنية . خوفه من الخالق يحرق رئتيه ، والحب يُحَوِّل نار الخوف إلى روضة الورود . لم يكن في عينيه اللتين تنظران بهما الى الدنيا نور البغض ولا الطمع . وكانت تتطاير ضياء الحمد في عينيه اللتين تحولتا الى أشياء يبحث ويجد بهما دائماً العبر . كانت ترى الأخت الكبيرة وهو يذهب إلى الجنازة ويقيم صلاتها ويكون وجهه صفراء في ذلك الوقت . لم يكن هذا خوفًا من الموت ولكنه كان حزيناً حول مصيره . يقول « يَا تُرَى هل سيمنحني ربي رضاه ؟ » كان يعيش على الخط الفاصل بين الخوف والأمل . الحب والألفة اتجاه كل دراويش التكية ، ربما كان ذلك لأنه يعتقد بأنه يمكن أن يكون مذنباً أكثر منهم . كان يتصرف بكل رقة ولطافة اتجاه الجميع دون أن يميز بين الصغير والكبير ولا يسعى وراء الرئاسة . كان مخلصًا وصادقًا جدًا في جميع الأمور حتى أنه لا يصدِّقُ الإنسانُ أحياناً بأنه بشر .

كأن القناعة جناحان من نور تجعله يطير في السماء ،الطاعة والعبادات تنمي شوقه وحبه ،كان صمته طويلاً ولكن عندما يتحدث

يتحدث كلمة كلمة ، ويحمل القليل من الشعر والمجاز . ولا يمكن الشبع من أحاديثه ، اجتماعاته كأنه فصل الربيع الذي يثير المشاعر .

كانت الأخت الكبيرة تتعجب من تواضعه ، ينتظر (أق دادا الجد الأبيض) يأخذ الحطب من على ظهره ويوصله الى التكية (بيت العبادة) . أحياناً يحمل ما اشتراه من السوق في حضنه ، لا يقبل المساعدة من الدراويش(الزهاد) الذين يخدمون عنده ، يقوم بهز سرير أطفاله ليلاً كي يساعد زوجته ويقول لها : نامي فأنت متعبة . لهذه الأسباب كانت الأخت الكبيرة متعلقة به كثيراً . من الغير الممكن أن تعرف (تابدوك إمره) ولا تحبه لأنه يعيش الحياة الأجمل والسعادة المثالية . نحيل ذو جلد وعظم ولكن يحمل تحت صدره قلباً كبيراً بنى الملك والعالم ، واحتضن الطيور الحية والميتة . أسس عالماً للبشر يستحق أن يضحي الإنسان بكل ما لديه . كان يزداد حب الأخت الكبيرة له كل يوم حتى وصل حبها إلى درجة كبيرة جداً . حاول (تابدوك إمره) على مر السنين أن يخفي حبه وإحساسه . لقد كان قد بدأ بالوصول الى مذاق الحب الكبير ، الذي لا يمكن وصفه ، عشق الله ، ولا يمكن وصف عشق الله للبشر . ربما هذا يشبه التقاء السمك الذي كان على وشك الموت بالبحر رجوعه الى الحياة ، ربما أعظم من هذا. . . . .

ربما هو العشق الذي حاولت الأخت الكبيرة شرحها وإعلانها للسلطانة فاطمة .

آه . . . ماذا ينتظر (تابدوك إمره) من أجل ابنته الحقيقة ؟ ماذا يتمنى ؟ لم يقم بنفسه بل كلف الأخت الكبيرة من أجل إرشاد السلطانة فاطمة . حقاً السلطانة فاطمة أقرب مخلوقة لابنته ولكن أليس من الأفضل أن يكون المعلم هو (تابدوك إمره) ؟ عندما دخل وجد السلطانة فاطمة نائمة كما تركتها الأخت الكبيرة . أسنانها متقاضمة وعيناها محدقة . اقترب (تابدوك إمره) من رأسها وهمس لأذنيها لفترة طويلة والأخت الكبيرة واقفة أمام الباب تنتظر باضطراب . لم يحس الثلاثة على مرور الوقت ربما دقيقة أو ربما ساعة .

أخيراً مَدَّ (تابدوك إمره) يده الطويلة النحيلة وأغمض عينا ابنته . أدت هذه الحركة إلى تغير مفاجيء في السلطانة فاطمة كأن جسمها المتشنج قد استرخى وارتاحت . استمعت لوالدها وعيناها نصف مفتوحة دون أن تضيع كلمة واحدة ، كأن وظيفة كل جسمها السماع فقط .

إن لم يكن لديك حبيب الحياةُ لا قيمة لها . إذا ضحيت من أجل الحبيب فإنه سيضحي بكل شيء من أجلك ، فإن دواء القلب هو الحب ، الحب شمعة ، والعاشق يدور حول الشمعة . طرق العشق متعرجة وطويلة ، وتلك الطرق لا يعرفها أي شخص . لكن حب العلم كحب البشر ، إذا عشق الإنسان الجمال الفاني فإن عشقه سوف

يزول . ولا يليق بالإنسان أن يعشق ويغُرْم بالجمال الزائل . ابنتي علينا أن نعشق الجميل في عالم الغيب ! عندها يتغير كل شيء ، هذا الحب ليس له عيوب ومصلحة . هذا هو الحب الحقيقي ، والتعلق بأي شيء آخر سوف يؤدي بحياتي إلى الخطأ كونه سقط فجأة في ظلمة الندامة . الآن هو الوقت المناسب للشكر . لقد جعل الله حلمنا حلماً صادقاً . أيتها الفتاة جاء هو . جاء الروح الذي ينتظر منذ سنوات ، الروح الذي قلت ليملىء فراغ بيت الدراويش لعدة سنوات . . . هذا سِرٌّ . سِرٌّ بحاجة إلى أن تكون سرية . قولي يا سيدة ، ألم يوجد شاب تركماني فقيرالذي جاء الى تكيتنا (مكان عبادتنا) عند شروق الشمس صباحاً ؟ »

ازاد ارتباك الأخت الكبيرة ، كانت ترتجف كأنها أصابتها الملاريا . الشاب التركماني الفقير الذي جاء الى التكية هذا الصباح والذي قال « يقال لاسمي يونس إمره » يا له من رجل كان قد أوقعت السلطانة فاطمة إلى الفراش ؟ يا له من روح انتظره (تابدوك إمره) لسنوات ؟ « يا رب ! لماذا لم ألقي نظرة فاحصة على وجهه ؟ »

ماذا عما تحدث عنه (تابدوك إمره) ، تحقق حلمه ذاته . . . . علمه بمجيء يونس على الرغم من أنه لم يره . . . . كيف لايستغرب المرء ؟ وما قاله الشيخ للسلطانة فاطمة . . . . . « لا يليق للمرء أن ينغمس بجماله الزائل وأن يكون في حالة سكر مع الحب » هذا يعني

بشكل واضح . « يا سلطانة فاطمة ! عندما يكون يونس صديقاً لجميلة في عالم الغيب كوني أنت صديقة له » .

ازدادت الأخت الكبيرة ارتباكاً وأصبحت لاتسع في الغرفة .

« ألا تحب الورود يا أخ بشير ؟ . . . أليس جميلاً أن تعيش مع حشائش ومروج حدائق الورود ؟ . . . تجلس وتنتظر ، تفتح الأوراق ببطء مع حبات الندى التي فوقها في ضوء الصباح .

ينتشر جناحاً جناحاً . ثم ترى ، وقد جاء النحل من هنا وهناك وحطت وامتصت شيئاً وذهبت . كم هوجميل والنحل تحوم بين الأوراق الملونة . بمجرد تعود اللسان لذكر الله لا يمكن إيقافه أليس كذلك يا أخ بشير ؟ . . . » .

عينا يونس النصف مغمضة ، كأنه في منتصف حديقة الورود أمام وردة ولا الأمور التي قاله بنفس واحد لم يغيرفي وجه بشير النحيل والأسمر شيئاً . عندما يجلس يبقى كما هو . . . . جالس على الجذع ، يحرك التراب بعصا رفيعة وطويلة في يده ، يرسم خطوطاً متنوعة ، ثم يخرب الأشكال بقدمه ، وأحياناً يرفع رأسه وينظر حوله . كأنه سمع بيونس . كان هذا هو الأصل . دع الآخر يتكلم ، عندما لا يريد أن يسمع الشخص لن يفهم منه كلمة . فقط ضجيج غيرمعروف ينقطع ثم يبدأ بعد قليل مرة ثانية همسة . سمع البشير هذه الهمسة . ليست وردة ولا بلبل . . .

كان يونس ينتظر إجابة على سؤاله . التفت بشير ونظر . انحنى يونس برأسه على الفور . لايتمكن قط من النظر إلى وجه أي شخص بدقة على أي حال ، كان يمتلىء في داخله إحساس خجل غريب . كأنه لونظر بدقة ، سيشاهد عيوباً وخطايا. . . . لا يمكنه تحمل هذا . لكنه ينتظر جواباً على سؤاله . « من الواضح أنه لم يستمع لي » غمغم ومشى . ومع ذلك ، إنه قال كلمتين صحيحتين صادقتين طوال أشهر ، انحنى رأسه لطلب تضخم في داخله وسأل . طلب منه أن يتكلم ويقول شيئًا . إذا استمر الصمت طويلاً ، فإن الأذن صماء ، ربما لا تسمع . لكن بشير لم يقل كلمة واحدة .

نظر فارغاً . أم أنه من الخطأ بالمجيء إلى بشير . لا ، فهو حارس الورود والزهور والطيور وحارس الجمال والرقة . إنه. . . يحمل الحطب من الغابة . يجمع الحطب اليابس ،يقطع الأشجار المعمرة ،يحزم ويكدس الأعشاب ، ويحملها على ظهره ويجلبها إلى التكية . « لكن ، لا. . . طالما أنها نفس التكية ونفس العتبة . هل هناك فرق بين حمل الحطب وزراعة الورود ؟ » ارتاح قليلاً . بعد ذلك فجأة قال (اق دادا) وفكر بما قاله والأقوال التي لم تنته منها الدرويش . هو أيضاً كان ينقل الحطب الى التكية . في اليوم الذي جاء فيه ، ذهب و(تابدوك إمره) ترك مهنة الحطابة على أكتاف يونس. . . . .

قال « هذا وهم يا يونس ! » ثم تأسف . لم يقل بشير كلمة واحدة ، لكن بعينيه اللتين تنظران فارغة ، ألم يخبرعن أحزن الأغاني والرثاء المحروقة والمعاناة التي لا تصف ؟ الآن يختار أفضل . يوجد مكب مخبأ في عيون بشير . خيوط المكب متشابكة ومعقدة لا يمكن أن تفك . . .

فجأة ، كان لديه الرغبة في مساعدته والتشارك مع الألم الذي لم يعرفه . لو سأل بشير ودعاه يتحدث ويشرح له همومه ، إذا كان لديه حلاً وقوة كافية فليفعل . ظل يدرس في المدارس الدينية سنوات عديدة ، ألم يخبر (تابدوك إمره) ببعض الكلمات الأخرى ؟ ألم يقل « الشوكة في قدم أخيك هي خنجر في قلبك » ؟ ليحل المساء ، وليتوزع مجلس (تابدوك) وينسحبوا إلى زواياهم ، سيسأل بشير . لماذا هذا المكب متشابك ؟

على بعد ثلاثة أمتار من المسجد ، سار إلى النافورة الصغيرة التي فيها مكان للجلوس من الرخام الأبيض .

في البداية يتجمع الماء أولاً في الحوض ثم ينصبُّ في الاتجاهات الأربعة . هذا الماء كالثلج في الصيف ومعتدل الحرارة في الشتاء . يشرب المارُّون بالتكية من هذا الماء على نية الشفاء ويتوضؤون منه . أحضره (تابدوك إمره) بيده من التلة المقابلة أثناء توضعه هنا أول مرة . تتدفق المياه باستمرار ليلاً ونهاراً متحدة في

قناة . كان يلتقي بنهر صغير وهو يلتف حول حديقة التكية . يجف النهر خلال فصل الصيف ، ويروي ماء النافورة شفاه النهر المتعطشة في الصيف .

جلس يونس على إحدى درجات الرخام . عندما ينزل الماء من لحيته الخفيفة الى الأسفل شدَّ انتباهه غراب كبير أحمر في الأمام . كان ذيله يتحرك ، وكان يقفز ، في محاولة للحصول على شيء من الأرض بمنقاره . كان الطمع واضحاً في حركاته . كان يهز رأسه بسرعة من أجل الحصول على شيء من التراب بمنقاره ويجدد نشاطه عندما لم يستطع .

ثم بدا كأن قلبه ملفوف بخوف غير معروف وكان يراقب ما حوله بشكل دائم . سيذهب كالطير إذا انحنى الطفل ليأخذ الشيء الذي أسقطه . كان الغراب الأحمر حيواناً مرتبكاً دائماً . لم يسمح للإنسان أن يقترب منه . أم أنه كان يعرف قسوة بني آدم ؟ كان يشاهده يونس من دون أن يتحرك . ثم جاء غرابان آخران . الآن كانوا يحاولون إخراج الشيء الموجود في التراب وهم يصرخون . خرجت من شفاه يونس جملة عفوية « هذا طمع ، هذا جشع لا نهاية له ! » قلص عيناه وفكر . لم ير الغربان بعد الآن .

امتد خياله إلى أمسية دمشق الضبابية قبل عامين . كان هناك مدرسة كبيرة بالقرب من الجامع الأموي . كان الطلاب الذين أتوا من

كافة أنحاء العالم يأخذون الراحة في ساحة المدرسة في نهاية دراسة طويلة . فجأة ، كان قد بدأ النقاش ولا يتذكر كيف بدأ . شاب مصري أسمر ناشف هابط الشدق وعيناه تضيء وكأنهما قطعتان من النار ، كان يصرخ بعصبية شديدة لم يرها من قبل وبجمل لم يسمعوه أبداً وكان يوجد في مقابله رجلاً سميناً ، أخرق وأعرج . لا يستطيع الاستمرار في دراسته ، كانت نشاطاته العقلية متوقفة ،ربما كان طالباً يمكن أن يقال له متخلف عقلياً . كان يمنياً . كما لو أنه لم يكن فيه أي أثر من بركات بلاده وحيويتها . كان صامتاً وعلى رقبته السميكة القصيرة رأس كبير . المصري :

« قل هل أنت أحمق ! لقد أنزل ضربته الثقيلة الأولى . كان يقول : « أنت ، اذهب بعيداً ! » . إذا كان لديك كَرْم وبستان انشغل بهما ، فهنا ليس مكان الكسالى . نحن لا نلعب . نحن لا ننهك أكواعنا عبثاً في هذه الغرف العفنة . نحن لا نستمع إلى الشيخ الراكع على ركبتيه ويخرج من فمه الكلام كلمة كلمة . . . . في الواقع ، لا يمكن لأحد أن يقول لي إنني أقل معرفة منه . . . . لو طلب أُعَلِّمه لسنوات ! لو أردتم ، لأعلمكم جميعاً العلم لسنوات . انظر إلى القدر ، واأسفاه . . . ! ما زلت أتذلل هنا وهناك ولا أحد ينظر إلى وجهي . لو عرف قيمة الإنسان ، لاقتضى لي أن أكون سلطاناً عليكم ، هل تفهمون ؟ . . . » .

ثم صمت المصري قليلاً وأخذ قسطاً من الراحة وتابع حديثه . كان الجميع يستمع إليه بدقة وكانوا مندهشين .

« كنت في طريقي إلى بغداد مرة . كان لصاحب المنزل الذي استضافني ابن يزعمون بأنه صاحب علم ، جاء بعد أن تعلم العلم لسنوات عديدة . تعتقدون بأن والده سيطير من الفرح عندما يتحدث عنه . غضبت ولم أستطع البقاء في مكاني . قلت يجب أن أعطيه درساً جميلاً ، ثم سحبته إلى جانبي وسألته سؤالاً ، ارتبك كثيراً ، ولم يستطع الإجابة . احمر وجهه الأبيض الجميل . لو لم أضبط نفسي لفرطت من الضحك . لو رأيتم أن والده وهو ينظر إلى وجهي بإعجاب ، ويحاول تقبيل يدي وقدمي . أدركت من ذلك الوقت بأنني أصبحت عالماً . لم يعطني السيد عبد الكريم ابنته . أنتم لا تعرفون السيد عبدالكريم ، كم هو ماكر . كان جارنا ، كنت أرغب بالزواج من ابنته . قال نحن لا نعطي ابنتنا للجهلاء ! يجب أن يكون صهرنا صاحب علم ومعرفة . كانت البنت (جويا) تعرف أشياء أكثر مني . (جويا) : لكي يسمع الرجل كلمته للمرأة يجب عليه أن يكون متفوقاً عليها . قلت : بوه ! خرجت من البيت بعد أن قلت إذا أراد ليأتي هو وليست ابنته ويمسك لي المنشفة(البشكير) . شاء أم أبى سيأتي يوماً سيحترم علمي وسيمسك المنشفة لي ، هل تفهمون ؟ نحن لا ننهك أكوعنا عبثاً هنا وهناك . خاصة أنت أيها

اليمني السمين ، من أنت لتقدم لي النصيحة ؟ . . . » .

ازداد دهشة الطلاب وهم ينظرون إلى المصري بعيون كبيرة . لم يستطيع يونس البقاء في مكانه . لو كان هذا اليمني السمين موجود الآن لكان قد قال ما سيقوله وانتظر ، لم يستغرق الانتظار طويلاً ،رفع اليمني رأسه ، رفَّتْ شفاهه قليلاً وغطى وجهه ابتسامة وقال بصوتٍ هادىء ولطيف جداً بدون غضب وبدون إذلال :

« التكبر هو شعارالشيطان يا أخي ! » . هذا ما سأقوله « خلق الإنسان من نقطة المني . الغصن الذي يشد بقوة ينكسر ويبقى بيد الإنسان . لا يمكنك فك مكبة الطمع . هل تعتقد بأنه يكفي أن تكون صاحب معرفة ؟ الشخص يكون صاحب علم ومعرفة عندما يعلم بأنه لا شيء » .

اطمئن قلب يونس وغيره من الطلاب وارتاحوا . انطفئت عينا المصري اللتين كانتا تلمعان مثل النار . إلا أنه نهض بغضب ومشى ، راقبوا ذهابه ، وكأنه يوجد على أكتافه الجافة مثل الخشب غرور أعمى ، لا يزال لديه طموح الجشع والغرور .

طارت الغربان بعيداً عندما أغلقت الستارة المفتوحة أمام يونس .

غسل وجهه مرة أخر ، وبدون قصد ربط بين الحادثة التي تذكرها قبل قليل وبين بشير . كان بشير يشبه المصري . حتى هذا التشبيه أوجع قلب يونس الرقيق . تمتم قائلا « آه » « كم يوجد من أمور

لا يستطيع الإنسان أن يمنع حدوثه ، فلا هروب من المكتوب . آه لو ألجم الشخص على أفكاره . . . . » .

« هل يوجد لبشير سيد عبد الكريم ؟ واأسفاه ! كيف لم أفهم ما حصل ، وآه . . واأسفاه ، يا حيف عليك ! » .

قام يونس كما لو كان جالساً على النار ، ركض ودخل إلى غرفة الضيافة ، استقبله الدرويش الذي كان قد أجلسه في زاوية ما عندما جاء إلى هنا لأول مرة ، ونظر بعيون مبتسمة ، محبة ومعجبة إلى وجهه وهمس « الحمد لله اليوم لدينا ضيوف كثر يا أخي يونس » .

« تعال ، ادخل واجلس وتحدث قليلاً ، لدي القليل من العمل في المطبخ » .

سلَّم يونس ودخل إلى الغرفة ، جلس الضيوف على الوسائد الموضوعة بالقرب من الحائط ، كانوا ستة أشخاص . نظر يونس إلى وجوههم واحداً تلو الآخر ، حاول أن يتذكر وجه آخر رجل نظر إليه ، لقد كان يعرفه من مكان ما . ثم سأل عن أحوال الجميع . كان قلقه السابق قد اختفى . لم يكن يفكر ببشير الآن . سأل أحد الضيوف عن (تابدوك إمره) ، جلس يونس على ركبتيه وبدأ يروي . تحدث آخر وفي عيناه رمص ومرض عن الشيخ (الأب الغزالي) واستمعوا له بسلام .

ثم بدأ يتحدث الشخص الذي رآه يونس في مكان ما وحاول أن

يتذكره ، كان يوجد في صوته حماس المهر المجنون أو هيجان خرير المياه العذبة . كان يوجد في وجهه الشاب والناصع حيوية وحياة ، ذوشعر أسود منسدل على جبينه البراق العريض ، وكانت ملابسه جديدة وجميلة . كان يتحدث عن غازي أرطغرل . كثيراً ما كان يتحدث عن رجل يدعى عثمان . كان يقول « أيها الأخوة سيدي عثمان هو ابن غازي أرطغرل » . « لم يفتل ذراعه أحد إلى الآن . اذا خرج سيفه من غمده حتماً سقط رأس كافر على الأرض . السيد عثمان حلم مخيف لقطاع الطرق الذين أفسدوا البرية وسوف يجمع التركمان المنتشرون والمرتبكون وسوف يبني لهم وطن ومنزل » .

كلما يروي الرجل الشاب يتحدث أكثر ويتحمس ولايستطيع الثبات في مكانه ، تذكره يونس . بتعبير أدق ، نظر الشاب بدقة إلى يونس وقال « يبدو أنني أعرفك يا أخي درويش(زاهد) . هل لديك أي رحلة على الطريق إلى إسكيشهر كرامان ؟ كان هناك خان كبير على الطريق ، هل نزلت هناك في يوم شتاء والثلج يتساقط ويقطع الطرقات ؟ »

تذكر يونس الرجل الشاب حين ذلك . هذا هو الشاب المراهق الذي تحمس عند ذكر أرطغرل في غرفة الخان . أراد أن يعرف اسمه .

قال « إنهم يقولون لاسمي عبد الرحمن » . ثم مع بعض الإثارة

أكثر كرر وقال « إنهم يقولون لاسمي عبد الرحمن المجنون ! » في هذه الأثناء ، أخذ الحديث عجوز أحدب الذي كان صامتاً دائماً يستمع إليهم ، بصوت يائس ومؤلم :

قال « تقولون كلام جيد وجميل ولكن » « لا أرى أي أمل على الإطلاق ، كأنه لن تنطفىء نار الأناضول ، هكذا جاء ، هكذا سيذهب هذا الزمن الذي هو آخر الزمان ، ظهرت العلامات بالضبط . أنا أقول بعد الآن يجب أن نجلس في الزاوية وننتظر يوم القيامة . أقول أيضاً أن هذا الخفقان هو خفقان الرجل الساقط على المستنقع . لا أرى أي أمل ، تقولون غازي أرطغرل ، من هو هذا الرجل ، ما هي قوته ؟ هل يتحدى العالم بعدد قليل من الجنود ؟ أليس هذا جنون ؟

اثنان من الضيوف أيدوه ، لمح ظلالاً معينة على وجوههم ، لقد ثنوا رؤوسهم . فجأة أراد يونس تغيير هذا الجو المضطرب ، التفت إلى الشاب الذي رآه وسأله .

هل أنت باق هنا يا أخي ؟ هل ستذهب ؟

الضيف الشاب :

قال : « سأذهب » . « فأنا آمل أن أذهب بعد أن أقبل يد (تابدوك إمره) وآخذ دعائه إن شاء الله . لدي عمل ، سيدي

أرطغرل مريض على الفراش ، علي الوصول في الوقت المناسب » .

لقد غير العجوز الأحدب قدمه وتربع من جديد .

تحدث قائلاً « لِمَ لَمْ تقل يا ابني » إذا مات سيد أرطغرل ، سوف تبدأ معركة الرئاسة في قبيلة الكايي . ليلتهف التركمان الفقراء . كنت قد قلت لكم لا يوجد أمل في هذا الزمن ، يكفي أن يكون الشخص أنانياً يحب نفسه » .

قطع يونس هذه المرة هذا الجو الخانق الذي داهمت الغرفة مرة أخرى مثل السكين .

قال : « يا أب ! » . « ألا تعلم أن قطع أمل الرحمة هو كفر . إذا شاء ربنا ، ألا يحصل الشيء الذي لايحصل ؟ . . .

إذا شاء ربنا ، ألا تعطي الشجيرة اليابسة ثماراً ؟ ألم يأمرننا الرسول صلى الله عليه وسلم « حتى لو كنت تعرف أن القيامة سوف تقوم غداً ، إذا كنت تزرع شجرة ، استمر في الزرع ؟

إذا مات السيد أرطغرل يأتي سيد أرطغرل جديد مكانه . إذا لم يكن الأمر كذلك ، فإن رجل آخر مخلص القلب يخرج من بيننا ، يمسك من أيدينا و يؤسس دولتنا . أمتنا . . . لا يمكن أن تعيش أمتنا بدون دولة . نحن نقول : إما الدولة على الرأس وإما الغراب على الميتة . . . تعلمون أن عدداً قليلاً من الأشخاص الذين يفكرون

بشكل موحد يقابل ألف شخص يفكرون بشكل منفصل . إذا أراد المؤمن التطعيم يجب عليه تطعيم الأمل ، أليس كذلك ؟ . . . » .

وقف الرجل الشاب وكان يمسك نفسه بصعوبة من أجل تقبيل يونس . لم يستطع الرجل الذي تحدث عن الأب الغزالي التوقف .

وقد صرخ قائلاً « كان قد قال أبي الغزالي نفس الكلام أيضاً ! » . قال « إذا أراد المؤمن التطعيم يجب عليه تطعيم الأمل » . هل تعرفون لمن قال ؟ للمؤمن العجوز . . . . هو المؤمن العجوز الذي عنده أموال وأملاك لا تحصى ، لكنه يمشي ووجهه لا يضحك أبدًا ، عابس وفي حالة البكاء دائمًا . يقول « ذهب ودمر التركمان » .

تفجع قائلاً : « أنا أحمق لماذا جئت الى هذا المكان المليء بالوساوس » . يئن قائلاً « لا يخضر فرع الأمل بعد اليوم ، يضعف لمن يأتي أمامه ويجعل ذراعه وجناحه لايحمل . يوم من الأيام سحبه أبي الغزالي ، مسك يده ونظر بغضب على وجهه ، تظن أنه ينزل البرق من السماء ، تعتقد أنه سيخنقه وسيبقيه بدون نفس . صرخ قائلاً : يا مؤمن العجوز » إذا أراد المؤمن التطعيم يجب عليه تطعيم الأمل « هذا ما قاله . مثلما أمر هذا الدرويش . . » .

انحرج وصمت العجوز الأحدب ، والضيفان اللذان أَيداه . المذكور هو الأب الغزالي الذي عرف في العالم .

في ذلك الوقت ، دخل الدرويش الذي كان ينظر إلى دار الضيافة وكان في يده صينية كبيرة ، وضع المائدة في الوسط وقال تفضلوا . بعد ذلك أضاف قائلاً : « يا (تابدوك إمره) إذا لم يكن القلب مرتاحاً ، فإن الجسم لا يستطيع أن يرتاح » تناول طعامك بصحة وعافية ، نتمنى لك راحة البال ، سوف يناديك شيخي بعد قليل » .

فرح يونس وافتخر . أصبحت أيدي العجوز الأحدب المرتجفة لا ترتجف ، من الواضح أنه كان قد ارتاح . لقد انتهوا من تناول الطعام ووقفوا ، على الرغم من أن درويش دار الضيافة كان أمام دار الضيافة ، عندما ذهب (تابدوك إمره) إلى غرفته توجه يونس إلى غرفته .

كان بشير جالس أمام الباب ينظر الى مكان ما . كان بشير ينظر إلى نافذة السلطانة فاطمة وفي عينيه ألم غير قابل للشفاء كأنها كانت تذوب وتنهار وتسقط . ارتبك يونس مرة أخرى . كانت نافذة السلطانة فاطمة مغلقة وكان هناك ستارة ، لم يُرَ الداخل . وكان بشير لم يلاحظ يونس .

* * *

كان يتساقط الضوء في أول النهار على الطريق المؤدي إلى الغابة . تلعب ريح رقيقة بأوراق الشجر ، تفوح رائحة الزهور في كل مكان . قال يونس : « إن زهور الأرض هي عرق محمد » . تزينت أشجار المشمش بالأزهار الوردية والبيضاء ، ملفوفة بعناقيدها حول الأشجار مثل الكرم ، تنظر إلى أزهار النرجس والزنبق ، كان يملأ داخلها حماس وفرح كبير . وكانت ترتفع الشمس من بين الأغصان مثل صينية ذهب ، وكانت الطيور والبلابل تغرد وتغني بين الأعشاب . كانت السناجب تتجول وراء الأشجار ، وكأن الطبيعة ارتدت فستان الزفاف ، تتدلى بطازجتها في بداية الصيف .

أخذ يونس فأسًا حادًا على يده اليمنى وجلس في مكان أصبحت فيه الأشجار كثيفاً . كانت جزيرة صغيرة في داخل بحر الغابة ، هذا المكان في طرفه الداخلي طريق الدرب . وكان يونس يحب دائمًا هذا الساحة الخضراء المحاطة بالأشجار من أربعة جوانب .

في بعض الأيام يتناول غذاءه هناك ، ويشرب ماءه من نبع صغير في الأمام . يريد أن يشكر ألف مرة كلما تتنفس تأخذ رئتيه الهواء الممتلىء برائحة الصنوبر والتنوب ، ويرتبك بما سيفعله في مقابل نعمة ربه هذه التي لا نهاية لها . كان يفكر وقد أسند ظهره على شجرة سميكة ، كان وجهه قد امتلىء بالابتسامات ، والفرح يغمر كل قلبه . . . . في بداية يوم وعمل جديد ، لا يمكن للحياة أن تستمر

حتى المساء لولا هذا الانشغال . يكبر هذا الفرح في أوقات المساء السارة . إذا أقيم مجلس (تابدوك إمره) وركع أمامه ، فإن العالم كله سيكون له ، عندئذ يمسح كل شيء من عينه . يبقى (تابدوك إمره) فقط ، يبقى صوته فقط . كان بإمكان يونس أن يعطى ألف روح من أجل هذا الفرح . ترك نفسه لكلمات (تابدوك إمره) ويظل يسبح داخل أعظم سعادة .

يرافق لأفكاره أصوات العندليب بأجمل الألحان ، ثم لما استمع إليهم ، إنها أصوات متناغمة جدًا وأصوات أخرى لا تشبع . كيف تخرج هذه الأصوات الصاخبة من صدر ومنقار صغير ؟ تشكلت الآبيات بشكل عفوي في عقل يونس ، توهجت الدموع من عينيه من الفرح وبصوت محترق قليلاً قال :

جاء أيام الصيف مرة أخرى

قل يا عندليبي قل

أصبح كل الزهور زين

قل يا عندليبي قل

خرج الشتاء وجاء الربيع

أيقظ قلبك من الغفلة

تحولت الديار الى الجنة

قل يا عندليبي قل

مرت كل حياتي

تترك الورود وتذهب

مؤنس يونس حبيبه

قل يا عندليبي قل

كأن البلابل تستمع له ، عندما سكت بدأت البلابل في غناءها . نهض يونس وانغمس بين الأشجار وبدأ بجمع الحطب اليابس الذي وجده . بدأ بتقطيع بعض الأشجار اليابسة بفأسه ،كلما ينزل فأسه كان يقول « ياهو » . كان يخرج كلمة « ياهو » أضخم وأقوى من سابقتها ، كان يُسبح الله تعالى . يضع يونس الحطب المستقيم جانباً ، كان يشعر بالفرح كلما كثر الحطب . كان يتأسف ويشعر بحزن كبير إذا لمس فأسه الحاد ، شجيرة خضراء عن غير قصد ، وهو يقطع حطباً يابساً لأنه عرف بأن قطع الشجر الأخضر كقطع الرأس ، وأخذ الحطب المنحني للتكية . ليمسك يونس بيده النار ، وليقع يونس في داء غير قابل للشفاء ولكي لا يأخذ (تابدوك إمره) الحطب المنحني لتكيته . . . . إنه يريد ويفكر هكذا دائماً . غريب ، ولكنه شعور لا غنى عنه ،يختار الحطب المستقيم على شكل سهم من بين الحطب المنحني ، ويحمله على ظهره .

نفس الشيء لمدة خمس سنوات . على مدى خمس سنوات لم ينقص حبّه لشيخه وتكيته ، على العكس ، لقد ازداد وكبر . استقر

في قلبه مثل العشق . عندما لم يتمكن من رؤية شيخه ولم يتمكن من سماع صوته ، يكون ذلك عذاب جهنم بالنسبة له . لمدة خمس سنوات ، كان يحمل الحطب كل يوم تقريباً من الغابة إلى التكية دون توقف . قال (تابدوك إمره) : « يا ولدي كنت أعتقد أن التكية لن يكون بدون (أق دادا) ، الحمد لله لقد أرسلك ربي » . سوف يطير يونس إلى السماء من خجله وفرحته .كأن شيخه أمسكه مع (أق دادا) .

نظروا إلى يونس بعيون المحب وكان يعرف يونس أنه يحبهم أكثر . هذا حبل غير مرئي ، الالتفاف حول هذا الحبل أعطت الحياة للتكية . يقول (تابدوك إمره) على هذا « أخوة » . قال « نحن مثل أعضاء الجسم الواحد ، أَلَمُ أحدنا هو ألم جميعنا » .

لم يكن بإمكان يونس أن يأخذ الحطب المنحني إلى هذه الإخوة ، لأن قلبه لا يسمح بذلك .

صلى صلاة العصر بخشوع كبير فوق العشب الأخضر عندما انتهى رأى رجلاً قادماً من بين الأشجار . كان الرجل مسن ، جبهة عريضة ولحية طويلة بيضاء . كان على ظهره عباءة واسعة من القماش الرخيص وعلى رأسه عمامة كبيرة بيضاء . كانت العباءة والعمامة مغبرتين تحمل آثار رحلة طويلة .

رجل في الثمانينات من عمره ، يقرأ علامات الآلام الكبيرة

والفظيعة التي عاناه ، خصره ملتوي تماماً ،

في وجهه تجاعيد كثيرة ، أَورِدته بارزة في يديه الكبيرتين .

ولكن على الرغم من ذلك ،كان في عينيه توكل لانهائي وثني رقبة ، كان يوجد علامات القبول لأن المصائب تأتي من الله . كان عجوزاً لطيفاً ونظيفاً . عندما يراه المرء يدخل الدفء في داخله ويتذكر الله . حَيَّا يونس برفع عصاه الذي بيده قليلاً ، كان صوتاً مهتزاً عجوزاً متعباً . صوت مليىء بأسرار سنوات طويلة . . . أصبح يونس مثل المفلوج . كان هذا العجوز والد مليكه يحيى شلبي . . لو وقعت حيرة يونس على الغابة لأزال جميع الأشجار من جذورها . يبدو الأمر كأن يونس يفكر ويبحث عن مليكه في شوارع ساريكوي .اصفر ، ارتجف ، اندهش .لم يكن يفكر في مثل هذا اللقاء .ولكن يحيى شلبي هو رجل عجوز تفوح منه روائح ساريكوي . لم يكن يحيى شلبي قادراً على أن يعطي أي معنى لاستغراب الحطاب . جثم على الأرض ببطء .

تحدث قائلاً : « لم نسبب لك أزعاجاً يا بني أليس كذلك » . قال : « أردنا الجلوس والاستراحة قليلاً ، هل تأذن ؟ » .

كان ينظر يونس بدهشة الى صديق والده المقرب ،هذا الرجل الغالي من ساريكوي .

قال : « هل تطلب الإذن أيها الأب » . « تفضل ، اجلس ، يبدو

أنك متعب . . . من أين تأتي هكذا ؟ »

على الرغم من أن يحيى شلبي نظر بدقة ، إلا أنه لم يستطع التعرف عليه . لم يكن عيناه غريبتين ولكن . . . .

من أين سيجد ويتذكر عقله العجوز ؟

« يسمونني يحيى شلبي أيها الابن ، إنني قادم من ساريكوي . يوجد هنا شخص يسمى (تابدوك إمره) ، ويوجد غلام اسمه يوسف . يوسف من ساريكوي ، أريد رؤيته والتحدث معه . غادر يوسف هذه القرية منذ سنوات وبقيت أمه الفقيرة ، السيدة نفيسة مقعدة في الفراش الآن ، تقول يوسف ولا شيء آخر . خرجت للبحث عن يوسف بهذا العمر . توسلت أمه قائلة : أريد أن أراه بعيون الدنيا مرة أخرى يا يحيى شلبي . هل تكية (تابدوك) بعيدة ؟ هل بعيدة ؟ »

كبرت دهشة يونس أكثر من ذلك . لقد أرادت السيدة نفيسة ابنها يوسف . لم يكن يوسف موجودًا في التكية . لقد انفصل من التكية قبل خمس سنوات ولم يتمكن من رؤيته . حيث كان متشوقاً لرؤيته كثيراً . ربما جاء الى التكية من أجله أكثر من مجيئه الى (تابدوك إمره) . قال « واه ! » « سيعود يحيى شلبي الى ساريكوي فارغ اليدين . ستموت السيدة نفيسة دون رؤية ابنها يوسف . واه ! . . . . » .

اقلق يحيى شلبي صمت يونس لفترة طويلة ، ثم رفع رأسه ونظر مرة أخرى . ذَبُلَ وجه الحطاب من الألم كأنه يئن .

قال « هل حدث شيء ما يا بني ؟ » « لماذا تعكرت وتوقفت ؟ »

قال يونس : « لا شيء يا أبي » . ثم تحدث .

« تكية (تابدوك) ليست بعيدة ، إنها بعد هذا التل مسافة نصف ساعة . يسمونني (درويش تابدوك) . اسمي يونس . ولدت في ساريكوي ، هل عرفتموني ؟ »

كانت الدهشة واضحة على وجه يحيى شلبي هذه المرة . نظر الى الحطاب بدهشة بعينيه المحدقتين . نعم ، كان هذا ابن خضر العجوز . كان يونس صديق يوسف . كان فرح يحيى شلبي كبيراً . نهض وعانقه وسقط على كتفيه قطرتان كبيرتان من عيون يونس .

بعد فترة وجيزة ، جمع حطبه وحمله على ظهره . أخذ فأسه على يده وبدأ المشي . كبرت الظلال كثيراً وزاد أزيز الغابة . يمتد الطريق متعرجاً ويتقدم نحو المنحدر . سأل يحيى شلبي عن يوسف مرة أخرى . أخبر يونس بما حدث بالتفصيل . كان يحيى شلبي حزيناً عندما لم يجد يوسف في التكية . لم يكن هناك أحد يعرف مكان يوسف . كان سيعود يائساً . يومين أو ثلاثة أيام سيكون ضيف في التكية، سيعود إلى ساريكوي إذا كان في عمره بقية. سأل يونس عن ساريكوي . أخبر يحيى شلبي عن ساريكوي وجاءوا إلى التكية .

رآهم لأول مرة الأخت الكبيرة ، ثم سلطانة فاطمة ، اندهشا بشعور لم يعرفوه . كانت سلطانة فاطمة ترتجف .

أنزلهم يونس إلى أسفل الجدار وكان يوجد هناك حطب كثير ، كان الحطب مكدساً أكداساً مستقيمة مثل تلة صغيرة . نظر يحيى شلبي بدقة إلى الحطب وإلى يونس .

سأله قائلاً : « هل أنت أحضرت هذا الحطب يا يونس ؟ »

قال يونس : « نعم »

« كل ذلك ؟ »

« نعم كل ذلك ؟ »

« ألم يوجد حطب منحني في الغابة يا يونس ؟ إنهم جميعاً مستقيمة مثل السهم. . . »

أجاب يونس على سؤال يحيى شلبي وهو منحني الرأس . يبدو وكأن الصوت لم يكن صوت يونس ، يأتي مصفى منذ قرون ويخرج بنبرة لم يسمع من قبل. . . يبدو وكأنه صوت لن يضيع . لين ، محرج ، واضح. . .

قال : « ليس من اللائق أن يدخل الحطب المنحني إلى تكية (تابدوك إمره) أيها الأب » . « لا يمكن أن يدخل الحطب المنحني إلى تكية (تابدوك إمره) » .

جاء آنين من قلب يحيي شلبي وانهمرت الدموع من عينيه ، امتد وأمسك بيديه ، كان يريد تقبيلهما

شهد الحادث كل الدراويش التي كانوا في الساحة وتفاجاؤا . كان شيخ فان ينغلق على يدي يونس .

كانت السلطانة فاطمة قد رأتهم ، ركزت عينها على كومة الحطب وانتظرت ، وكان والدها الشيخ واقف أمام الباب . نادى على يونس ليأتي الى جانبه بإشارة واحدة . جاء يونس مع العجوز أمام (تابدوك إمره) ودخلوا إلى الداخل . كم أرادت السلطانة فاطمة رؤيتهم في الداخل ولكن هذا غير ممكن . قفزت إلى العتبة ومشت نحو حديقة الورود والتقت (نيجار) على الطريق . كان يوجد في حضن السيدة الشابة طفل صغير وسمين وأبيض ، كانت (نيجار) تحبه قائلة « يا ابني صالح » ودخلوا حديقة الورود . كان بشير يطعم شتلة الورد ،عندما رأ ى السلطانة فاطمة انزلق السكين وسقط من يده ،جثم على الأرض دون أن يراه أحد ، حنى رأسه وانتظر .

كانت السلطانة فاطمة تذهب للمرة الأولى إلى حديقة الورود منذ فترة طويلة ، كانت هذه عيد وعرس مبارك بالنسبة لبشير .كان قلبه يخفق بسرعة حتى كاد يخرج من صدره . كان من الممكن أن يذوب جسده الرقيق الضعيف ويصبح غائبًا . كان من الممكن أن يموت

بشير في هذا العرس . « آه . . . لماذا لا تتزوج السلطانة فاطمة ، لماذا لا تخرج من هنا . لماذا لا تحضن طفل مثل (نيجار) وتحبه . في ذلك الوقت ينطفىء نار الجمر الذي بداخل بشير ، ربما يضيء عيون بشير في ذلك الوقت ، ولا يكون كل حياته مظلماً هكذا .

ربما يكبر الجرح المتضخم بداخله ، وينتهي مرضه الذي يضخ الدم الأحمر . ينتهي هذا الخزي الذي لا يطاق والكرب والعذاب . تزوجت يعني أنها ماتت ، ويتحمل ألم الفراق . ربما لا يستطيع التحمل فيموت ، يموت ليرتاح . . . . . ست سنوات طويلة ، كل ثانية فيها كأنه قرن . لهذا السبب أبيض شعره ، لهذا السبب خَرَّ صدره . لا أحد استطاع أن يفهمه . . . . شهدت عيون السلطانة فاطمة كل شيء في الدنيا سواه .

« إلهي ليتني أموت ! ليتني لا أعيش أكثر ! . . . » .

تتحدث (نيجار) عن يونس مجدداً وتتحدث السلطانة فاطمة عن يونس . . . . . « لقد وضعت قدمك على أسفل الأرض يا يونس ، يا يونس لماذا خرجت وجئت إلى هنا ؟ كان لا يجلب الحطب المنحني الى التكية . هذا رياء ! تكبر . . . ياللأسف ! »

أمسك بشير السكين التي سقطت على الأرض وهزها إلى شتلة الورد الطازجة ، وقطعها . تجاهل الشوك الذي غز في يديه وهز

السكين بغضب وقطع عدداً من الورود . وكأن أسنانه تتكسر وعيناه حمراوتان . الآن ، كأنه سيصرخ وسوف يمشي ويذبح بسكينه السلطانة فاطمة أولاً ، ثم يونس ، ثم الجميع قطعاً قطعاً ، ولم يبق حجر فوق حجر ولا رأس فوق رأس في التكية . ثم يطعن الخنجر في قلبه ، ويموت ببطء إذا أراد ، فإنه قد يغطي جميع أنحاء العالم بسيول من دم جسمه ولا يبالي . ارتعش بصوت سلطانة فاطمة

كانت السلطانة فاطمة تنادي أمام رأسه وفي حضنها ولد (نيجار) ، كان الولد يضحك ويظهر الغمزات على خديه .

« أخي بشير ، هل من الممكن أعطاء هذا البرسيم الأحمر إلى صالح ؟ نضعه على صدريته ، يكون لائقاً » .

لم يتحرك بشير لفترة من الوقت من مكانه . كان يرتجف وكأنه مصاب بحمى . لقد احتارماذا سيفعل .

مد يده الى الورد بسرعة ، قطفه وأعطاها بفظاظة . امتلىء قلب السلطانة فاطمة بشعور غريب من الشفقة لهذه القسوة والفظاظة . من الواضح أن بشير مريض . لا يمكن أن يكون الإنسان قاسياً بهذا الشكل .

لقد ابتعدت بعد أن شكرت بصوت منخفض يكاد يسمع بصعوبة . حاول بشير الاستماع إلى أصوت أقدامها المبتعدة ، عندما اختفت الأصوات ، ضغط قبضته بانتقام ، انتشر غبار التراب من كف

يده ، كان بشير يضرب على التراب .

قام بعد أن نفض الغبار . هرعت رياح الثأر في داخله ، كانت الرياح تهب ويومض البرق في قلبه .

لم يعد بشير من دراويش (تابدوك إمره) ! وأخيراً بدأ يتحرك التنين الذي كان نائماً منذ سنوات ويفتح فمه المليء بألسنة رهيبة قدر استطاعته ، فم التنين مظلم مثل الكهف ، إذا بلع الدنيا بنفس واحد لا يشبع .

في عيون بشير برودة الثعبان وبصعوبة استطاع أن يسترد عافيته أمام النافورة ، غسل يده ووجهه وتنفس ، فكر جيداً ووضع الخطط . . . . ثم اتجه إلى غرفته وكأنه لم يحدث شيء .

في تلك الأثناء ، كان هناك محادثة رائعة في غرفة (تابدوك إمره) . أحضر درويش مصباحاً إلى الغرفة المظلمة وعلقه . ثم أشعل شمعة كبيرة قرب الموقد بحركات محترمة . أخذ الجرة وخرج مشياً إلى الوراء . ينير ضوء المصباح والشمعة غرفة كبيرة ويعطي جواً غريباً حوله ، يملىء جميع أشياء الغرفة برائحة العطر البنفسجي الذي يبعث الدفء على القلب . كان (تابدوك إمره) منحني الرأس راكعاً بدون حركة أمام النافذة على مقعد من خشب مغطاة بسجاد تركماني قديم ذو قيمة . تربع يحيى شلبي بالقرب من (تابدوك إمره) ، كما لو أنه يخاف على التنفس ، كأنه دخل عالماً

آخر . كانت لحيته البيضاء الطويلة ترتجف . كان قد لمس يونس المحزون اللين المزاج مثل طفل على طرف باب شيخ عظيم مطرز محفور . توحدت يداه في صدره وكانت ضائعة داخل العباءة ، كانت قبعته التي على رأسه تميل قليلاً إلى الجانب . كان هناك سعادة داخلية عميقة في وجهه . زاد ظل السنام قليلاً في الجانب الأيسر من الضوء الذي يأتي من الجانب الأيمن . لم يستطع رفع رأسه والنظر إلى وجه شيخه ، كأن عيون يونس ستتوهج وكأنه سينظر إلى الشمس . بصوت (تابدوك إمره) قفز من مكانه ، كان يريد الماء ، ركض إلى خارج وعاد وبيده جرة كبيرة وكأس من النحاس ، لقد حنى الركبة وملأ الماء ، كسر الصمت صوت الماء المتدفق من الجرة ، مد (تابدوك إمره) الكأس إلى ضيفه .

وضع يده اليمنى على صدره ، انتظر وقال : يا يحيى شلبي « تفضل وأشرب أنت أولاً » . قبل أن يضع الشيخ الكأس على شفتيه تدمدم دعاء استمر بضع ثواني ، ثم شرب الماء بثلاث شفات . أملأ يونس مرة ثانية وقدم على يحيى شلبي . عندما تم الانتهاء من فصل المياه ، فتح (تابدوك إمره) الحديث بصوت عميق ورقيق كما لو أنه سيغادر على الفور . يسأل من هو يحيى شلبي ، من أين أتى وأين هو ذاهب ، ثم يقول « إن الذي يبحث عن شيء حتماً سيجده ، شريطة أن لا يتخلى الإنسان عن البحث . « تحدث عن يونس لفترة . وقال بأنني أتوقع بأن يكون في الوقت الحالي بجوار سويوت أو بورصة إذا

لم يحدث شيء . كلما طال الحديث كان يونس يثمل كلما نما صوت الشيخ بطعم شراب العسل ، إنه دائماً هكذا . وفي هذه اللحظات كان يريد أن يبدأ بالذكر ويغوص في الذكر أمام الله دون أن يفكر بأي شيء . كان يسمع نفس التحركات الداخلية ، ولكنه استيقظ على صوت يحيى شلبي المتعب .

« لقد نشر ربي اسمك مثل الشعاع في العالم يا (تابدوك إمره) ، أصبح اسمك أسطورة ، الجميع يفتخر بك . يخلد الذي يأكل طعامك لمرة واحدة في التكية . يصبح عبدك وخادمك .

مَرَّ عليك يوسف مرة ولم يعد إلى قريته حتى الآن . هكذا هو يونس . . . . والده خضر العجوز صاحب القلب الغني ، أملاكه كثيرة لا حد له ، لا يريد أن يعرف يده اليسرى ما تعطيه اليد اليمنى . تعتقد أنه سيد ومالك أمر حتمي . يونس هو ابن هذا السيد أيها الشيخ العظيم . تألمت تفجع السيدة نفيسة وهي تقول يوسف ، ويتألم خضر العجوز أيضاً سراً وهو يقول يوسف .

ظهر في وجهه أن مرض ألم ابنه غيرقابل الشفاء ، ليس لديه القدرة على العمل . يقف الغربان على حقله . توقفت مياهه عن الجريان وطواحينه عن العمل . يا شيخي إن الملك العظيم يوشك أن ينتهي . أقول الآن إذا سمحت لنا فسوف نأخذ يونس ونذهب به إلى ساريكوي لكي يدير أملاكه وليمجد اسمك هناك ويجهز مأكل وملبس التكية ، وينشغل بذلك ، هذا ما أقوله . أنت تقول بإن

إسعاد شخص ما أفضل من أي عمل آخر . إذا رأى خضر العجوز ابنه سيضحك عيونه التي ضعفت نورها . السيدة نفيسة ربما تجد يوسف في يونس وسوف يكون لديها القليل من راحة البال . هل تحدثت طويلاً ؟ لا تؤاخذونني . وقال يحيى شلبي : ماذا تأمر الآن يا (تابدوك إمره) ؟ « ارتعش يونس كما لو أنه جالس على النار ، جف حلقه للحظة . اعتقد أن الصحراء العربية تحترق .

نظر إلى وجه شيخه .

لم يطرأ على (تابدوك إمره) أي تغيير ، بقي جالساً كما هو . ظهر على وجهه ابتسامة زائدة وعلى كل شعرة في لحيته فرحة كبيرة لا توصف . حدق بعينيه على يونس ونظر إليه وكانت عيون درويش تحترق بنيران الهجران وألم الفراق الذي لا يطاق . كأنه لو سمح له سينغلق على أقدام شيخه ولم يتركها مرة أخرى طوال حياته . جعل هذا الارتباط شكر (تابدوك إمره) بحراً وذكر ربه من قلبه وسجد أمامه مراراً . ثم سأل يونس بنفس الصوت الذي لم يتغير :

« يا يونس ابن سيد ! هل ليحيى شلبي ؟ لقد تركنا القرار لك الآن . قل وتحدث ! »

على الرغم من أن يحيى شلبي قد توقع الإجابة قليلاً ، إلا أنه انتظر بإثارة . كأن نبض قلبه العجوز مثل نبض قلب العصفور الصغير . كأن عيناه تحدقان ، احتار أين يضع يداه .

تحدث يونس بصوت ممزق قادم من أعماق روحه ، رَنَّ الصوت على جدران غرفة نظيفة ، كبيرة ومضئة ، إنها غطَّتْ وحاصرت الأشياء ، امتلأت الآذان بجمال لا ينسى ، ثم ارتفع الى السماء ذاب وانتهى . كما لو أن ذئاب وأسماك وشباب وعجائز العالم كلها ، قد صاغوا أذانهم ليستمعوا وليأخذوا نصيبهم من هذا الصوت .

وجدت روح الروح

لينهب روحي هذا

تجاوزت الأضرار الصعبة

لينهب دكاني

تعبت من الازدواجية

لحنت نغمة العشق

خدعت لملك الهموم

لينهب دوائي

قلت ما أجمل يونس

أكلت العسل والسكر

وجدت عسل العواسل

لينهب خليتي

عندما ختم يونس كلمته قال (تابدوك إمره) ليحى شلبي : « بلغ تحياتنا إلى ساريكوي » . « نرجو الرحمة للسيد خضر والسيدة نفيسة . مَرَّ هذا الدرويش من الربح والخسارة . سيقبل يد والده يوماً ما ولكن لم يأت ذلك اليوم بعد. . . » .

يحيى شلبي :

تحدث قائلاً : « أعرف » .

« لا فرق. . سواء مت أوتركت التكية التي لا يدخل الحطب المنحني من بابها ! ليتني كنت شابا يا (تابدوك إمره) ليتني كنت معه حتى آخر عمري . ولكن هناك حقوق وواجبات وعدته بالعودة إلى ساريكوي .

هل تأذن لي بالذهاب. . . . . ؟ »

يبدو أن يحيى شلبي قد نسي ظلام الليل وإضاءة النجوم .

مسك (تابدوك إمره) يداه المتجعدتان ودعا . قال « أنت ضيفنا هذا الليلة » . « تسافر غداً إن شاء الله .

استرح قليلاً وسيرون سريرك » .

ثم التفت الشيخ نحو يونس وكأنه يهمس : « غداً ستتعرض لمحنة جديدة يا يونس ، غداً الوقت المناسب للتحضر لهذه المحنة الجديدة » .

ارتجف يونس كثيراً حتى كاد أن يطير . . . . .

مسك يد يحيى شلبي وتوجه إلى دار الضيافة . قام بتسليم الرجل العجوز لهم ثم انسحب إلى غرفته . إلهي جل شأنك !سيتعرض عبدك الفقير لمحنة غداً . . . . صدر الأمر من شيخي . . . . يا يونس الفقير كيف سيتحمل قلبك هذه الفرحة ؟ »

كان هناك قمراً في اليوم الرابع عشر من الشهر يضيء السماء وكانت النجوم تغمز من بعيد بشكل غامض . بدأ يونس بالصلاة في غرفته المجاورة للمطبخ ، إذا قطع لحمه وجعل طعاماً للحيوانات فلن يسمع من شدة خشوعه . عينيه مغلقة للعالم ، مفتوحة لربه . لم يعد يونس يونساً وكل من يراه يذهل .

بعد الإنتهاء من صلاته وبدون أن يرى بشير الذي كان يراقبه في زاوية الغرفة بصوت منخفض وعيون مليئة بالدموع دعا قائلاً :

« يا رب اجعلني معجباً بك ، وأحترق من عشقك . أينما نظرت ، دعني أراك وأذكرك . تذكر أفعالك بقدرتك دائماً يا رب . . . . أنت مرئي للعيون الذين يعرفون رؤيتك ، أريدك يا رب . استغنيت عن حياتي وبدني وكل شيء ، أريدك أنت فقط . لن ارتوي لو عبرت البحار السبعة وشربت مياه سبعين نهراً . أنا بحاجة إلى شرابك ، يا رب لكي ارتوي . خذ أنانيتي ولا تملىء قلبي غير عشقك ، ثم دعني أموت بهذا الحب . يا كريم إن يونس

عبدك الفقير... أحزانه ملئت السماء ،صراخه أذاب الحجر والجبل . الأعمى هوالذي لا يراك ، اللهم لا تجعلني منهم ، اللهم لا تجعلني أعمى.....

سمع بشير كل الدعاء ورأى عيون يونس المغلقة للدنيا . ازدادت النار بداخله إلى حد لا يطاق .كان يحسده ، سن الانتقام في أقذر الأماكن في قلبه . كان يشعر بأنه يصغر كلما كبر يونس وبأنه لا شيء بوجود يونس .

كانت نفيسة تعض بدنها بأسنانها الدموية ، كان الشيطان يطبل بالطبول والتنك قرب أذنها ، كل أشواك الورود تغز في روحها وتنزف . منكرة وسيئة . حاولت دائمًا أن تكون جيداً . ماذا استفادت ؟ ماذا استفادت سوى الكراهية والاحتقار ؟ ليتفضل ويصرخ عفريتها الداخلي بقدر ما يريد . ليس هناك حاجة لإسكاته بعد الآن...جنة ، جهنم ، لتحترق بدون توقف ، ليحصل ما يحصل بعد الآن . أغمضت عينياها بإحكام وغاصت في النوم مع ألف كابوس .

* * *

جلسوا على الحجر الأحمر الطويل أمام حمام التكية ظهراً ، دخلت قافلة جمال الصغيرة ، كان يقرع الجلجل على رقبة الجمل الكبير في المقدمة في الهواء الدافىء والخانق ، وكان رئيس القافلة رجل مكتنز ، طويل الشعر ، وصغير . أوقف قافلته بعد أن جثم جمله على حافة الماء وجثمت الحيوانات الأخرى أيضاً على الأرض

من تعب رحلة طويلة . ألقى الرجل سلاماً طويلاً لأولئك الذين كانوا جالسين أمام الحمام واتجه إلى دار الضيافة مع درويش عجوز الذي جاء إليه راكضاً ، وتبعه المسافرون الآخرون ، كانت ملابسهم مغبرة بالتراب ، ومعهم امرأة مسنة ، اثنين من الشباب أمسكا من ذراعيها يأخذونها بصعوبة . كانت الرغوة في أفواه الجمال تتبخر من شدة حرارة الصيف .نظر الدراويش الجالسون أمام الحمام بدقة إلى الجمال ثم استمروا بالحديث .

تحدثت (تللاك ادريس آغا) بعد السعال الجاف .

« من هذا يونس . . . حتى أن (تابدوك إمره) عندما يتحدث عنه يتغير شكله » .

« تجهز للمحنة . . . . . الآن سينتهي اليوم الخامس ! »

« هل تستطيع التحمل ؟ »

« بالطبع سوف يتحمل ، إذا قبلت الروح الآلام سلفاً » .

« ما هذ الكلام ؟ يونس هوحطاب ! »

« خمس سنوات لم يجلب حطباً منحنياً واحداً ! »

« هنا الحطب إنهم جميعاً مثل السهم . . . » .

« ويا تلك الابتسامة على وجهه ، وهذا القرب . . . » .

« أنا دائما أريد أن أحضن وأحب من قلبي » .

« إنه ابن سيد » .

« قال العجوز الذي جاء من قريته » .

« لديه أموال وممتلكات لا تحصى ، جاء وترك كل شيء » .

« الدروشة ليست سهلاً . . . » .

« الدروشة هي التخلص من الأنانية » .

« حرق النفس في النار هوحرق من دون قتل . . . » .

« دائماً ينزل للشيطان لطمة لاتنتهي » .

« لماذا يونس منفصل عن كل واحد منا ، لماذا هو مختلف ؟ » .

« لن يكون تظاهراً ما يفعله ، احترق إذا اختلط الرياء في عمله ! » .

« يقولون لهذا غيبة !يجب السكوت » .

« هل صحيح ما يقال بأن قلب السلطانة فاطمة متعلق بيونس ، وهدف يونس هو الزواج منها . ولهذا السبب أعطى كل جهده للعمل ؟ »

« إن الله عزوجل يعرف ما بداخل الإنسان ، أما العبد يرى الظاهر فقط » .

« هكذا ، هكذا . وإلا لا أحد يستطيع أحد أن يتصرف مثله . ولكن أذن (تابدوك إمره) لا يسمع هذا الكلام أبداً ! »

« هل يسمع ولكنه يتظاهر بعدم السماع ؟ »

« نعم ، هكذا. . . » .

« نقول لهذا غيبة ، توقفوا عن الغيبة ، ولا تأكلوا لحم أخيكم الميت . انظر إلى هذه القافلة ، كم هو كبيرهذا الجمل . لا يوجد مثل هذا الحجم الكبير من الجمل في هذه الأماكن ، هل أحضر من عربستان ؟ »

« لا تغير الكلام الآن ، نحن نتحدث عن يونس ، اترك التحدث عن القافلة ،الرجل يفعل المستحيل من أجل السلطانة فاطمة » . حتى أنه تحضَّر للمحنة .

« أخي بشير ماذا تقول أنت ؟ هل جاء الأمر من (تابدوك إمره) أم أن الدرويش حضَّر نفسه للمحنة ؟

يستمر الحديث بهذا الشكل .ابتعد إدريس آغا وهو يقول : لا حول ولا قوة إلا بالله . نظر إليَّ بانزعاج وغضب . لم يستطع أن يقول « كيف تتعلق بيونس وعيونك أنت لا تفارق غرفة السلطانة فاطمة . تبا لك » .

لقد كثرما قيل أمام الحمام ، وانتشر من أذن إلى أذن ومن لسان إلى لسان . كان الجميع يقول شيئاً ما . كانت الأخت الكبيرة حزينة ، والسلطانة فاطمة تئن من شدة الحزن . قد مضى على مصيبة

يونس أكثر من شهر . بقي أربع أيام على خروجه من حجرته . لم يكن يسمع شيئاً ، ولم يرى شيئاً . تأتي القوافل وتذهب ، يأتي الضيوف ويذهبون ، تستمر الحياة بدون انقطاع . لم يكن يونس يدرك ما يفعله بشير . كان بشير يرمي كلاماً آخر كل يوم ويستمع على صداه حتى المساء . الكلام السَّيِّءُ تتجول مثل الذئب الهائج ، وتحرق . كان أهل الفصاحة واللغة يتأسفون ويقعون في عجز بسبب عدم إيجاد مصدر الكلمة . لقد اهتزت التكية بشكل غير مسبوق . كان الحبل على وشك الانقطاع يمكن أن ينقطع بأي لحظة . لسبب ما لم يكن هناك تغيير في وجه (تابدوك إمره) . ومع ذلك كان يُعَلِّمُ الصبر في دروسه المريحة والهادئة . كان يشرح الكلمة ، كان يشرح القلب . كانت آذان بشير فقط مغلقة لا يسمع أحاديثه . مرضت الأخت الكبيرة وأصبحت طريحة الفراش .

قبل خروج يونس من حجرته بيوم واحد حدث أمر غير متوقع في التكية . لقد يبست حديقة الورود التي كان بشير مسؤولاً عنها . ذبلت الورود والأزهار . كانت الحشرات السوداء الصغيرة تنتشر في الحديقة تقضم الأوراق ، تأكلها وتذيبها ، بشكل متواصل حتى كانت تأكل الأشواك . حتى العجائر الكبيرة في السن لم تستطع أن تجد الحل . كان على وجه بشير ابتسامة وقحة لا تزول . لم يستطع أحد أن يعطي معنى لهذه الابتسامة الوقحة . أصبحت حديقة الورود في التكية عارية . . . تحولت إلى شتاء .

إضافة إلى ذلك فإن المياه التي أحضرها الشيخ (تابدوك إمره) من الجهة المقابلة تناقصت ، تناقصت كثيراً ، كأنها ستنقطع ولن تتدفق مرة أخرى. . .التصقت الارتباطات على وجه الدراويش واضطربوا . كان مرض الأخت الكبيرة في ازدياد . لم تتحرك السلطانة فاطمة من فوق رأس الأخت الكبيرة . كانت النساء تخرجن وتدخلن إلى الغرفة . كانت تخرج جملة « هل هذا غضب يا الله ؟ أم اختبار صعب ؟ » من شفاه الأخت الكبيرة المصفرة والضعيفة . تنظر إلى العيون الكبيرة التي ترى أن الشفاء بلسماً ولا تشبع بالنظر ، ولكن كلما تنظر تشعر بألم معين . سألت لماذا لم يحزن بشير أبداً على حديقة الورود. .حصل على جواب « هو حزين ولكن غير معروف » . لم يصدق . فكر في البقع التي على جبين بشير ، كانت البقع سوداء قاتمة . سألت عن يونس قالوا « إنه سيخرج من حجرته غداً » ، لقد تعجبت وفرحت قائلة » هل أكمل أربعين يوماً » ؟ .

* * *

كان يونس يذكر الله في حجرة ، صغيرة سوداء ، دافئة يدخل ضوء الشمس عبر ثقب كراحة اليد الموجودة في قبتها . أصبح وجهه نحيلاً ، اختلط شعره مع ذقنه ، يسبح الله وأكتافه وأشداقه بارزة . أربعون يوماً. . . أربعين يوماً مرت مع قليل من الماء وقليل من التمر . يضع الماء والتمر من تحت يد الباب ، ثم يذهب كأنه لم

يأت .كان يونس يتوضأ ويغمض عينيه ثم يقف للدعاء . يقع شيء في داخله على شكل قوالب ، كما لو أخذ كل دماء جسده المتخثرة السوداء . من يعرف كم ألف مرة قال « يا الله » ، « يا حنان يا منان » ، من يعرف كم ألف مرة « وحَّدَ الله » ، وهو راكع أو ساجد في حجرته المنخفضة المظلمة في الليالي الطويلة المظلمة ؟ كان قد فكر بالدنيا والحياة لساعات طويلة . لقد فكر بالنار وبالأنهار التي تشق طريقها ، وبالقمر الذي ينشق الى شقين بإشارة واحدة. . . . . وبالنجوم وبالجسيمات التي لا تحصى ، وبنفسه وبروحه وبإنسانيته ، ثم فكر بالله عزوجل . وقع في البحر وكأنه يريد أن يتخلص . فهم جيداً ما يعنيه العطش والجوع بعد الصوم الطويل . ضرب وأسكت النفس الجشعة الذي ترفرف ولا تشبع . بعد ثلاثة أيام من الصيام اندفع بنفسه وجسده نحو جرة الماء الموجودة أمام الباب مثل الوحش ، ولكنه لم يشرب ، عندما أوقف العطش صوته ، حتى شرب القليل من الرشفات . أعاد التمر الذي جلبتها الأيدي الممتدة من وراء الباب . فكر يونس بالقبر في هذه الغرفة الضيقة المظلمة ثم تألم وبكى. . . يبدو أنه نسي الحياة ، ليس في دنياه سماء ولا شمس ، ولكن يوجد بداخله نور أكثر إشراقاً من أشعة الشمس مشرقة .في عيون يونس تتطاير الأحلام ، كان يرى الأحلام التي لا يمكن أن نعرفها أو نتصورها . كان عندما يصبح يرى زنزانته حديقة من الورود ، كأن لم يتذكر حتى شيخه الذي كان عبداً

له . كل شيء في حياته كان مليئاً بعشق جميل لا يمكن تصوره .لقد كانت خلاياه تتجدد يومياً . كانت الجدران الحجرية الباردة التي كان يضع رأسه عليها أثناء نومه لفترة قصيرة أكثر نعومة من ريش العصفور ، وكانت الحصيرة القديمة المتساقط قشها التي يجلس عليها ثميناً وناعماً مثل السجاد العجمي . أصبح كل رشفة من الماء التي شربه شراب عسل . كأنه يعيش حياته في عالم شاسع وطويل على امتداد النظر .

لكن ما يقوله كل يوم « انتهى. . . » يرى بأنه لم يبدأ أي شيء بعد ، وكان يفهم بأنه لم يصل إلى بداية الطريق !كانت الليلة الأخيرة . رأى وجهاً في النافذة الصغيرة فوق رأسه في القبة . كان ذلك وجه امرأة ساحرة وجميلة جداً ! وجه امرأة مثل تمثال اللؤلؤ ، فيه الأنوثة وفي أسنانها البيضاء لمعان الفضة . همست قائلة « افتح الباب يايونس ، دعني أدخل ! . . » كأن عقل يونس خرج من رأسه ، وتسارعت دورة الدم في عروقه . أخيراً علم بأن المرأة هي مليكة . عندها بدأ يرتعش . حيث كانت مليكة ميتة ، مليكة غير موجودة . فجأة ذهب إلى النافذة مثل البرق . كان يصرخ بأعلى صوته . « اذهبي أيتها النفس الخائنة ! أنت لست مليكة ، أيتها المرأة أنت شيطانة ! أنت عفريتة ، لا تستطيع الدخول إلى حجرتي ولم أسمح لك بالدخول ! ستشرق الشمس في الصباح ، هل تريدين أن تدمرينني وتنهينني قبل ساعات من الفجر أيتها النفس الخائنة ؟ اذهبي ! »

كانت عيون مليكة تلمع بشغف من بين أصابعها المفتوحة . لم

تفاجأ أبدًا بغضب يونس . مدت يداها . قفز يونس إلى الوراء كما لو كان قد رأى ثعباناً ، استند على الباب . كانت أيدي المرأة البيضاء والناعمة تقترب . ، حتى أوشكت أن تلمسه ، لقد توقفت نبضات قلب يونس وبكل قوته صرخ للمرة الأخيرة قائلاً « لا إله إلا الله ! »

بدأت يدا المرأة البيضاء والمستقيمة بالتجعد والانهيار . كان هناك رائحة حريق في الحجرة ، تحجرت يده وانكمشت وانسحب إلى الخلف من الخوف ، وكان يونس قد غرق في عرق أخضر . بدأ أذان الفجر من مسجد التكية .

تنفس يونس نفساً عميقاً وسجد . عندما فتح (تابدوك إمره) الباب وجد يونس هكذا ، ووضع ببطء الشمعة التي كانت بيده جانباً ثم مسك من كتف الدرويش الضعيف ، رفعه بحذر ونظر إليه وكان يوجد في لحية يونس القليل من الشيب .

همس قائلاً « مبارك لك محنتك يا يونس الحطاب ! »

« لقد فزت اللحظة الأولى للجهاد العظيم ، مبارك عليك . . . . . والآن قم لدي ما أقوله لك . . . » لم يفهم يونس في البداية أن حجرته قد امتلأت فجأة بالحياة . نظر بعيون مستغربة إلى شيخه ثم حنى رأسه إلى الأمام وتحركت شفاهه ، خرج من حجرة المحنة بعد أن نهض ببطء مثل رجل يبلغ من العمر مائة عام ثم دخلوا إلى غرفة (تابدوك إمره) .

امتد وأخذ المسبحة الخضراء الغامقة الطويلة من فوق عباءة الشيخ ووضعها على صدر يونس ، ثم أمسك وجهه بيديه وانتظر لفترة من الوقت . كان حديثه بعد فترة طويلة من الصمت . . .

« يا يونس . . . . أعطيناك ابنتنا السلطانة فاطمة . الزواج سنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . الزواج فيه البركة والسعادة . إذا أراد الشخص أن يهزم نفسه ، فسوف يهزم هكذا . أردنا أن يعلو مقامك أكثر فأكثر ، أردنا ابنتنا أن تستحق ذلك . لقد انتُظَرتْك منذ ولادتها ، وكان ربنا قد ألهمنا بمجيئك ، لم يكن انتظارنا عبثاً ، لقد أصبحت صهرنا . الحق فوق كل شيء آخر . اذهب (إدريس آغا) بانتظارك . . . استحم حتى تصبح نظافتك من الخارج مثل نظافتك من الداخل » .

عندما خرج يونس من الحمام ، انتشر الخبر ، وقد اهتزت التكية كلها بسبب هذه الأخبار . لقد أعطى (تابدوك إمره) ابنته إلى يونس الحطاب . كان هناك عرس وحفل زفاف قريباً .

كأن بشير قد سقط في البئر الرهيب الذي حفره من أجل يونس . . . . يتخبط ويتدحرج ولا يستطع الخروج .

تزوج يونس من السلطانة فاطمة في بداية أيلول ، كانت الأوراق صفراء قليلاً ، والمروج قد ذبلت واصفرت . جاء (تابدوك إمره) إلى حديقة الورود في صباح يوم الزفاف ، دعا في الزاوية وعاد إلى

غرفته دون الظهور لأي شخص . في اليوم التالي ظهرت الحيوية في حديقة الورود . بدأ الأمر كما لو أن جميع الحشرات المنتشرة في الحديقة قد ماتوا . تم استبدال ركود التكية بالتألق والفرح . كانت عيون الأخت الكبيرة تضحك . كأن أجنحة السعادة قدعلقت بأذرع السلطانة فاطمة تدور مثل العصافير الصغيرة وجاء الدم إلى خدودها الصفراء . خرج بشير مثل الظل من الغرفة المجاورة للمطبخ بعد ثلاثة أيام من الزفاف دون أن يلاحظه أحد . لقد ترك بشير زاحفاً مثل الثعبان دون أن يودع أحد . في أمسية خريف عام ١٢٩٦ ، عندما كان الطقس على وشك أن يظلم ، كان يونس يضع الحطب الذي كان على ظهره في نفس المكان لسنوات طويلة . كانت الأخت الكبيرة بجانب صهرها تراقبه . وفجأة كانت تفكر باليوم الذي جاء فيه يونس الى التكية في صباح يوم قبل سنوات عديدة .

كان يونس في ذلك الزمان قوياً وشاباً ، لم تشب لحيته هكذا ولم يكن شعره قد بهت ، ولكنه يعلم جيداً أن في وجه الدرويش لم يكن نور هكذا ، ولم تكن هذه السعادة الداخلية وهذا السكون الذي ليس له مثيل موجود فيه أيضاً .

كانت كل سنة قد مرت عليه في مركز العلم قد نحتته أكثر وجعلته يصبح نحيلاً ، وأعطته شيئاً آخر وقرابة أكثر ، كان قد أصبح عنواناً للخدمة والصداقة من الآن ، كان لا يؤذي النملة حتى وينظر إلى من يرفع عليه خنجراً بعين المرحمة .

لم يكن أحد وحتى الشيخ (تابدوك إمره) قد سكر مثله ، ومليء داخله بالعشق . وكأنه غير موجود أبداً ولكنه يملأ كل الأماكن .

كثيراً ما شهدت الأخت الكبيرة الأشياء التي يلمسها يونس كيف تتجدد وتصبح مباركة ، كان هذا الرجل روحاً لا يمكن شرحها ، عريس ماذا ؟ كان أكثر من الابن الحقيقي ، كان شخصاً محارباً بقدر يمكن أن يفدى له بالأرواح ، كان هو شخصاً حمل أثقل الأحمال دون يشتكي لمرة واحدة ، كان بحراً من الصبر ومن التوكل ومن الفطنة .

وله عيون محبة دائماً ، ودافئة وقريبة وصدوقة . عبارة عن نور ، وجبين عريض سقطت عليه غرة من شعره .

يونس . . . الذي ليست هناك كلمات تكفي لشرحه ، الكل يحكي ويتحدثون عنه . يونس إن كان غائباً أو حاضراً . . . وكأن اسم (تابدوك إمره) بقي في الخلف قليلاً .

جميع من يأتي ويذهب يريد أولاً أن يرى يونس ويتحدث معه ، والشيخ فرح من ذلك بشكل لا يوصف ، لقد كانت نعمة عظيمة أن يحترم الجميع هذا الدرويش التركماني الذي قطع طينته وكبره بجانب ركبته وأطعمه وزاد على شخصيته عادات وأفعال لقد كان شكر هذه النعمة بلا حدود ، وزوجته الأخت الكبيرة تراه في دائرة التواضع هذه أكبر وقوياً أكثر .

« يا ربي هل أنا أسعد نساء العالم ، أصبحت زوجة (تابدوك) ، وحماة يونس ، وأم السلطانة فاطمة ، ربي ! أنا لا أستطيع أن أوفي نبذة من حقي لك حتى لو لم أرفع رأسي من السجود لك . . . » .

وعندما كانت هذه التفكيرات تجري بسرعة العقل كبرت عيون الأخت الكبرى كحجر كبير عندما رأت شيئاً لا يمكن أن يحدث .

كانت وكأن هناك شموساً ولدت في وجه يونس ، كان يلمع ، وعيناه نصف مغلقتان ، وشفاهه متذمرة ، ويداه القويتان والعظميتان تحاولان فك الحبل الخشبي . ولكن هذا ليس حبلاً يا هذا ! آه ! هذا ليس حبلاً ! أفعى سوداء بطول كتفيه الإثنين ، أفعى سوداء التفت فوق الأخشاب برأسها وبذيلها . . . ويونس يحاول فك عقدتها ظنها أنها حبل ، والأفعى السوداء نائمة ومحزونة يا ربي ! لا حركة ولا هزة ، ساكنة كحبل .

وعندما فك يونس الأفعى وضعها جانباً قائلاً البسملة ، واختفت الأفعى بين الأعشاب بلطف ، صعقت الأخت الكبرى ، وركضت كمُهْر جَنَّ إلى غرفة (تابدوك إمره) ، كانت تركض وهي تعض على شفاهها كي لا تصرخ وكي لا تشرح ما رأته لكل العالم .

نظر (تابدوك إمره) إلى زوجته التي دخلت إلى الداخل كصاعقة من السماء أولاً باستغراب ثم بخجل ثم بقلق . ماذا كان هناك ؟ لماذا شَعْر الأخت الكبرى منفرد هكذا ؟ وعيونها قد قفزت من مكانها ؟

ماذا كان يحدث ؟ . . . شرحت المرأة العجوز ما رأت وهي
وتعطي أنفاساً كبيرة .

كانت تبكي وتقول :

« أحضر الأخشاب مع أفعى ملتفة حولهم ! رأيتها ب
واختفت الأفعى عندما فُكت عقدتها ! هذه كرامة يا (تابدوك
هذه كرامة ! » .

كان يسقط من عيونها دمع الحب والإعجاب العظيم
(تابدوك إمره) ، وكأنه قال وهو يذهب ليسجد « هل امتلأ
عرأيه قد امتلأ ؟ لم تعلم الأخت الكبرى .

وعندما رفع زوجها رأسه من السجدة خجل من التوتر ال
به قبل قليل ، فوضع عينيه على الأرض وانتظر . تمتم الشيخ

« نادي يونس إلى جانبنا يا فاتنة » وكان في صوته
الأطفال ، سعادة النجاح ، وكأنه ثم خجل من قوله :
لا توقفي يا فاتنة ، لا تناديه ، فلنذهب نحن أفضل . . .
وخرجوا .

طرق (تابدوك إمره) باب بيت يونس الصغير مرتين أو
فجاءت من الداخل أصوات أقدام مستعجلة ، فتح الباب م
العالي وظهر يونس ، وكانت خلفه تماماً السلطانة فاطمة ،

مع أن الشيخ أبوهما والأخت الكبرى أمهما قد جاؤوا إ
بيتهم . فاحتاروا بماذا يجب عليهم فعله . جمع نفسه يو
وجعلهم يتفضلون للداخل ، قبل يدي الشيخ الممـ
ومرات ويتمتم : « لقد أتعب نفسه شيخي . . . لو أنّ
لجئنا مسرعين » .

كان النور الذي يفديه يونس يشع في عيون (تا
الباسمة ، كان يريد أن لا يكون القنديل موجوداً ، و
(إمره) الذي كالقمر ينير الظلام ، جثى يونس على ركبـ
بجانب أقدام الشيخ ، والأخت الكبرى جلست بعيـ
السلطانة فاطمة على الديوان .

تحدثوا لمدة طويلة ، وكل ما تحدث (تابدوك إمره)
تغير واختلف أكثر ، وكان يحدث به ما حدث في نهاية
وفي نهاية الكلام أغلق عينيه وانتظر . ربما انتظار سيـ
آخر .

لم يكن أحد يفكر بغير هذا ، وعندما فتح الشيخ عينيه
الغرفة أنوار وأنوار ، وملئت الأنحاء الأربعة رائحة لا يم
عنهـا . . . وسحبـوا تلـك الـرائحـة إلـى أكبـادهـم ، أخـ
عصا(تابدوك إمره) التي كان قد وضعها في زاوية .

وطلب من يونس المسبحة الخضراء الطويلة التي

رقبته عندما أعطاه السلطانة فاطمة . كان الاستغراب يكبر ، أخرج يونس من حزامه المسبحة التي لم ينزلها من يده لسنوات طويلة ومدها إلى الشيخ .

شم (تابدوك إمره) المسبحة ووضعها على حضنه ، ثم قام ببطء وتمتم : « لقد امتلأ الوقت » ثم توقفت تمتمه بعد قليل وتحولت إلى صوت بتدفق المياه : « لقد امتلأ الوقت يا يونس ! لقد ظهر طريقك الآن ، كل الأماكن تحتاج إلى إرشادك ، والأيدي قد امتدت للسماء لتقول آمين لدعائك ، اذهب وصَلِّ .

لقد خُتم وقتك في مركز العلم الخاص بنا ، من يحضر حطباً ويربط بها أفعى ليستخدمها كحبل لا يمكن أن نحكم عليه .

رأسان يكثران على جذع واحد ، فلا يجلس شخصان على بريد ، فالكلام ليس لنا الآن ، يوسف هو حاجبك الخاص يا يونس . . . أعط أذنك لي واستمع جيداً ليفيدك في عملك ، نحن شرحنا هذا طوال السنوات الطويلة مع حركتنا لدراويشنا . . . لقد كان كلام يوسف خاصاً ، ويبحث عنه ويوقف عنده يا يونس . . . استمع وانظر :

« لن يستطيع الجسد أن يدخل إلى طريق الصواب قبل أن يمسح رأس نفسه وهواه ، **هذه الدنيا عبارة عن زنزانة للمسلم ، فلا تبحث عن السعادة في الزنزانة بل صحح قلبك ، ولا تصرف هذا الزمن**

الماضي في الفراغ ، فالأيام التي تمضي لن تعود مجدداً ، إذا أرسل الناس الذين يسافرون من ديار إلى ديار أشياءهم مسبقاً سيكونون قد أنجزوا عملهم أفضل ، إذا أردت كن سيداً أو عبداً ، لن تبقى هنا لوقت كثير .

الموت ينتظرك في الطريق .

إذا أردت عش ألف عام أو ثمانية عشر ستموت يوماً ما ، حاول أن تترك أثراً جيداً ، مهما علا رأسك بالعظمة والشهرة سيكون المكان الذي ستدخل فيه في النهاية هو تحت التراب الأسود .

هذه الدنيا عبارة عن فخ متين ، لا تقع في الفخ ، فسيحرقونك بشدة عندها .

لا يبقى سند لمن يقول « أنا » ومن يريد الارتفاع للسماء ، لن تنفع معه جيوش مسلحة .

لا يمكن تصديق هذه الدنيا الجافة ، فهي دوارة ، وطبيعتها عدم الوفاء ، تتحرك بغير اتزان .

الآن يجب على العبد أن يتم عبادته بشكل تام ليحصل على التوفيق الرباني . وإذا نال العبد التوفيق الرباني فهذا يعني أن كل أبواب الخير فتحت له .

وإذا تجددت النفس والهوى سيموت القلب ، وإذا مات القلب ستهمل العبادة يا ولدي ، شد من عزيمتك ، وأبعد نفسك عن

جهنم ، واصنع الخير دائماً فيحميك الرب . ولا تبحث عن مصلحتك ، فكر دائماً في مصلحة الشعب ، فمنفعتك داخل منفعة الشعب .

إذا صبرت تكون المحنة نعمة لك : وإذا شكرت على النعمة ستزداد هذه النعمة ، اعلم هذا جيداً » .

لو نطيل الكلام يا يونس لن تكفيه بحر ولا جبل ، وأفضل الكلام هو جوهره . . . انظر الآن جيداً . . . لقد حملنا هذه العصا لسنوات طويلة ، هي صدقة سرنا ، وصديقة روحنا ، سآخذها وأرميها للسماء ، أين ما تجدها اذهب لهناك واسكن ، ابحث حتى تجدها . . . » .

توجه (تابدوك إمره) بحركات ثقيلة إلى الباب ، ومشى يونس خلفه كظلٍّ ، صامتاً وعيناه مليئة بالدموع .

كانت هناك نجوم تضيء السماء الكحلية ، وأصوات بعيدة تطن في أذنه ، وكان كل العالم قد نام ، وقمر لامع وكبير وفضي قد أزيح للغرب . . .

رمى (تابدوك إمره) بانتفاضة عصاه إلى السماء ، جاء أولاً صوت صفير ، ثم رأوا العصا التي تختفي في عمق السماوات كصاعقة ، ذهبت واختفت وكأنها لن تقع أبداً ، جثى (تابدوك إمره) على ركبتيه على عتبة الباب ، وحتى يونس لم يستطع الوقوف

على رجليه ، كأن مفاصل ركبه قد حلت ، كانت قد بدأت الحيرة في روحه ، وأمام عينيه يظلم ورأسه يصبح ثقيلاً على جسده .

كانت الأخت الكبرى والسلطانة فاطمة قد تنحتا جانباً ، وفي آذاهما صوت الصفير ذلك ، وفي أعينهما تلك العصا التي طارت وذهبت .

كانت وجوههم الأربعة قد اصفرت كشمعة عسلية ، وكأن أربعتهم قد استيقظوا حديثاً من نوم عميق وطويل ، وينظرون للدنيا بأعين مستغربة .

كانت الشمعة التي على الشمعدان قد ذابت ، وكانت رائحة زيت خفيفة تمتلىء في الغرفة .

ولم يبقى أي طاقة في أحدهم ليقوم ويغير الشمعة . . .

* * *

أقيم مجلس المحاربين ، جثا كل دراويش مركز العلم على ركبهم وجلسوا ، كان هناك دراويش وأصدقاء حقًّا ، وكأنهم أخذوا أمراً من الجوار وتحدثوا .

كانت غرفة (تابدوك إمره) قد اشتاقت لمثل هذا المجلس منذ شهور .

كان هناك اختلاف خارق فوق الأرض ، وحيوية لا يمكن الاكتفاء منها .

وكأن نوراً سقط على كل طرق مركز العلم ، وكأن هناك آلاف وملايين مرآة تعكس ذات الصورة آلاف وملايين مرة وتزيدها ، فتُفتن العين وتفتن الأذن التي تسمع .

كانت القناديل تشتعل وتشع في غرفة الشيخ وكأنها ضوء الصباح ، كانت تأتي كل فينة وأخرى أصوات ملابسهم ، وأصوات تسبيح خفيفة .

ولكن آذانهم كانت وكأنها لم تترك مجالاً لتسمع صوت الدنيا . . .

كان يونس غوياندي قد تربع وجلس فوق الوسادة السميكة ، قد وصل قبل قليل إلى مركز العلم وقُبل ، وقبّل يد (تابدوك إمره) وانتقل إلى مكانه .

كان في عينيه الصغيرة الخضراء المائلة تعب سنوات طويلة ، وآثار الهموم التي في داخله في جبينه المتجعد .

كانت القبعة التي على رأسه تغطي رأسه تماماً ، وقطعة قماش تشد على رجليه النحيلتين بقدر خشبة ، ووشاحه الأحمر الذي اهترىء من الارتداء ، وكان يظهر راعياً فقيراً أكثر بجواربه الصوفية السميكة التي برجليه .

وفي يديه الصغيرتين والقاسيتين مسبحة من حجر القهربار ، وكان يخرج من صدره المستقيم كالخشب خرخرة غير مفهومة . . .

وفي وجهه الطويل لحية سوداء طويلة وكأنها صنعت حديثاً ، وأنف طويل منحني . كان يونس غوياندي ذو الخدود النحيلة والذي يُخاف منه من يراه لأول نظرة .

كان شخصاً يُحب بعد فترة قليلة ، ويصبح صديقاً لا يمكن التخلي عنه ، وروحاً لا يمكن ترك كيانها ، منفصلاً عن الجميع ومختلفاً عن الجميع .

يتجول في الجبال والتلال كمتصوف ، وينشد أناشيد خارجة من صميم القلب .

كان يقال له يتيم انهمرت دموعه على عتبة الأب (باراك) ومن خدمه لسنوات طويلة . لم يكن لديه أحد أبداً على وجه الأرض ، كان يقال أنه ذهب وجاء إلى البزانس عدة مرات ، وتجول بكلتا يديه ورأى كثيراً من الأشياء وعرف الكثير .

كان كل المتصوفين يعرفونه ، وربما كان هذا سبب نظر جميع الدراويش إليه بدقة وخفية . . .

وكان يونس الذي قال له الشيخ رامياً عصاه قبل يوم « إذهب خلفها » قد سمع اسم يونس جيوندي وراح ينظر إليه .

كان البخور الذي ينتشر في الهواء يعطي قلبه ضربات وضربات ، وكان يقع في حزن خفي وهو يفكر أن هذا المجلس ربما يكون آخر مجلس سيكون فيه . ولكن الآن لم يكن الوقت للتفكير بأي شيء ،

كان يكفي أن يترك نفسه ويغلق عينيه ويسرح في الدنيا . وها هو رسول العشق (تابدوك إمره) ينتظر حانياً رقبته ، والمكان قد امتلأ بسعادة لا توصف .

وكأن أطرافه الأربعة قد تحولت إلى مكان سياحي ، وأما هذا السكوت فيشبه أكثر الحركات شجاعة .

كانت المنارات قد رتبت ، وبدأت العصائر توزع من قبل المحاربين من الأكواب ذات الفم العريض ، وبدأت الأرواح تسكر .

وبينما كان كل ما في داخل الغرفة قد امتلأ بسراب العشق ، كيف لا يترك يونس الحطّاب نفسه ؟ فهو يعلم أن بعد قليل سيُعطى للدراويش ، والدراويش سيبقون مجانين ، كانت أمنيته أن يصبح سعيداً ويعطي أخباراً عن العشق ، كان الميدان سيشبه الميدان ، وستبدأ مشاهد تحتار لجمالها القلوب ، سيحتل العرش الأعلى المكان ولن يتحدث باللسان ولا يحكىٰ شيء .

إذا كان يونس سيذهب غداً فليترك قلبه الصغير ، فليملئه بقدر ما يستطيع ملئه ، وليشبع بقدر ما يستطيع من العشق . . .

فليقل « يا حي ! » ويعطي كيانه للسيل وجسمه للحطاب ليحرقه . . .

وعندما اختفى السكوت جثى درويش عجوز على ركبتيه وبدأ

بالحديث مستأذنا (تابدوك إمره) ، بصوت رقيق كالحرير ، كان كل المحاربين يستمعون بآذان صاغية ، وكان يونس جويندي لا يسبح ، كان قد سكت .

كان (تابدوك إمره) قد ثبت ناظريه إلى مكان مجهول في الغرفة واقفاً بلا حركة أبداً كتمثال .

ويونس كان قد أحنى ظهره جيداً كالعادة وراح يستمع وكأنه انحنى ليسجد ، وثبَّتَ جميع الدراويش أعينهم على العجوز الذي لم يسمعو اسمه ولا نسبه قبلاً والذي رأوه لأول مرة .

كان عجوزاً مبعثراً غير مرتب وذا جبة سوداء مثقوبة ، وذا لحية شقراء طويلة ، وعيناه زرقاوتان ولامعتان كخرزة ، ومع كبره في السن إلا أنه يظهر سليماً وقوياً .

بدأ حديثه قائلاً بسم الله :

« لقد خُلق ليحمد الإله العزيز في غرفة من طين . والسماء سقف تقف بلا أعمدة من أجل الإنسان ، والبحر ذاب وأصبح ماءً من عظمة ربي ، وانهار الجبل من خوفه ، والنجوم تتجول في الفلك ، وكسيت السموات السبعة بالأضواء ، والشمس والقمر يمسحون وجههم بالأرض ويسجدون له .

وإذا قال ربي « كن » يكون كل شيء . معرفة سر « كن فيكون » هو الحاجة الأهم للروح .

من النملة وحتى السماء. . كل ما هو موجود ، جميع الحبات وكل القباب تعرف بوجود جناب الإله الحق .

الحمد لمن جمع السيل والتراب والنار والماء في مكان واحد ، وأنار سره وأظهره لنا في. . . والصلاة على نبيه محمد .

فهو الذي سيشفع لنا غرفة من ذنوبنا في اليوم الأسود ، يا ويل حالنا يا ويله إذا لم ينر شمعة شفاعته ! فحبه هو علاج لهموم قلوبنا .

ووجهه الذي يشبه الشمس هو نور روحنا ، الصلاة عليه والسلام له. . .

وإلى ثاني اثنين في المغارة الحارس ذو البنية القوية ، سلطان الأولياء الذي يسحب الدنيا بنفس واحد إلى داخله أبو بكر ، وإلى شمعة الجنة بين كل الشعب ، صاحب العدالة والإنصاف لعمر الذي أحرق وأشعل روحه بِهَمِّ العشق ، وإلى بحر التقوى والوفاء وعلم العلم إلى صاحب الحياة عثمان ، وإلى من لا نقاش في فتواه ، جبل المعرفة ومحيط العلم وكتب الدين إلى البطل علي وإليهم جميعاً سلام بلا نهاية ولا حدود. . .

يجب أن يُنته إلى هذا الكلام ، فمن يمسك لسانه لا يُكسر أسنانه . وإذا قيل الكلام بتفكير يعتبر معلومة . والكلام الذي بلا معلومات يأكل نفسه ، فالإنسان يُعلو ويهبط بكلامه ، الكلام يكون

كلاماً عندما يكون عيناً لمن ليس له عين وللعمي ، فلتعلموا هذا . فمن يقول حديثه بشكل جيد يكون مخلداً ، إذا كنت تريد حياة خالدة اجعل عملك وكلامك جيداً . . .

ولهذا هناك قصة تحت لساني ، فَلْتُفَكَّ تلك العقدة ولْتَخْرج الجواهر وتنتشر ، ويعلو على ذلك أنه ليس هناك وقت ينسى في مركز علم (تابدوك) ، إذا وضعنا في الساحة سؤال : « لمن يقال الحب ؟ » إذا أعطت قصتنا جواب هذا السؤال يكون مرادنا قد تحقق ، وأنا أنقلها من لسان أجدادنا .

كان هناك شاب متقن لعمله كثيراً ، حاذق ومتفهم جداً ، وعالم شاب ذو معلومات كبيرة . دائماً يحصل ولا يذهب للتعطيل إلا قليلاً من سنوات لأخرى ، وكان قد دخل في عين أستاذه جيداً ، لأنه كان فعلاً شاباً ممتازاً ، كان أستاذه يميزه عن طلابه الأخر ، ويتحدث معه بطريقة مختلفة ، وكان في حرم أستاذه جارية جميلة ولامعة كشمس أخرى له ، ذات عينين مسحوبتين ، جميلة بقدر أنها تضيف روحاً لكل الأرواح ، كانت فتاة تعطي الحيرة لكل شيء في الكون ، كان جميلة بقدر أنها عبارة عن روح كاملة .

كان عبارة عن لطف في لطف ، وعطاء في عطاء ، كانت جعلت نفسها في حلوها وسكرها عبدةً ، وجُعلت عبدة كالقمر في الجمال . كان قد عُرض القمر بعظمته في الأراضي ، كان قد عشق

الحزام الذي على خصرها ووقع بسببها على الأراضي .

كان ينقط من شفافها الكبيرة سكر ، وكان من يرى ذلك يزمر ، وتقع أجنحتهم ويتدهورون .

تنهمر من عيونها السهام ، وتكسر الجميع ، وتمر وتسيل الدماء .

في يوم من الأيام كيف رأى تلك الجارية ذلك الطالب ، قال : « أنا طالب ، وهذا أستاذي ! وليس لدي أستاذ في العالم غيره ، يجب علي الآن أن أكون طالباً لهذا الجمال ، إذا لم يعطني أستاذي درس الحب لن أتذكر أي درس بعد الآن » .

وبدأ ليلاً ونهاراً يحترق ويشتعل بحب تلك الجميلة ويخاف كلياً من أستاذه ، جاء العشق وأخذ عقله ، جعل قلبه في حالة مرنة ، وجعله يكره روحه !

كثير من الأشخاص أعطوه نصائح ذكية وعلمية وساعدوه كثيراً ليتخطى هذا الحب وإلا لم يعط ذرة واحدة من عشقه للرياح .

تحصيل العلم يعطي الرجل خوفاً ، ويصحح الشجار إلى المناقشة ، وأما الدخول إلى العشق تجهل ولهان في جمرة ، ويجعله تائهاً سيء السمعة .

وفي النهاية مرض كلياً ، وانفصلت كل مفاصله عن بعضها البعض ، وفهم أستاذه في النهاية أن يعشق الجارية ، فكر بمعرفته

وتجربته ، وأخذ من ذراعي الجارية دماً ، وأعطاها مسهلاً قوياً ، وبعد ذلك جاءت الجارية الدورة الشهرية ، فانحنى طولها الذي يشبه شجرة السرو واصفرت خدودها التي كانت باحمرار الزهرة .

ولم يبقى في وجهها جمال ، ولا نضارة في خدها ، لم تبقى ذرة واحدة من جمالها ، **انكسرت الكأس** ، **وذهب الساقي** .

كانت جميع الأدوية التي شربها في ثلاثين مكاناً داخل زجاجة ، وكان داخل تلك الزجاجة مد عرق الجارية ، كانت الزجاجة قد امتلأت حتى فمها .

نادى الأستاذ ذلك الطالب الذكي ، وأحضر من الحرم تلك الجارية .

أشار للطالب مكاناً وجلّسه ، ووقفت الجارية أمام الطالب ، أدار الشاب وجهه عندما رأى تلك الفتاة ! وتفاجأ كثيراً كيف تغيرت تلك الفتاة الجميلة في وقت قصير كهذا ، فشعر بالبرود اتجاهها ، وأشعل نار تحصيل العلم مرة أخرى فيه ، وذهب كل مرضه ، ونُسيت تلك الجارية ، وعندما رأى الأستاذ كيف نجا ذلك الطالب وأخلص من الهم وانتعش مرة أخرى ، وكيف شعر ذلك الشاب الذكي بالبرود تجاه تلك الجارية ، وكيف بردت نار الحب تلك في قلبه وأصبحت رماداً وانطفئت ، أمر بسرعة أن يحضروا تلك الزجاجة ، فتحوا فمها ووضعوها أمامه ، فقال الأستاذ :

« أيها الشاب ما الحال التي وقعت فيها ! لقد كنت في حال حائرة ، لم يكن قد بقي فيك صبر أو قرار ، أين هي النار التي في قلبك ؟ أين تمردك وعدم خجلك ؟ ألم تكن تريد تلك الجارية صباحاً وليلاً ، ارفع رأسك وانظر ، كل ما تريده أمامك ، لماذا ذبل الآن حبك لها ؟ ولماذا بردت تلك النيران الكبيرة ؟ أنت ما زلت ذلك الشاب ، وتلك ما زالت تلك الجارية ، ولكن كان فيها شيء تريده وتحبه ، وهو الآن غير موجود . الشيء الذي تريده في هذه الزجاجة ، هذه الزجاجة مملوءة فيها حتى فمها ، لا تقف هناك ، تعال وانظر ، أنت كنت تريد أن تحصل عليها ، في الحقيقة أنت كنت عاشقاً لهذه الوساخة ، دخلت إلى الطريق بلا تفكير . لقد أحببت الدماء والوساخة . . . » .

فهم الطالب في تلك اللحظة كل شيء ، تاب ، وعاد واهتم بدروسه . . .

عندما انتهى الرجل العجوز من سرد حكايته رُئي اصفرار وذبلان (يونس جويانديي) وتحرك عينيه من مكانها واحمرارها ووقعه على الأرض مع صرخة .

والدراويش ينظرون إلى (يونس جويانديي) الذي يتأوه على الأرض باستغراب .

يحزنون . . بهم قلب كبير ، كان الجميع يفكر في الذنوب التي

فعلوها ، وربما في الذنوب التي لم يعترفوا بها لأنفسهم حتى يفكروا ويبكوا .

وعندما هدأ (يونس جويندي) قليلاً ترجاه (تابدوك إمره) الذي تحدث وكأنه قادم من عالم إلهي بشكل صميمي ومع دمعة قائلاً :

« نشعر بالحماس يا (يونس جويندي) ، يا رنمنا » .

وكأن (يونس جويندي) قد طُرش ، لا يسمع ، والمحاربون صامتون . ولم يخرج من (يونس جويندي) صوت مع أن حضرة (تابدوك إمره) أعاد قوله ثلاث مرات . . .

لو نزلت الغيوم من السماء إلى الأرض ولو انهارت الجبال مع ضجيجها ولو تقطعت الأرض قطعاً قطعاً ما كان سيحدث استغراب وحماس هكذا .

حتى الأنوار كانت خائفة من أخذ النفس ، كانت تضيء بصمت وبلا أية أصوات .

كان من الممكن سماع صوت أجنحة حشرة صغيرة ، وكأنهم كانوا في صحراء قاحلة لا يعيش فيها أي حي ، كان بإمكانهم الانسكاب كالأسلاك ، كان يمكنهم أن يتقطعوا في حالة يرثى لها .

كان قد طال الانتظار لمئات السنين ، يشعلهن ويحرقهم ويجعلهم يتألمون ، في هذه المرة التفت الشيخ إلى الحطاب يونس . كان رأسه قد انحنى وعيناه مليئتان بالدموع وجسمه قد صغر

يحترق في زاوية بداخله ، ولكنه كان وكأنه لا يستطيع حمل ذلك الثقل ، كانت قبعته قد سقطت على حضنه ، وظهر شعره الذي ابيضَّ كثيراً ، صوت (تابدوك إمره) كان يقول :

« هيا ! لقد حان الوقت غايري يونس . . . فُتح قفلك ، لهذا ترنم . . . » .

بدأ يونس بأنين ، أولاً كبر صوته الغير مسموع وكبر وكبر ، سمعت الأذان صوتاً لن تنساه أبداً . كان الحطاب يونس يبكي :

يا أحبائي المحاربين لقد ظهر أن الطريق رقيق جداً

ظهر أن من يقطع الطريق إلى سليمان هي نملة

القلب يا هذا موجود تعالوا

وظهر أن قلبي النائم وجد صديقه

لم يأخذ أحد قوة أحد

ظهر أن الذي يقول خذوا الهجرة يده قد ذابت

لن تتوقف دموع عين العشق لا البارحة ولا اليوم بل ستنهمر بلا توقف

لقد ظهر أن النهاية هي أن المعشوق سيبكي على دماء

يقال أنّ العشق بالنسبة لي غير مفيد

جاء إلى رأسي فظهر أن الكلام حقاً في مكانه

قرأت الكتب الخلوة الأربعة وحصَّلْت علمها

رأيت أن العشق ظهر أنه هجاء طويل للغاية

من قالوا أنهم دراويش ومن لا يأكلون الحرام

ظهر أنهم جمال لليد التي لا تأكل الحرام

قيل إنهم ماتوا وبقي ملكهم وأموالهم

ظهر أن حرقة خوف الملك هو بعد الموت

شخصان يتحدثان ويقولان ليتني أرى يونس

أحدهم يقال أنه أنا والآخر زوج عاشق

* * *

كانت الأزهار تبرد. . .

وعصافير لا يعرفون اسمها تهرب بصرخات وصرخات ، والسماء تسود بشكل لم يروه من قبل .

كان دائماً طريقاً طويلاً يودي بالحسرة ، الآن قد فصل إلى قسمين فوقفا مدهوشين فاتحين فمهما .

كان في داخلهم خوف يطن ويلتصق بهم . كان هناك مساء سيء كالسم يبدأ .

وفي الأمام قليلاً تأتي أصوات نقيق الضفادع التي لا تعرف السكوت من الطين المتسخ ، ومقالبهم هناك جبل رأسه حاد

ومرعب ، رأسه مثلج وكانوا يظنون أن هذا الجبل البري سيسقط فوقهم .

والبرد كالأخطبوط يلتف على جلودهم ويجعلهم يرتجفون .

كانوا يفكرون بأن الموت بات ككرباج سيضربهم على ظهورهم ولن يستطيعوا القيام مرة أخرى ، وأنهم هنا فوق هذا الطريق سيقعون ويختفون وأن الذئاب البرية سوف تأكل أجسادهم وسيمزقون ظهورهم ويقضمون عظامهم وينهونهم . كانوا لا يستطيعون النظر إلى وجه بعضهم البعض حتى من الخوف .

كانوا يبردون . . .

كما تبرد كل زهور ووردات العالم وأحجاره وأغصانه وأشجاره تماماً ، وفي البرد القارس كانت هناك رياح تجعل أجسادهم تقشعر ، كانت تضربهم وكأنها إبرة ، وهناك بعيداً يظهر برق وتسقط شهب ، لم يكن هناك مغارة ليحتموا فيها ولا ظل شجرة .

وهناك برد مستمر مد النظر ، وبالنهاية يسحق الجبل ويبقى ، كان الجبل ينظر بتهديد مدهش ، إذا أمسكهم الانجراف الثلجي من المستحيل النجاة . كانوا يعلمون ذلك ، إذا استمرت حيرتهم أكثر بقليل يمكن أن يكون قد انتهى الأمر .

تأوه النحيف بينهم وضع يديه الجافتين على فمه ، وخرج من تحت شاربيه المتجعدتين بخار واختفى .

وبعد أن أعاد حركته أكثر من مرة التفت إلى أصدقائه ونظر إليهم .

لم يستطيعوا سماع الكلام الخارج من فمه ، سُمع صوت مخيف وكأن الجبال تضرب بعضها البعض .

طغى ذلك الصوت على صوتهم جميعاً ، رأوا نيراناً في مكان بعيد جداً ، لها شرارة سوداء تنتشر في السماء كألسنة وحش .

وبلا شعور قفزوا من أماكنهم وسلكوا الطريق اليميني من الطريق المنفصل إلى قسمين .

كانوا يهربون نحو الجبل ، وعندما وجدوا أنفسهم عند مغارة سوداء عميقة مغطاة بالأعشاب ومن داخلها تأتي روائح عفن ورطوبة لم يصدقوا أعينهم أولاً ، ثم دخلوا إلى الداخل وهم يسحبون بعضهم البعض .

كانت في الخارج هناك أهوال تحدث . كانت تهطل أمطار موسمية وكأنها لن تتوقف أبداً ، وكأن المياه تنبثق من الأرض ، كانت هناك أصوات تأتي تشبه طوفان نوح ، وبقي السهل تحت المياه .

وفي المغارة الباردة ذات الرائحة العفنة كان كل واحد منهم قد سحب نفسه إلى زاوية وقد غلبهم النعاس الرهيب الذي حل بهم وأغلقوا عيونهم .

وعندما استيقظوا رأوا استمرار الطوفان بشكل أبطىء بقليل . ولم يعلموا كم من المدة قد ناموا .

كانوا ثلاثة أشخاص . . .

الرجل الأول يداه ورجليه صغيرتان ، عظامه قد خرجت وصدره مغلق بشعر أسمر ، كان عجوزاً فقيراً ذا شوراب مجعدة وجسمه مقشعر . وكان عليه عباءة مخططة ذات أكمام عريضة وطويلة واصلة حتى قدميه ، كان ردائه مفتوح الرقبة قد اهترء لونه ، وعلى أكواعه ضربت قطع صوف خشنة ، وعصاه المنثنية وذات الرأس المنحني كانت واقفة بجانب رأسه ، كان ينظر إلى حقيبته المتسخة التي يضعها مراراً وتكراراً تحت رأسه وينام عليها . ويتنفس بأنفه الذي التصق ببعضه ، وكان وجهه دائماً يبدو مهموماً بسبب الروماتيزم الذي في رجله اليسرى .

وتحت حاجبه اليسراوي المرتفع قليلاً كانت تظهر علامة جرح صغيرة ، وكان لديه عيون مستديرة ككرة نظيفة وعسلية .

كان جالساً وقد أغلق أذنيه عن الأصوات التي في الخارج وراح يفكر ، ومع أنه ليس وقت ذلك أبداً إلا أن تلك الذكريات القديمة للغاية ولكن التي تخطر على باله دائماً وكلما تذكرها أعطت قلبه مغصاً . . . الآن أحييت من جديد .

بيت متدهور من سقفه وحتى أرضه ، قديم ومكسور

ومهدم . وزهورها قد هُرست وذابت ، وباب مغلق بثلاث مسامير يخرج أزيزاً عالياً ، وفرن مُسْودٌّ ومهترىء ، وبجانب النار المشتعلة التي تخرج دخاناً أخته الكبرى العجوز تصيح ، ويخرج من فمهما المعجوف الذي بلا أسنان أجرح الكلام ، جرحها الذي لا يشفيه مرهم على فقدان ابنها قبل يوم ، ثم التفت المرأة بالنهاية إلى نفسها وقالت : « موسى ! الأم واحدة والأب واحد وأخي موسى ! إذا لم أستطع أنا تحمل هذا الألم ، ادفن جسدي في مكان بارد لا أحد يعرفه ولم يراه أحد على حافة جبل ، لا أريد أن تسمع أُذُنِ أي إنسانٍ أنيني ، الكره يكبر فيّ كانجراف جليدي ، أنا أخاف يا موسى أن أذهب في آخرة عمري بلا إيمان يا موسى ! . . » .

ثم موت أسود في كفر ، كان قد سمع : « الله غير موجود ! لو كان موجوداً لما مات ابني الصغير ! الله غير موجود ! « سمع هذه الكلمات التي تقطعت وغرقت كخشبة ، ثم وضع جسد أخته الذي أصبح بنفسجياً في الغرفة وهرب ، وإلى الآن هو يهرب ، إلى أين وإلى متى ؟ وأسوء ما في الذكرى كان الخوف الذي شعر به وخرب قلبه دائماً . خوف الموت أو خوف الموت بلا إيمان . . . وهذا سبب ذوبانه وانهياره ، لم يكن يريد أن يشبه أخته الكبيرة . . .

اسم الرجل الآخر كان حمزة ، حمزة سيد لقبه قد نُسِي منذ زمن بعيد .

فوق أكتافه العريضة رقبة طويلة ورقيقة ، وله وجه ضعيف وأسمر ، ولديه لحية قصيرة وباهتة .

وضع رأسه على إحدى ذراعيه وراح يدعي ، وقد ثبَّتَ عينيه الحزينتين ذات اللون الأخضر الغامق على فم المغارة ، وراح يشاهد المطر ، هناك بثرات على وجهه ، ولديه شعر أصفر قريب من الحمرة اصطناعي ، قد تساقط فوق عينيه ، ولم تمسح إلى الآن نظراته آثار حياة مريحة وغنية . وهناك ملابس غريبة سوداء تماماً ، كانت تظهره مخيفاً أكثر ، لكي يُعتاد عليه ولا يُخاف من وجوده كان يجب سماع صوته ، فكل شيء فيه في صوته ، صوت معتاد عليه ، صوت ليس غريباً. . . ويجب أيضاً أن يُخرج قلب حمزة ويُنظر إليه ، فهو ليس قطعة لحم بحجم قبضة اليد ، نور مليء للسراب ، قلب مليء للسراب بالعشق والحب ، بشفاهه المتحركة بأدعيته التي لا تنتهي طَهَّرَ قلبه وهدّأه ، وأصبح درويشاً وهادياً لنفسه ، تجول العالم الكبير كظل وحيداً صامتاً ولكن لم يجد الشيء الذي يبحث عنه تماماً إلى الآن ، لم ينتهي حزنه ولا همه كان يحزن ويقول لنفسه : « لو أنك وجدت الشيء الذي كنت تبحث عنه لم تكن ستخاف من الموت كما فعلت قبل قليل يا حمزة ! أنت تشتم مستنقع الدنيا » .

الرجل الثالث كان أمرداً ، وعلى رأسه الأصلع وشاح أحمر ، وطرف من الوشاح أسفله يهتز على كتفه ، وجهه مستقيم تماماً أصفر

وبلا شعر ، وعلى طرف فمه شعرة أو شعرتين طويلتين . . . وجسمه المنحني يرتجف ويرتجف ، وكأنه لم يرى برداً كهذا ، وسبب ذلك أنه قادم من جوار مكة التي تحرقها الشمس بشدة ، عربي بدوي ، اسمه عماد الدين ، هناك في عينيه المجوفين والسوداء مهارة بدوي وحيوية تضيء بلمعة .

عناد في أذنيه التي تسمع كل شيء ، وهناك صراحة في فمه ولم يقل شيئاً طوال سنوات وسنوات . لسانه الثقيل والقاسي يجعله إنساناً غير معتاد عليه ، ولكن عماد الدين كان يسمع هموم الآخرين دائماً ويسمع حاجاتهم ويلبي ندائهم ولا يقول عن همه ومشاكله أية كلمة ولا يظهر أنه نادم على ذلك .

وبالعكس كان عاشقاً لسكوته وفرحاً به . وكأنه يقول : « أنا قيدت أكثر أطرافي ظلماً ، أغلقت عليه الحبس ، أنا أكثركم ربحاً » .

ثلاثتهم كانوا قد انزووا بنفسهم وراحوا يفكروا في حياتهم الخاصة كانوا قبل مدة طويلة قد التقوا بجوار المركز في مكان ما وأصبحوا أعز الأصدقاء .

وبدأوا بالتجول معاً ، كانوا قد ارتاحوا لبعضهم البعض ، واتفقوا فيما بينهم وجعلوا حمزة إماماً ومع حضرته تجولوا كل القرى والأماكن ، لم يكن هناك شيء يريدونه من الناس ، أينما وجدوا

لقمتين يأكلونها ، وأحياناً يصومون لأيام ويتجولون جائعين .

ومرة أخرى لم يأكلوا حتى لقمة واحدة منذ ثلاثة أيام ، وبدأت معداتهم تقرصهم وتشعرهم بوجودها ، وكان هذا سبب اصفرار التراب الموجود في وجوههم .

شفاههم قد جفت وقَحُلَت . لقد مَرَّ زمان طويل منذ أن أكلوا ما تبقى من الخبز في كيس موسى ، وفوق هذا الخوف الذي كان قبل قليل الذي جعلهم يرتعشون من رؤوسهم حتى أظافرهم ، والمطر الذي جعل نخاعهم يتجمد من جوعهم .

وثلاثتهم يشعرون بالخجل من شرح ذلك لبعضهم البعض ، كان الدرويش يعني العناء . كان الدرويش هو الرجل الذي يصبر عندما يلف الفقر فمه . لم يكن سهلاً . . . الكون درويشاً . هناك يونس يسمعون اسمه في كل مكان يمرون به .

درويش علموا أنه قدوة ، ولم يروا وجهه ولم يتحدثوا معه . ولكن هل كان هناك حاجة لذلك ؟ فلقد كانوا يحفظون أناشيده التي كغيمة متشابكة وكشمس تنير كل مكان .

ثلاثتهم كانوا قد اجتمعوا على كلمة : « الدرويش يكون كيونس » كيف لا يُصَدِّقُ الإنسان الأخبار التي تأتي متواترة ، هذا يونس خدم في مركز علم (تابدوك إمره) لسنوات طويلة بصدق ، وهمّة ، لم يحضر إلى مركز العلم أخشاباً منحنية ، في بعض الأحيان

أحضر الأخشاب ملفوفة بأفاعي على نية أنها حبال .

لم يخرج من فمه لسنوات عتاب أو عصيان أو جملة مواجهة .

ألم يشرح (يونس جويندي) عنه أن يونس الحطاب هذا عبد بطل . ما يخرج من فمه كل كلمة ، كل ذئاب الأرض وعصافيرها تحفظها ولكن مع كل ذلك هو يرى نفسه رقيقاً ونحيلاً ولا شيء ، الآن بصوت محروق تفضل الأنشودة التي قالها موسى .

موسى الصامت حقاً كان يقول ، ويحكي عن يونس الذي يمر بداخلهم ، وصوته يختلط بصوت المطر ، وتملأ المغارة بشكل أجمل الألحان ، كانت هذه هي المحنة التي يمرون بها دائماً .

كانت هذه الكلمة التي لا تسقط من ألسنة أكبر المحاربين ، وبعد القطعة الأولى لم يتحمل حمزة وقام بالاشتراك بالأنشودة ، وكان عماد الدين حتى لو لم يتحدث حاله وحركته أو بالأصح كل روحه كأنها تعيد هذه الكلمات ، كانت المغارة قد امتلأت بسعادة مختلطة بالهمّ . كانوا يقولون الأناشيد ويهتزون يمنة ويساراً ناسيين كل العالم . . .

يقول لي الزهد

لا يمكنك أن تكون زاهدًا

فلتأتي سأخبرك بشيء

لا يمكنك أن تكون زاهدًا

حضن الزهد يحتاج صخرًا
يحتاج عيونًا مليئة بالدموع
يحتاج بطنًا ببطيء الخراف
لا يمكنك أن تكون زاهدًا

يحتاج لمن يضرب انعدام الأيادي
يحتاج لمن يسب انعدام اللسان
يحتاج الزاهد انعدام القلب
لا يمكنك أن تكون زاهدًا

فلتاتي الآن أيها الزاهد يونس
نزل الغصن الأن على العمّان
ولم تتفرع العمّان
لا يمكنك أن تكون زاهدًا

ارتاحوا بعد انتهاء الأناشيد ، كانوا قد نسوا جوعهم ، عاد كل منهم إلى عالمه من جديد ، لكن عماد الدين جَرَّ رجليه خلفه نحو فوهة المغارة ليرى المنظر ، مرّ وقت طويل في هذه الأثناء ، كان الجو قد لفته العتمة ، ولم يرتح المطر عن الهطول ، أصبح يمطر

برقة ثم يقف ، تفرقوا باحثين عن أغصان مقطوعة عندما قال موسى إن عليهم أن يوقدوا النار وإلا فسوف يتجمدون ، حملوا إلى المغارة الحطب المتواجد عن أسفل شجر القزم الذي لم يبتل كثيراً بعد ، قرفصوا في مكان أرمل لا يصله المطر ، كان عماد الدين لا يتوق صبرًا لكي تشعل النار ، اشتعلت ، امتد الحريق بكل قوة لتشعل النار ، ازدادت بكل غيظ ، أخيراً اشتعلت النيران مع هطول القطرات . وعَمَّ الدخان الأرجاء حارقًا العيون والأنوف . وبعد قليل عادت النار طبيعية ، كانت قريبة وكأنها ستعانق عربيًا وتأخذه في حضنها ، أخذتهم القشعريرة وشعروا بالدفىء ، كان العالم يبدو أغرب الآن ، كان كل شيء على ما يرام ، لو دخلت على بطونهم بضع لقيمات ، غاصوا في الذكر حول النار ، كان صوت حمزة يعم الظلام كما لو كان صوت مياه جارية ، يعني أنهم لم يلحظوا الرجل الذي وقف قرابة منهم في البداية ، عندما ألقى الرجل السلام فقط استطاعوا الاستيقاظ من عوالمهم ، سكتت أذكارهم كانوا متفاجئين ، كان ظل الغريب يطول هناك بين الأحجار يتلاشى وكانت النهار تظهر طوله أكثر طولاً ، ولم يشعر أحد من الثلاثة بالخوف من ظهور هذا الرجل الغريب فجأة ، ربما كان سبب هذا سلامه الذي كان لينًا لطيفًا ، نهضوا وأشاروا له بالجلوس ، وانتظروه حتى يدفىء دون أن يسألوه أي سؤال ، تفحص عماد الدين الرجل جيدًا دون أن يظهر هذا ، عصروا العباءة التي كان يرتديها ، كانت عمامته ليست

مشدودة ، كانت يدياه الغليظتان ذاتا جلد رقيق ، وعليها عروق زرقاء ، عظمه بارز ، وجبهته عريضة ، ولحيته بيضاء رقيقة ، هذا الرجل عمره بين الخمسين والستين ، كان شعره ثقيل ، وتحت حواجبه الكثيفة عيون طفل بريء ، فقير محبوب حنون ذو جسم طويل ، وأكتاف عريضة وظهر مقوس قليلاً . هناك ابتسامة بين شفتيه المُرْتَصَّتين ، راحة تعلوه . ثم الخدود المحفورة ، ووجه ذو تجاعد خفيفة .

متكأً دائماً على كتفه الأيمن ، لديه موقف راكد دائمًا ، فليأتي الحمام البري وليبني عشه فوق رأسه . لا يمكن لتواجد أي سبب يمنع المرء من حبه ، لأن في عينيه دائمًا حبٌ وعشق .

الصمت الذي سمعه عماد الدين سمعه الآخرون أيضًا دون استثناء ، حمدوا الإله ، كان من الممكن أن يكون لصًا أو من ذي المصالح أو حيواناً مفترساً ، لم يستغربوا من الرجل الذي سيشاركهم مكان نومهم ، من الواضح أنه فقير رغب بالزهد ، كحالهم ضُرب وأصبح في الشارع . ولأن الصندل الذي كان يرتديه بقدمه لا يختلف بشيء عن الطين ، لذا فكان لابد أنه يمشي لفترة طويلة ، فقير ويرتجف ، فليبارك الله هذه المغارة التي لجأوا إليها واستطاعوا أن يبقوا فيها مرتاحين ، لا مشكلة ببعض الرطوبة ، فقد استطاعوا أن يحموا رؤوسهم . . .

سأل حمزة الغريبَ

« من الواضح أنك مسافر منذ فترة طويلة أليس كذلك أيها الأخ ؟ من أين قادم وإلى أين ذاهب ؟ ، رفع الرجل عينيه الطفوليتين وجاوب بالتفصيل :

« أنا في السفر منذ فترة طويلاً حقًا ، وعندما هطل المطر بحثت عن مكان ألجأ إليه ، وأحضرني النصيب إلى هنا ، أنا قادم من مكان معروف وذاهب إلى مكان معروف ، ألسنا قادمين منه وذاهبين إليه ؟ » . فهموا ولم تُرد قلوبهم الكلام أكثر . وعندما كانوا يحاولون تشارك المغارة والنوم ، غمر المغارة ظلام مخيف وهدوء قاتل ، وانتظر الرجل الغريب الصباح في مكانه دون أن ينام أبدًا طوال الليل ، أيقظ أصدقائه قبل طلوع الفجر ، أعطاهم الماء الذي عبئه من الأماكن البعيدة المنخفضة ، توضؤا ، تقدم حمزة وصلى فيهم ، وقرأ موسى بعض آيات من القرآن الكريم ، ثم بكوا .

عَمَّ السهل طبقة من الصوت الغليظ ، لم يكن للعيون أن ترى شيئًا ، ولا مكان يذهبون إليه إن خرجوا ، كان سيبقون عاجزين في هذه المغارة لعدة أيام ، كان الجوع يكبر وكأنه وحش ، كانوا يعلمون أنهم لن يجدوا أي شيء يصلح للأكل حتى لو كان جذر أعشاب في الجوار ، كانت الأصخار والرمال والحصى تغطي المكان ، وفي أقرب من ذلك كان هناك شجيرات صغيرة ، وكما

إخراج الجذور المجمدة أمر مستحيل ، فهم لو أخرجوها فإن جذورها لا تأكل ، وعندما كان العجز يتعمق أعطى موسى رأيًا ، قال موسى الذي كان على وشك الموت من الجوع بصوت متعب :

« إنَّ الله الرزاق ، لا يناسب جلالته أن يضع عبده في الضيق والعسر ، فلندعوا ، فيضع لنا مائدة أمامنا » .

كان يقول هذه الجملة بكل إيمان وصدق ، حتى إنهم رجفوا حتى النخاع ، كان سيدعو حمزة أولاً ، ذهب إلى أقصى زاوية مظلمة في المغارة ورفع يديه إلى السماء ، وقال الثلاثة في ناحية أخرى « آمين » على الدعاء الذي لم يسمعوه من أعماقهم ، وبعد أن مسح حمزة يديه على وجهه دخل نور عجيب غير مفهوم يبهر العيون وملأ المغارة ، لم يروا شيئًا فترة من الزمن ، وعندما فتحوا عيونهم رأوا مائدة كما قال موسى بالضبط ، كان حمزة يضغط على أسنانه كي لا يقع مغشيًا عليه ، كانت وجنتاه قد تمددت وعيونه تسكب الدمع كالسيول ، كان هذا لطف الله ، كان هذا سحر الإحسان ، لم يكن هذا إلا إكرام الخالق ، أكلوا طعامهم بكل هدوء وسلام ، لقد ذاب حمزة وانكمش ولم يقطع الشكر .

وفي اليوم التالي ، تقبل الله دعاء عماد الدين ، وأنشأ لهم المائدة الثانية .

وفي مساء اليوم الثالث قُبِلَ دعاء موسى ، رفع يديه المهروسة

والمنكمشة والخجولة إلى الله ، وأكلوا طعام المائدة الثالثة التي لا تشبع ، كانت المغارة تبدو كأنها مليئة بالشموع ، كان النور يبهر العيون ، لم يعد الأصدقاء الثلاثة يفكرون إلا بالله ، لا مطر ، ولا طوفان. . . ولا حياة ، ولا موت . لا عصيان ولا إنكار ، الله فقط لاغير ، كانوا يسجدون إليه كأنهم ذرات متفرغين أمام قدرته اللانهائية .

وفي اليوم الرابع استداروا نحو الغريب الذي كان يجلس في زاويةٍ حانيًا رقبته ، قال حمزة :

« دورك أيها الأخ ! فلتدعوا الله فتنشأ مائدتنا » .

هل ممكن أن تنشأ المائدة مرة أخرى ؟ هل هذا ممكنٌ ؟ من هو كي يستجب الله له سريعًا ؟

كان في قلبه خجل مخفي وخوف رقيق ، ذهب الغريب إلى تلك الزاوية برجليه المرتعشتين ، رفع يديه إلى السماء وحنى رقبته ، وقال بصوت يستطيع سماع نفسه به قال :

« إلهي ! . . . إنك الوحيد الذي يخرج من الهم والغم والمصائب ، أنت الأول والأخير ، والغفار ، والقهار ، وأنت القادر والرازق ، إلهي ! السامع بكل شيء ، والناظر بكل شيء ، وتعلم كل شيء . إنني عبد مذنب ، أنا لاشيء أمام قدرتك ، ضعيف ، وهن ، بلا حول ولاقوة ، لا أعرف الطلب ياربي ! . . .

لا تخذل وجهي الأسود المذنب ، إنني أطلب منك بشفاعة ماء وجه الشيخ أو الشيوخ الذين دعوا بشفاعتهم هؤلاء الأصحاب أن تبيد جوعنا ، إلهي ! أنت مجيب الدعوات . اقبل دعائي . . . » .

وكما في كل مرة صُبَّ النور العظيم على المغارة .

وأصبح شيء يختلف عن كل مرة . . . نظر الأربعة بعيونهم الكهلة إلى الرزق الذي أرسله الله إليهم ، كبر تعجبهم حتى أنه لن يتسع الكون ، كان بإمكانهم الطيران الآن ، كان بإمكانهم الذهاب بعيدًا داخل السماء التي بلا أطراف ، هذه المرة كانت قد أنشأت أربع موائد ، أربع موائد أمام كل واحد مائدة مليئة بالطعام الشهي والكؤوس المعبأة بماء العسل ، ومن دون أن يتكلموا أبداً أكلوا طعامهم في انجذاب ، دعا الرجل الغريب دعاء الطعام .

كان اليوم على وشك الشروق ، كان الضباب الذي يعم السهل قد ذهب ، وكانت الطبيعة تحتضن الحياة الجديدة ، كان كل شيء نظيفًا يلمع ، كان في الشرق في حدود خطوط الأفق ألوان تعبث ، ومن بعيد كانت أصوات الضفادع قادمة ، وقفت العصافير على الصخور التي أمام المغارة وأخذت تزقزق .

لم يتحمل حمزة أكثر ، وسأل بصوت بنعومة الحرير :

« أحسنت أيها الأخ الدرويش ! لعلنا لنا أن نقبل يدك ، ونأخذ دعائك . . . لعلنا لا نعرف اسمك ، لكنا عرفنا أنك روح مباركة

عند الله ، فلتخبرنا إذا ما هذا الدعاء الذي دعوته الله فجعل سبحانه أمامنا أربع موائد فجأة ؟ . . . » .

كان الرجل الغريب قد اصفر . . . بعينين شبه مغلقة ، رَدَّ على السؤال بسؤال آخر :

« أنتم قولوا أيها الأعزاء تفضلوا ، كيف دعوتم الله فاستجاب لثلاثتكم ؟ فلتقولوا أنتم أولاً . . . » .

نظر حمزة إلى أصدقائه وأجاب :

« كان هنا عبد متعبد يدعونه بيونس إمرة ، كان اسمه معروف عبر السنين ، نقرأ أناشيده ، أنا تشفعت بماء وجهه المحرم ، وتكرم الله بالقبول » .

مال الرجل نحو الأرض قليلاً ، لم يكن وجهه واضحًا ، وفي أكتافه رعشة غير معروفة . . .

ثم شرح موسى أنه دعى بنفس هذه الطريقة ، وكان عماد الدين يحاول أن يشرح أنه دعى مثلهما وهو يستهدي بيديه ملوحًا هنا وهناك ، كان الرجل الغريب قد تفرغ للسجود ، كان في مكان سجوده بحيرة صغيرة جدًا قد تشكلت من دموعه ، وكان الرجل الغريب يرتجف كما لو كان ورقة شجرة تحاول الصمود أمام الرياح العتية ، كانت تتفتح بداخله أجمل الأزهار وتزقزق أعذب البلابل ، لم يعد يتسع الباب ، كان يعلم أن قلوب العارفين جاهزة للسرور ،

كان يعلم أن سهماً آخر منطلق نحوه لن يُمْسك ، كان يشعر أن آلاف الأحزان سوف تتعالج ، ماذا قال من سنوات عديدة أمام حواف مياه سكاريا أخوه عزيز المتعبد يوسف الذي تعرَّف عليه منذ زمن وأحبه : « الطريقْ الذي يؤدي إلى الصاحب ، ليس غيره ، في داخل الشوكة وردة وريحان وفي داخل الصحراء واحة ، في داخل الظلمة قمر ، لكن الضوء في ذلك الطريق لا يأتي من القمر ، إن الرزق يأتي من البحار والمحيطات يا يونسي . . » .

رفع يونس رأسه من السجود ، واستودع الله أصدقائه بصوت صعب سماعه ، ثم خرج إلى الخارج ، كان ذاهبًا ، كان حمزة وموسى وعماد الدين يتتبعون الغريب بنظراتهم المستغربة ، وبينما كان يبتعد كرعد غريب دون أن ينظر إلى خلفه ، غمر السَّهلَ أناشيد دينية ، وبصوت متواضع كان يقول في داخله بكل مصادر التواضع :

« الحمد لله شربنا العصير المرسل من الحق ،

الحمد لله قطعنا بحر المصاعب ،

كنا يابسين صرنا أمطار ،

أصبحنا أزواج لبعضنا ، وطرنا . . . الحمد لله . .

حيينا وأصبحنا نوافير ، جففنا وأصبحنا أنهار ،

صببنا في البحر حملنا ، الحمد لله

صرنا في تابوت المتعبد ، في بابه عباد

كنا يونس المسكين النبي ، وطبخنا ، الحمد لله » .

أرني علامة من سيهلك أولاً بيننا . . . » .

كانت الجملة مكتوبة بأعرض خطوط الدنيا ، وحفرت أيضًا هذه الخطوط على الجبهة ، على الوجه المتجعد ، وفي الأقلية الجاهزة للذبلان ، كان يحدد نظره المتعب على الشجرة بخديه اللامعين الذين يلمعان بحفر مليئة بالدمع ، لم يبقى لديها أغصان طويلة ، ولا ورق أخضر ، إنها عبارة عن هيئة جسد يحوي بقشرته الجافة السوداء الحشرات والنمل ، قشرة جافة بلا ظل ولا سرور ، لم يعد الريّ يفيدها ولو سقيت جذورها أو جعلت بحيرة حولها لن تحيا ولن تقوم .

أيامها الخضراء التي ذهبت فيها الطفولة وسافرت السعادة التي لا تكفي . . . تركض ، تلعب ، تعمل ، وتتعب ، وتأتي إلى هنا باستمرار ، تنبت الفروع في موسمها ، كان من شجرة الزعرور حتى الشبع . ثم كانوا يشربون من النافورة ، كان هذا المكان لا يستطعون الخروج منه ، وكان لديهم العديد من الذكريات الجميلة ، كان يفكر في ظل هذه (شجرة الزعرور) لعدة سنوات حتى في غربته ، والآن هي ميتة بسبب فأس هائجة ، من يدري فلعل الفقراء قطعوا أغصانها الجافة وأخذوها ، وتركوها بلا ذراع بلا جناح ، لمن سيعترف بأسراره يونس الآن ، في الحقيقة كان السِّرُّ قد انتشر في فم الإنسان ،

إن الشجر لا يفشي الأسرار ، ولو ماتت لا تفشي ، عندما أحس ذلك جعل من الشجر بئر أسراره ، كان يحكي قائلاً « نعم يا حافظة سري الوحيدة ، أيتها الشجرة الأنانية الغريبة . . . » آه ! آه إنها الدنيا الكاذبة . . .

زحفت عيونه نحو الأسفل مجددًا ، نحو القرية الصفراء القرية التي جعلت الرياح منها هي والأرض سواء .

القرية الصفراء . . . اللص الضخم ويحي تشالييبسز ونفيسة بلا إمراة ، واحدة واحدة كانوا ثم حملوا إلى المقبرة ، منهم من كبر بداخلهم اسم يونس ، ومنهم من ضرب بقلب مليكة الشابة ، ومنهم من ذهب وأتى مناديًا اسم يوسف صباحاً ومساءً ، ثم ماتوا واحدًا تلو الآخر ، كيف امتلىء وقت الرحيل والهجرة . . .

عندما دخل يونس القرية الصفراء ، تخيل أنه لن يجد كل شيء كما تركه ، إن نهاية كل شيء لابد أن تكون هكذا ، كان قد أتى إلى غاز الأب بعد كل هذه السنوات من الطرق التي لم تتغير ، لم يتعرف عليه القرويين ، ظنوا أنه درويش سيمر بقريتهم ويذهب ، ارتعش يونس عندما رأى بيتهم ، كان وكأنه يُهْدَم حجرًا حجرًا ويُحرق ، أصبح مسكنًا للعناكب ، وقع أو سيقع ، في الحديقة الضخمة ، هناك الأعشاب المتفارقة والأشواك البرية ، مشهد بلا . . .حركة مشهد هابط وجامد ، عندما فتح السياج ودخل إلى الحديقة رأى

رجلاً يعتبر شابًا يقف أمام الحائط الذي على وشك الانهيار وهو مستغرق بالتفكير ، كانت يدا الرجل على رأسه ، كان داخل ملابس قد تساقطت منها العديد من البقع المهترئة ، وقد تقلصت خدوده ، وظهر في وجهه بثرات . ومن شرواله الذي يغطي ركبه بصعوبة تظهر أقدامه التي تبدو كالقمامة ، تظهر أقدامه جافة مطلية بالطين مع أصابع القدمين . . .

عندما رأى يونس تفاجيء وثبت في مكانه ، نظر في وجهه فترة ، ثم قال بكل فرح :

« لقد أحضرت السلام ! فلتتفضل بالجلوس ، هل أنت غريب ؟ » كان صوته كصوت فتى مريض ، متعب وسقيم .

لقد علم يونس كل شيء منه . . .

لقد اهتز الرجل كليًا عندما عرف أنه يرى يونس ، يونس الذي لطالما غطى القرية الصفراء بأناشيده ، أن يرى يونس ابنٌ حظر هكذا كان مفاجئاً ، كان لا يعلم ما عليه فعله ، المسكين لم يعلم أن له أن يضع يديه فثبت في مكانه جامدًا .

قال الرجل يشرح :

« لطالما انتظرناك ولطالما انتظر حظر اميم أيضًا ، الآن فليجعل الله مكانه الجنة ، لابد أن عظامه أصبحت طحين ، وهاهو البيت يا يونس ، وهاهي الحديقة ، لقد زرعها الفلاح لكنها لم

تعش ، لقد حرستها أحياناً قليلاً ، لكني رجل ضعيف ، ماذا عسى رعايتي أن تكون ؟ سوف يهدم فوقنا تقريبًا » .

وسمعه يونس .

كان كل من يعرفونهم قد ماتوا ، القرية الصفراء غريبة ووحيدة ، فيها فراغ وفقر ، كان يونس قد أتى ليقبل يدا أباه ، كل ما يستطيع فعله هو الدعاء أمام قبره ، تقريبًا رقبته أدق من الشعر ، سأل الرجل السقيم بشفاهه المبتسمة من يكون ، شرد الرجل فترة ، ثم جاوب بنفس صوت ذلك الطفل :

« لا أنسى أبداً يا أخي الكبير يونس ، كان المساء يقترب ، كنت قد دخلت بكيس يا يونس إلى الداخل ، كنت في الصباح قد أحضرت جسد والدي على ظهرك ، كانا جوعى ، كان الكيس الذي أحضرته المليىء بالطحين ، كان مليئاً بالخبز الذي أخرج حديثًا من الفرن ، الأجبان التي فوق بعضها ، والجرة التي كانت مليئة بالذهب ، دعت لك أمي أمينة كثيرًا ، لا أنسى أبدًا ، كنت قد قلت آمين على دعائها ، هل عرفتني من أنا الآن . . . » .

عرف يونس ، كان في الأرض رجل كالجبل ، على سهل لحيته العرق وعلى جبينه العرق وعلى شفاهه سائل كالزبد ، ذراعيه ممتدة وبين أصابعه تربة بلا عشب ولا نبات ، في جبهته نور الشمس ، على نصف عينه اليمنى المتباعدة ذبابة ، كان قد حمل جثة الرجل نحو القرية .

وفي الليلة التالية في المقبرة المظلمة ، في المقبرة الأم أمينة ، كانت هذه الجمل هي ما تفوهت به :

« يوجد هنا من هم جليلون يا يونسي ، أسيادٌ تاريخهم سليم ، هل يتوجب إعطاء روح للملكية ؟ »

« أنتَ ابن الأم أمينة إذًا ؟ كيف لم أعرفك ، لكنك كنت طفلاً صغيرًا في ذلك الزمان ، إن كان هذا فلك كل ملكي ، هذا البيت والحديقة وكل الحقول ، رأيت أنك فقير ، هل علينا أن نخبر القروي ؟ إنني أعطيك كل ما تبقى لي من والدي الضخم ، حبًا بالله أقبل ، إن عملت قليلاً فسوف يتحسن حالك مع الوقت ، ثم تساعد أنت الفقراء والمساكين . . . » .

لم يستغرب سكان القرية الصفراء عندما سمعوا ما قال يونس ، لم يكن لينتظروا غير هذا منه ، كانوا في الحقيقة ينظرون إلى هذا الوجه الدرويش الذي وسع الكون ، يتدفؤون بعيونه ، يشاهدونه بكل غبطة وإعجاب .

هذا ماكان يفكر فيه يونس عند شجرة الزعرور البري التي على قمته المنحدرة ، في محطة النحل توضأ بماء نظيف وصلى ، كان سيذهب ، سيذهب ، سوف يطوف بقدر طلبه من الله ، كان (المتعبد أمرة) قد أرسله نحو الرشد ، كم كان اشتياقه إلى المتعبد كثيرًا . . . كان يشعر بأنه جيد كلما شعر بهذا الشوق ، كانت

الحسرة تكبر داخله وهو لا يكاد يترك قلبه لو للحظة ، فيرى خيال شيخه المبارك ، ويكلمه ، كان يخبىء صوته بداخله كي لا ينساه . لقد شهد العديد من الحوادث الغريبة ، وقابل العديد من الوقائع التي لا تخطر على البال ، الجبال ، الغابات ، ولكنه لم ينسى أبدًا المتعبدة (أمرة) . كان دائمًا بجانبه دائمًا أمامه كدليل ، كان هو مع كل صمت القرية الصفراء الحزينة . . . بجانب هذه شجرة الزعرور البري المقطوعة ، تلك النافورة ، وذلك المنحدر في كل مكان . لم يحب يونس أحدًا ربما حتى أباه بهذا القدر ، كأن المتعبد (أمرة) هو عينه وأذنه وقلبه .

كان يونس قد رأى في وجه (المتعبد أمرة) أعظم متعة وحصل على العشق الذي لا يمكن الحصول عليه . كان كل شيء في لسان (المتعبد أمرة) أناشيد تبتهج فرحًا ، يركض المرء إلى ربه . . . كان يونس يريد أن لا تنطفىء الشعلة أبدًا التي تشتعل بحب الله ، كان عشقه الأبدي هو من ينام في حسرته اتجاه شيخه . . . كانت كل الذكريات غير واضحة ، إلى ذكرى شيخه حيّة ، أولاً في الإطار ؛ التكية ، غرفة الضيوف ، الوردية ، الغرف ، غرفة الشيخ . الطرق التي تمهدت بالذهاب والإياب . . . الغابات و(المتعبد أمرة) . . . النور الذي يضيىء العالم . . .

ربما عندما أعطى يونس عمره كلها فداء لهذا النور ، كم كانت

الأحزان قاهرة ورغم هذا كان يتذكره في داخله ويفكر فيه .

في الطرق الموحشة الوحيدة التي كانت تطول بين الجبال ، كان ينادي اسمه ، وكان يرسل سلامه مع زهور الصيف البرية ، وورودها ، ومع رياحها . كان عندما يبلغ منه الشوق الألم وتشتعل فيه الحسرة يطلق لسانه بالأناشيد وينشد .

جعل صديقي مني مجنونًا ، أخذ مني عقلي وفكري

بقي خياله في عيني ، إن جمالك يا صديقي في رغبة . . .

عندما قام تاركًا شجرة الزعرور البرية وراح يمشي لم يعد يستطيع منع الابتهاج الذي بداخله ، كان يريد أن يشرح للعالم أجمع عن المتعبد بشدة ، كان يريد أن يُرِي الجميع ذراته التي تسكر بذكر الله . . .

عاد ونظر . . .

لم تعد القرية الصغيرة ظاهرة . .

لم يفكر أن الموت قريبٌ إلى هذا الحد ، كان الموت كأنه حلم بعيد جداً جداً ، كان يظن أنه لن يأتي ، أو بعد سنوات عديدة ، بعد أن يحقق رغباته ، بعد أن يفرغ كل أوساخه ، بعد أن يأخذ انتقامه . أما الآن ، كل شيء عميق ، مخيف ، هو على حافة جرف . كل شيء سيقع في هذا الجرف ، أسوء مافي الأمر هو هذا الصراخ ، صوت ديك حاد ورقيق وشديد ، ديك فقط ، وكأنه بجانب أذنه ،

صوت يقطع الأذن ، صار مسلطًا لا يدعه ويذهب ، في صباح اليوم الثالث فقط استطاع أن يفهم أن هذا الصوت يناديه إلى بعض الأماكن. . . يناديه بكل عناد وإصرار ، لكنه متأخر جداً ، إنه لا يستطيع المشي خطوة ، إن أنفاسه تعلق في حلقه ، نقط سوداء تتطاير أمام عينيه ، كان وجهه يتحول إلى اللون البنفسجي وهو على الخشبة ، الحياة التي في خارج أيضًا ميتة ، كانت الأشياء حية لتخنقه فقط ، لو كان باستطاعته أن يبزق فقط ، أن يبزق بكل قوته في وجه الدنيا ، ولو لآخر مرة أن يتقيأ صارخًا بقلبه. . .

انغول محافظ مغادر ! منخفض. . . لم يعرف ما معنى هذا الكلام ، أن يذهب ويدفن في الطين تاركًا المتعبد الجميل إمرة ، أن يعمل على إيمان تعفن وفاحت رائحته ، عليه أولاً أن يبزق على نفسه وليس على الدنيا ، كيف تعجب عندما أنقذ وهو ممسك بيد المنتصر عثمان. . . لكن هل هذه هي النجاة ؟ في الجبال جائع وسافل ، في الزوايا المهجورة ، الأيام التي تمر في تجاويف الأشجار. . .

الجلد الذي لا يكاد يرى من الأوساخ . التربة الجافة كالحجر ، الملابس التي تغير لونها ، بعد ذلك تأتي الجروح ، الجروح التي تعراها غلاف أحمر غامق ، وأحيانًا تكون مثقوبة ومجروحة . لهذا فهو لا يحرك رقبته يمنًا أو يسارًا ، يرفعها بكل قوة ليرى يديه ، في راحة يديه الحادة وفي أصابعه السوداء نفس الجروح ، لو جُن ،

وضرب رأسه المصبوب في الأحجار ومات لكن حسنًا . . .

والجوع أيضًا والظمأ .

من نافذته على بعد مسافة قريبة بعد عدة خطوات ، حيث هناك الجدول يسيل بكل جمال يتواجد الظمأ . . . هذا لا يحتمل في قدره .

لا حول ولا قوة ، في الخلف حياة ذابلة ومتقلصة وفارغة فقط ، وكلما فتح وأغمض عينيه يتخيل حياة جميلة ، ولكن خيالات سريعة الزوال . البراعم الخام المشعة ، بذور من كل أنواع الزهور ، النباتات والشجيرات . . . حديقة أزهار تقطع الأنفاس . . . كسر نفسه في تلك النظافة . التربة الراكدة لم تقبل ، رفعته ورمته . أغلقت التربة على انغول وتكفراته ، انقطعت قوة عدو المتزايدة العثمانية ، ومع التكفير كانت تتوتر وكانت ترتجف ، في حرم المعبد ، قول المرأة التي تشبه ابنه المتعبد ، التي تشبه السلطانة فاطمة : « يؤسس دولة العثمانين ، عانقت تربة الشجيرة بشدة ، نحن من سنختنق ! . . » .

كان كلام الفتاة صحيحًا ، لم يمزق الشجيرة ، لم يضربوا بالفأس على جذورها ، باتت كل الحيل بالفشل ، لم تفد الكمائن بشيء .

كانت هذه الأفكار تثير جنون بشر ، لماذا لم يصبح يوسفًا ، أو

لم يشبه الجد (آك) ، لماذا لم يعش كيونس ؟ إن التوكل خيوط ، بشرٌ لم يتبلد ، هنالك حياة ثانية ، لو أنكر لسانه فإن قلبه لا ينكر ، موجودة نعم موجودة . . . وهناك يوجد جهنم أيضًا ، يعني كما يفعل الإنسان بوقوعه في الماء ، ومعانقته للأفاعي . . . إن بشرًا يعانق الأفعى الآن ، سام سمًا ، إنه يتلوى وينهرس ويعتصر ، رشفة ماء ! رشفة . . . » .

فُتح الباب عندما كان بشر يتدحرج من فوق المنحدر المرعب . . .

دخل رجال في ظل مع قليل من الخوف والخجل ، ثم دخل صاحب ظل طويل ، ألقى السلام إلى الغرفة وانتظر ، لم يخرج صوت أبداً ، لكنه أحس بأن هناك أحدًا في الغرفة ، لماذا هم لا يردون على سلامه ؟ هل كان مخطأ ياترى ؟ بعد أن تقدم بضع خطوات رأى في زاوية مظلمة ، أسفل غطاء بلون التربة ، منكمش ، ثابت ، رجل ينظر ، ينظر إليه بعينين مريضتين وعرفه ، ارتجف الرجل وكأنه صُعق بالرعد ، لقد كان الرجل الذي دخل هو يونس .

لا يعطي لنفسه قطرة ماء ولا قطعة أمل ، كان ذلك النور قد خمد ! هل كان سيخرج لمقابلة يونس بهذا الشكل ؟ آه ، هل سيظهر ليونس هكذا ؟ ربما مع أكبر عدو له على وجه الأرض ، هذا الرجل صاحب السلطانة فاطمة ولهذا فهو في هذا العذاب يتلوى وقد رمي في الجبال الذي جعل منه كلبًا أمام باب تكفير انغول . . . أنه متقبل

جهنم الآن ، لو يمت بسرعة لو يمت . . .

بعينين مليئتين بالمحبة والشفقة ينظر يونس إلى رأس بشر ، كان في قلب يونس جرح ينزف ، كان داخله يرتجف ، لم يفكر أنه سيرى بشر الذي كان يعتني بحديقة الأزهار الخاصة (بالمتعبد أمرة) والذي يحب الأزهار هكذا مليئًا بالجروح ، كان بشر يبدو وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لم يبقى أي موضوع يمكن الحديث فيه ، لكن كان على يونس أن يفعل شيئًا ، قام أولاً ، من يدري كم المدة التي مرت قبل أن يشعل أحد المدفأة أو يحضر ماء يغليه وينظف جراح بشر ، أن يفتح أكياس الطعام ويطعمه شيئًا ، ربما استطاع بشر أن يتكلم حينها .

فعل كل هذا ، جلس بشر وقد ارتاح مستندًا ظهره على الحائط ، نظر إلى يونس ، سكبت عينا بشر الناظرة إلى يونس الدموع المنهمرة الصامتة النقية ، كانت الجروح التي على خديه تدفىء بدموعه ، وما كانت تلين ، وكانت تريحه كثيرًا ، عاد يونس كي يضع الحطب أيضًا إلى الغاز ، كانت الأدعية تخرج من فمه ، عندما دخل ترك المكان الحزن وتبدل بالسلام الغامر ، كان هذا السلام يكبر بينما كان يغسل جروح بشر ويسرح شعره ويطعمه طعامه . . . بدأ في نفسه حوار ، كان الصوت الأول يقول :

« ما الذي سيحصل إن وصلت إلى مريض وأعطيته جرعة ماء ؟

قال الصوت الثاني مجيبًا : « في الغد سوف يأتي ضدك ، كمل شرب النبيذ ! »

سأل الصوت الأول من جديد : « ما الذي يحصل إذا ساعدت مسكيناً ، إذا أريته بعض الإحسان ؟ » ، أجاب الصوت الثاني : « سيأتك غدًا محاسبًا . . . » .

استمر الحوار مدة طويلة ، فكر يونس بمرشده (المتعبد امرة) ، عشقه الآخاذ من جديد اشتعل بشكل أجمل ، سكر يونس ، ثم وصل إلى أذنه صوت يكاد ينعدم وجوده من ضعفه ، التفت ينظر إلى خلفه ، عيني بشر مفتوحتين ولكن غير متساويتين ، ووجنتي بشر التي عليها الجروح تسيل فوقها دموعه التي لم تجف ، كان يونس سيسأله عن بعض الأشياء ، لم يسأل ، بدأ قلبه يدق بسرعة فجأة ، اقترب منه بأدب ، أمسك بيد بشر كانت فوق الغطاء ، كانت اليد قد بردت وتصلبت ، كانت الحياة والروح غير موجودة في يد بشر .

أغلق عينا الجسد المسكين بأصابعه المرتجفتين ، كان الجسد مع الأسف دافئًا ، ربط ذقنه برباط طويل ، وظل هكذا حتى الصباح يحرس جسد بشر . . .

مرت السنوات منذ ذلك الوقت ، سنوات من دون (المتعبد امرة) ومن دون الأخت الكبيرة . . . ماذا لو كان الجميع قد

نسيه ، ماذا لو كان الجميع قد ذكره ظانين أنه لن يعود. . . أسوأ ما قد يحصل أن يصبح المرء منسيًا ، كان حماسه يزداد كلما اقترب من المولوية ، كان قلبه لا يسع رأسه. . .

رأى الدخان المتصاعد من مداخن المولوية ، لم يتحمل ، جلس عند أسفل شجرة. . .

سمع فوق رأسه أصوات أجنحة ، رفع رأسه ونظر ، كانت اللقالق تهاجر إلى الأقاليم الدافئة ، همس قائلاً : « كل شيء يهاجر ، حتى الحياة » ، « إن كانت المنزلة التي وصلت إليها بلا خير يكون الإنسان بوضع صعب ، إذا فيجب أن نصبح عشاقًا ، يجب ألا نحترق إلا بنار العشق ، إذاً فعلينا أن نعرف الحق ، أن نتبع الحق ونموت على هذا الحال. . ألا يتواجد طريق غير سليم. . » .

الهجرة لأجل الهجرة. . . فلتقم يا يونس ، فلتصف الجندي أمام الملك ، فلترسم على عتبتك وجه وعين ، إن كان قد نسيك ، يا ويلتاه يا ويلتاه ! . .

كان الجو قد أظلم عندما وصل يونس إلى التكية ، لم يتعرف على الذين كانوا قرب الباب ، لم يكن أحد منهم مألوفًا وجهه ، أما إنهم القادمون من الهجرة مسافرون أو أنهم الدراويش الذين جاؤوا من بعده وسكنوا التكية ، مشى بوقار نحو النافورة القديمة التي

عملت بأيدي (المتعبد أمرة) ، توضأ من الماء التي تنصب وتقف ، وبينما يتجفف عادت كل الذكريات تتجدد من جديد ، اليوم الأول الذي دخل فيه إلى التكية ، اللحظة الأولى التي رأى فيها وجه (المتعبد أمرة) المبارك ، أول أسئلة الأخت الكبيرة ، أيام المحن الطويلة ، تذكر بشرًا والسلطانة فاطمة ، انتبه عندما اقتربت صوت خطوات شخص منه وهو يفكر ، تعرف مباشرة على عينين عجوزتين تنظران إليه بكل استغراب وتعجب وشغف وحب ، هذه كانت الأخت الكبيرة ، قام واستقام يونس وقف الديوان ، أمال رأسه وانتظر ، بصوت مرتجف كارتجاف أوراق الخريف سألته :

« أحضرت السلام أيها الابن ، كنت قد أحسست أنك ستأتي ، ستأتي اليوم ، وكانت عيناي لا تفارق الطريق. . . هل أنت جيد ، فلتحكي » .

وكعادته يونس يتكلم بصوته القطني الناعم وكأنه يهمس همسًا بكل احترام .

« لا يتواجد السوء في باب المتعبد يا أختنا الكبيرة. . . أشكر الله لأنني رأيتكم من جديد ، إن قلبي يتلوى بعشق الشيخ ، مرادي أن أرى وجهه وجماله بكل شبع ، إنني متعطش ركضت أشبع ظمأي بالجرعات القلبية ملتجأً » .

« أليس من المناسب رؤية فاطمة أولاً ؟ »

« إن فاطمة قطعة من شيخي ، أتمنى رؤيته كاملاً ، فليكن ما هو مناسب . . . » .

« ابني الحبيب إن نور عيناي (المتعبد أمرة) الضائع صار خيالاً ، إنه لا يرى العالم الآخر بهذه العيون الفانية ، إنني آخذه ليتوضأ وآخذه من يديه إلى المسجد » .

« لا كلام على حكمة الله وقدره إذا شاء شيئًا فلا اعتراض ، إذا أحب عبدًا ابتلاه ، كي يرفع من درجاته ، هل يتعرف إلي يا ترى شيخي ؟ لربما نسيني ، أو أنه أخرجني من قلبه ؟ مَرَّ وقت طويل جدًا ، إنني خائف . . » .

« اتبعني يا بني ، فلنأتي بابه أولاً ، سيريد الذهاب إلى الجامع بعد قليل ، انتظر ، ربما يتعثر بك . . . فيسأل من هذا ؟ وأقول له يونس ، إن قال : أي يونس ؟ فهذا يعني أنه نسيك ، وإن قال : يونسنا ؟ فهذا يعني أنه لم ينساك ، إن هذا امتحان ، فليهون الله » .

انتظر يونس انتظارًا مؤلمًا ، كان يتلوى فيه ويتعذب ، ولكنه رغم هذا متأمل وسعيد .

جاءت أصوات ضجة من الداخل .

فتح الباب .

وظهر (المتعبد أمرة) عبر الباب ، أمسكته الأخت الكبيرة من يديه وتحضره ، لامست رجل الشيخ يونسًا ، وكأن يونس ليس في

هذا العالم ، سكرانٌ ، وقد تخطى نفسه ، سأل (المتعبد أمرة) :

« من هذا يا امرأتي ؟ »

تقول الأخت الكبيرة « يونس . . . » .

في وجه الشيخ نور واضح ساطع . . .

و بسؤاله : يونسنا . . . ؟ كأنه جعل من العالمين مباركين ليونس ، كان يونس يغسل العتبة بدموعه . . .

يدخل يونس المسجد تابعًا المتعبد وكأن كل شيء قد توقف . . . يونس يذوب حتى الصباح بهيام وننتهي . . .

جناحين من الشكر ، يرفرف ـ يونس بلا أطراف ولا بلاد ـ في السماء عاليًا . . .

قال أن « يونسنا » عاد إلى التكية ، كانت الجبال والعصافير تزقزق والأزهار الوردية تقول « يونسنا » عاد إلى التكية ، والنور الذي خنق السلطانة فاطمة من السعادة كانت الحياة جميلة محبة رغم كل الآلام .

تعانقوا . . . .

محي الزمان وذهب من أعينهم ، وانحمت الأشكال وذهبت ، وكأن أصوات أجنحة الملائكة تبدو من الداخل . . .

كأن الشمعة الكبيرة تحول نور الغرفة إلى صباح عامر .

من بعيد جدًا أصوات حدوات الأحصنة .

بحر هائج من الخارج ، ومن الداخل عميق وهادى .

في الخارج جيش يستعد للقتال ومجهز وقوي ، وفي الداخل أناس عمها القوة ، أناس كالجمال .

المنتصر عثمان ، الرقيب سمسا ، الجد آك ، يوسف ، مهال ، دورسون فقيه ، ويونس ، يونسنا . . .

كل شيء حُكي ، صمم كل شيء بأحسن طريقة ، تدفق جديد وتجهيزات جاهزة لفتح جديد ، سيخرج غدًا عند طلوع الشمس مسافرًا المنتصر عثمان . . . دعاء يونس يعم الغرفة ، كان يونس في سعادة وفخر كبير بصديق طفولته يوسف الذي كانت عينيه تلمع كونه السيد اكنجي ، كان اسم يوسف بالنسبة ليونس شيء يدعو للكبرياء ، كان قد مَرَّ على قدوم يونس يومان ، كانوا قد تسامروا يومين متواصلين ومن دون أن يشبعوا من بعضهم .

قال يوسف ادعي .

دعى يونس . . .

أن يجعل الله من شأن العثمانية أعظم ويعمها السلام ، أن تمسك بأغصان العجز ، وأن يلجأ لها المساكين .

أرى عثمان المنصر حرمة يونس واحترامه بأعظم شكل .

ولآخر مرة أمسك يونس بيده القرآن وبيده الأخرى سيف المنتصر عثمان .

« سيسعفكم الله كلما ارتفع وانخفض هذا السيف في سبيل الله ، سيسعفكم حتى لا تجد كواحلكم انحناءً » .

هذا ما قاله .

أقسم المنتصر عثمان ومن معه بالله .

قالوا : « سيرفع هذا السيف وينزل في سبيل الله » ، في الصباح التالي خرج الجيش نحو الجهاد بكل قوة .

كانوا قد تعانقوا لآخر مرة . مشى يونس مع شمل الجيش بأكبر انتصار مبارك .

كانت أنفاس يونس الأخيرة تخرج وهم يقرؤونه الشهادة. . . وصى أن يدفن جسده أمام جسد (المتعبد أمرة) ، عند أسفل قدميه ، قال : « فلتدفنوني هناك عندما يأتون لزيارة (المتعبد أمرة) فليمضغوا يونس الفقير وليمضوا » ، قال كلماته الأخيرة ثمّ :

فلتعطى قبيلتنا

أصبحنا ذاهبين إلى صاحبنا

سلام لمن وقفوا. . .

من أجل الصلاة فوقنا

* * *

يونس الغريب ، يونس الفقير ، يونس المعدم . . . وقع وأغمي عليه على رأس جبل قرية على وشك الانهيار . . .

راعٍ لفَّ نفسه بغطاء صوفيّ ، أحضر قطيع خرافه وهو يقودهم ، وفي شفاهه قصب ، وفي القصب أغنية تركية قديمة . . . فليمر الخروف الأسود من فوق الماء يا هذا ! حتى ولو لعق الملح وآلمته كليته من الماء ، فلينحني وليمر دون أن يشرب يا هذا !

اقترب الراعي الذي لفَّ نفسه بغطاء صوفي في قمة الجبل ـ بخوف ـ من الرجل النائم مفتوح الذراعين على جانبيه ، كان الرجل يتنفس ، لم يكن قد مات . . . فحمله على ظهره ومشى إلى آخر المنحدر .

وبدأ يصرخ :

« أيها الناس ، ألا تسمعون ؟ الحقوه قبل أن يموت يا هذا . . . ».